الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

بَشَرٌ مِثلُنَا

تحريف الحقائق في الشرق الأوسط

يوريس لونديك



بَشَرٌ مِثلُنَا

تحريف الحقائق في الشرق الأوسط

PEOPLE LIKE US

بَشَرٌ مِثلُنَا

تحريف الحقائق في الشرق الأوسط

PEOPLE LIKE US

يوريس لونديك

Joris Luyendijk

ترجمة

حسان البستاني

مراجعة

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-9953-87-858-4

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الطبعة الانكليزية PEOPLE LIKE US
لكتاب HET ZIJN NET MENSEN

تمت الترجمة بدعم من:
Subsidy for Arabic translation by "Foundation for the Production and Translation of Dutch Literature"

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1-961+)

المحتويات

مُقَـدِّمَـة

مرحباً جميعاً!

«شخص إضافي؟» خرج منسّق منظمة أطباء بلا حدود من الكوخ الميداني ونظر إلى جزمته. فأومأت برأسي، وأدركت أنه يتعيّن عليّ تقديم اقتراح سـريع؛ وإلا انهمرت دموعي على وجنتَيّ الشـاحبتين في الكوخ المجاور، وهذا ما لم أكن أريده.

كان يومـاً ممطـراً مـن أيلـول/ سبتمبر عندما جبتُ أنحاء قرية واو جنوب السودان سَيراً على الأقدام، وهي مكان وصفته الصحف أنه ابتُلي بالمجاعة ومزّقته الحرب في السـنوات العشـرين الماضية. في مكان ما من الضفة الأخرى للنهر، كان هناك المتمردون؛ وفي الضفة حيث نحن، أقامـت منظمـة أطبـاء بلا حـدود مخيماً للاجئين المتضورّين جوعاً. كان وقف إطلاق النار ساري المفعول حتى يتم خرقه.

«هل أنت على ثقة أنك تريد رؤيتها؟» سـأل مراسـل متمرّس في العاصمة الخرطوم. «مخيمات الجائعين قد تفسـد الأمور داخل قرصك الصلب أي دماغك». ونصح آخر: «قُم بالأمر على غرار الطيار الآلي. كل ما تحتاج إلى التفكير فيه هو، هل يمكنني استخدام ذلك لمقالتي؟»

مـا أرانـي إيـاه منسّـق المنظمة فـي أول كوخين كان مثالياً لمقالتي:

أطفالاً ذوي بطون منتفخة كنت أعرف منذ تحصيلي العلم في المدرسة الابتدائية أنهم ضحايا الجوع الشديد؛ عظام ناتئة تحت جلدهم كسواري خيمة عصفت بها الرياح وخلّعتها؛ أطفالاً دارجين شديدي النحول بحيث يتعيّن على أمهاتهم سَند رؤوسهنّ كي لا تنكسر أعناقهنّ. كانت مادة مفيدة جداً لمقالتي.

مررت والمنسّق أمام مُلصَق يحمل عبارة **لا تشنّوا حرباً على المدنيين** فوق صورة جنود ينهبون ومدنيين يبدو عليهم العَجْز. كانت القرية حيث أُقيم المخيم مُقفَلَة: المقهى، مكتب تسجيل العطاءات الفورية والمستقبلية، مدرسة البابا يوحنا بولس المتوسطة، مركز الناصرة لبيع الخضار والفاكهة كانت مصاريعها وأبوابها مغطّاة بألواح، وشرفاتها مليئة باللاجئين. لقد وُضع أشخاص من مختلف الأنواع في هذا المكان: لاجئون، قرويون، أشخاص من كل ملة ودين.

سلكنا طريقاً ملتوياً بين الحُفر الموحلة والقُمامة في اتجاه الكوخ الثالث. كان هناك خمسون شخصاً آخرون يحدّقون إلى الفراغ ويحتمون من المطر، لابسين ثياب الحداد على أمواتهم، منتظرين حصتهم الغذائية التالية. لقد بدوا وكأنهم يتفحّصونني بعناية كما لو أن أحدهم أطفأ النور في أعينهم. لهذا السبب، يُنسَب إلى اليائس تبلُّد حسّه وبطء الفهم لديه. فدوّنت على مفكرتي **فاقدو الأمل**.

عندما وصلنا إلى الكوخين الأوّلين، لم أستطع كبت مشاعري، فقمت بانحناءة صغيرة لإخفاء حرَجي وكبح دموعي. في هذا الكوخ، رفعت يدي تلقائياً، وأجبرت نفسي على الابتسام، وصرخت: «مرحباً جميعاً!».

حدث الأمر. لقد أشرقت وجوههم فجأةً، وقهقهت الفتيات، وبدّل رجل مُسنّ وِضعته على الكرسيّ، ووكز الأطفال أمهاتهم بمرافقهم

استرعاءً لانتباههنّ. «انظري، يا أمي!». أفلت طفل دارج في الثانية من عمره تقريباً من شقيقته، وتمسّك بركبتي بيدَيه، ووقع أرضاً. انفجرت أمهات الأطفال النحيلين ضحكاً، واستخدمنَ أياديهنّ الطليقة للتلويح.

هكذا استهلّيت عملي كمراسل لشؤون الشرق الأوسط عام 1998، والذي دام خمس سنوات. عندما انتهت الفترة، وبينما كانت أمتعتي في طريق العودة إلى هولندا على متن سفينة شحن، قمت بجولة وداعية على مصادر معلوماتي وهم أشخاص كنت مَديناً لهم بتأشيرات دخول، وتعريفي بأشخاص آخرين، وخدمات أخرى. كان الشخص الأخير على لائحتي سفير دولة عربية. ففي مقرّ إقامته الفخم في لاهاي، العاصمة السياسية لهولندا، احتسينا الشاي، وتباهيت بلغتي العربية للمرة الأخيرة. قال السفير إنه لأمر استثنائي أن تتخلى عن العمل كمراسل في أثناء تقدّم الأميركيين نحو بغداد. فقلت له إنني أردت التوقف قبل الاجتياح الأميركي، ولكنني استمرّيت عملي لمدة أشهر قليلة بسبب الحرب. في تلك الأثناء دخل أحد مساعدي السفير، وهمس في أُذُنه، فبدّل المحطة التلفزيونية التي كان يشاهدها منتقلاً إلى السي أن أن. فرأينا التمثال الضخم لصدام حسين يسقط في ميدان الفردوس في بغداد. كان العراقيون المهللون يصيحون أمام عدسات الالات التصوير، ويضربون التمثال بأحذيتهم. «شكراً يا سيد بوش!» وصف المعلّق التلفزيوني الأمر بمهابة قائلاً إنها «لحظة تاريخية»؛ انتهت الحرب، وباستطاعتهم وضع كابوس صدام حسين وراءهم. كانت بغداد تحتفل بتحريرها، كما أعلنت الصحف الغربية في اليوم التالي.

بعد ذلك، تحوّل السفير إلى المحطة التلفزيونية العربية؛ الجزيرة. كانت تعرض مشاهد لميدان الفردوس أيضاً ولكن من زاوية مختلفة. ففي

الميدان نفسه، رأينا الجنود الأميركيين يضعون راية أميركية على تمثال صدام فرحين بانتصارهم. شاهدنا بعد ذلك نقاشات محمومة وجنوداً أميركيين يندفعون لرفع الراية. واصلت الجزيرة نقل مشاهد لعراقيين متهللين عن السي أن أن مُلتقَطة من مسافة أبعد: باستطاعتكم التحقق من قلّة الأشخاص الموجودين في الميدان في الواقع من مسافة لا تُخفي الوقائع.

ودّعتُ السفير، وقمت في الأشهر التالية بما يميل المراسلون العائدون إلى القيام به؛ بدأت العمل على كتاب يتناول المنطقة التي كنت أغطيها. ولكنني أُربكت على الفور. فلدى قراءة الصحف أو مشاهدة التلفاز، كنت أجد أحدهم يجادل قائلاً إن الأصوليين هم وراء هذا الحدث أو ذاك، وإنه لن يكون هناك سلام في الشرق الأوسط «إلا إذا انسحبت إسرائيل من الأراضي المحتلة» أو «توقفت أميركا عن دعم الحكام الدكتاتوريين». فأقول في نفسي، حسناً، هناك براهين مُقنعة على ذلك؛ ومرة أخرى، هناك براهين مُقنعة تُثبت العكس. لم يكن باستطاعتي معرفة الحقيقة، ولهذا السبب لم يكن كتابي يُحرز أي تقدّم.

بعد ذلك، عدت بالذاكرة إلى أسبوعي الثاني كمراسل. كنت قد عدت للتوّ من السودان، وأنتظر في وزارة الإعلام في القاهرة ليتمّ ختم أوراقي. كان يتطلب الأمر قليلاً من الانتظار، فتبادلت أطراف الحديث مع مراسل زميل ينتظر أيضاً. كان شخصاً متمرّساً في الواقع، وأخبرني في غضون خمس دقائق بصوت مماثل لصوت مُسرفٍ في تناول الشراب أن صديقه المفضَّل توفّي في الحرب الإيرانية-العراقية. عندما قلت له إنني كاتب وإنني بدأت للتوّ عملي كمراسل، ابتسم ابتسامة عريضة وقال: «إذا أردتَ وضع كتاب عن الشرق الأوسط، يُستحسَن بك القيام بذلك

فوراً. فكلما أطلتَ التمحّص بالموضوع بات فهمك له أقل».

لقـد وجـدت الأمـر قاسـياً، وربمـا كان صحيحاً مـن هذا المنظور. ولكـن بعـد عودتـي إلـى هولنـدا، بدأت أفهم ما عنى بقوله. فقبل انتقالي إلى الشرق الأوسط، كانت لديّ بعض الأفكار المُسبَقة عن تلك المنطقة مُستقاة بمجملهـا مـن وسـائل الإعـلام. وبعـد وصولـي، استُبدلت هذه الأفكار شـيئاً فشـيئاً بالواقع نفسـه الذي ثبُت أنه أقلّ ترابطاً مع المنطق وأقلّ قابلية للفهم مقارنةً مع ما وصفه الإعلام. وقد بلغت هذا الاستنتاج للمرة الأولى في ذلك الكوخ الثالث في واو.

عندما ذهبت إلى هناك، كنت استند إلى معلومات مسبقة مستندة إلى تلك الصور التي أشاهدها في نشرات الأخبار عن الأشخاص الذين يبدو عليهم البؤس. ففي الكوخين الأوّلين، شـاهدت أشـخاصاً بؤسـاء، ولو لم أبادر إلى القول «مرحباً جميعاً!» في الكوخ الثالث، لغادرت ربما مع فكرة أن هؤلاء الأشخاص بؤساء أيضاً. لقد كانوا بؤساء في الواقع؛ كانوا على وشك التضوّر جوعاً تقريباً. لكن القصة لم تنتهِ فصولها هنا. فالمنطقة المحيطة بواو خصبة بقدر خصوبة هولندا، وكان هؤلاء البؤساء مزارعين يوفّرون لأنفسهم أسباب العيش إلى أن قامت الفصائل المتحاربة بطردهم من أرضهم. فسوء الحظ هو ما يعاني منه بصفة رئيسية هؤلاء الأشخاص المقيمين في مخيم الجائعين.

عندما عدت بالذاكرة إلى سنواتي الخمس كمراسل، تبادر إلى ذهني العديـد مـن الخبـرات المماثلـة. لقد أصبحت الأمور أكثر إثارة للاهتمام عندما عدت إلى ملفاتي، واكتشـفت طريقة قيام الصحف بوصف واو. تضمّنـت مقالتـي رد الفعـل المفاجـئ لـذوي الآمال المحطَّمة في الكوخ الثالـث والذيـن يبـدو عليهـم البـؤس، بالإضافـة إلـى مقابلة مـع الطبيب في مسـتوصف المعسـكر. كان يعالج أسـوأ الحالات ويناضل كل يوم

«لتخفيض عدد الوفيات اليومية في واو والبالغة ثمانين حالة». لقد أخبرني أن مشكلته الكبرى تمثلت بمَعِداتهم المنكمشة: «إذا أكلوا كثيراً تنفجر إمعاؤهم، وإذا أكلوا قليلاً ماتوا. علينا منعهم من الأكل حتى وإن كانوا يتضوّرون جوعاً بكل ما للكلمة من معنى. ووفقاً للكتب الطبية الدراسية، يُعتبر هؤلاء الأشخاص أمواتاً».

يدعو المحررون تلك الجملة الأخيرة اقتباساً رائعاً، وقد جعلتها غرفة تحرير نشرة الأخبار العنوان الرئيسي، وزوّدت الخبر بصورة مُنكَرة مُرفَقة بالتعليق التالي: «في مخيم للاجئين بالقرب من أجيب، وفي مكان غير بعيد عن واو جنوبي السودان، وضعت امرأة مولوداً. في الكوخ الميداني نفسه، يرقد أحد أفراد عائلة تتضوّر جوعاً على فراش الموت». إلى اليمين، هناك رجل نحيل يحاول ربما اكتشاف مصدر الصوت الغريب الذي تُصدره آلة التصوير؛ وفي الوسط، طفل يبكي؛ وإلى اليسار قابلتان مع والدة حامل قلقة.

كانت صورة معبرة بفظاظة، ولكن كان بإمكان المحررين اختيار صورة أشخاص يبتسمون في الكوخ الثالث، واعتماد اقتباس مختلف عنواناً رئيسياً على غرار ما نُقل عن لسان أحد أطباء المعسكر الآخر: «إن قدرة هؤلاء الناس على التحمّل لا يمكن تخيّلها. ما كان باستطاعة أي شخص غربي النجاة من هذا الوضع، ولكنهم ينتظرون السلام هنا، وسيسيرون مئات الكيلومترات للعودة إلى قراهم، وزرع الفول السوداني، وحفر أرض بالمِعول كفّوا عن استصلاحها منذ زمن بعيد».

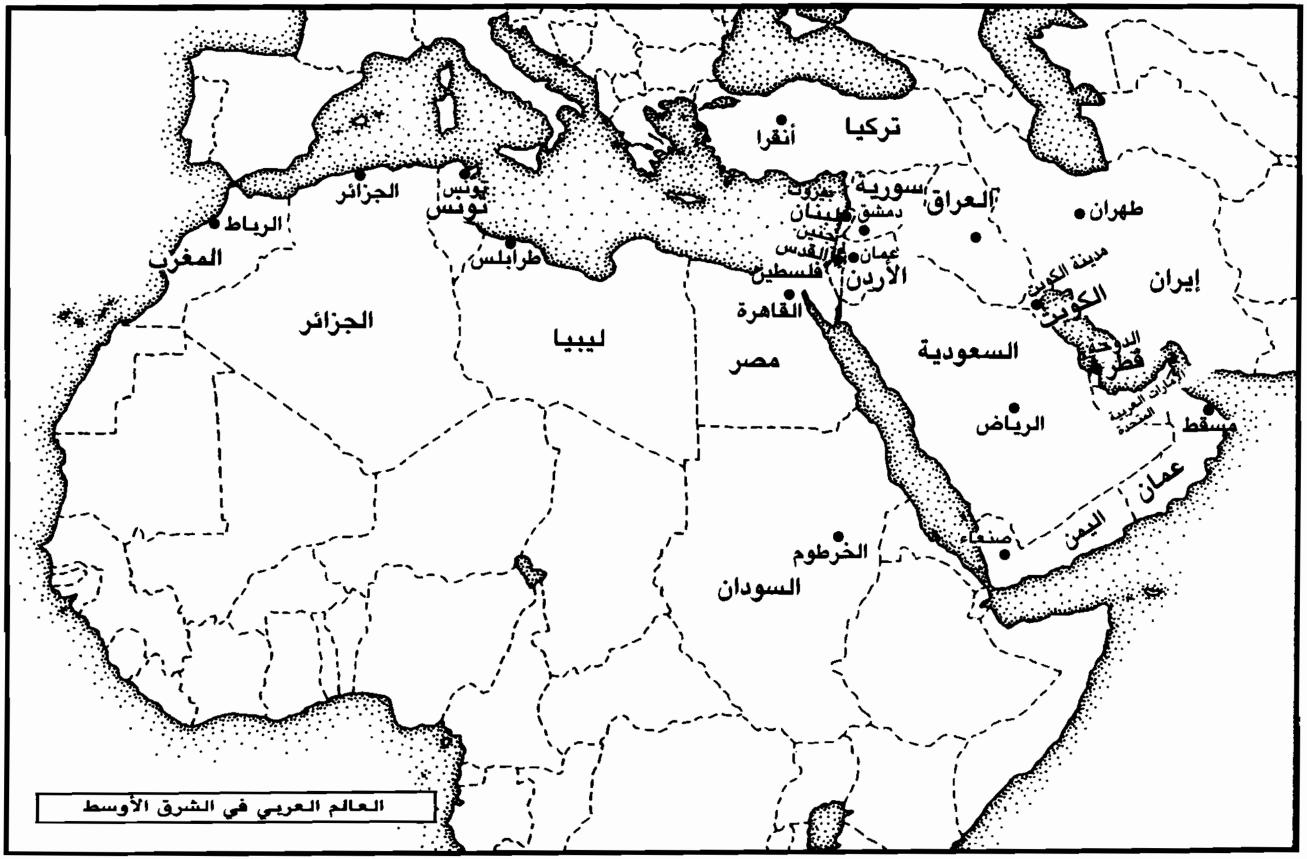
بما أنني مراسل، يمكنني سرد روايات مختلفة عن الوضع نفسه. وكل ما تقوم به وسائل الإعلام هو اختيار رواية واحدة تكون في الغالب الرواية التي تعزز فكرة عامة معتمَدة عموماً، كصورة الأشخاص البؤساء

في واو الذين يُعتبرون أمواتاً وفقاً للكتب الطبية الدراسية، وذلك بدلاً من صور أشخاص يتمتعون بقدرة لا توصف على التحمّل ويعانون من الكثير من سوء الحظ.

خلال السنوات الخمس تلك، كان لي الكثير من الخبرات المماثلة، مما جعل من أحداث ميدان الفردوس خاتمة ملائمة. لقد رحّب الصحفيون الأميركيون والأوروبيون بسقوط بغداد، وقد أُرسلت لهم صور عراقيين فرحين يطيحون بتمثال صدام، وهو أمر ينسجم مع توقعاتهم معتبرين أن العمل قد أُنجز. أما قناة الجزيرة فاعتبرت سقوط بغداد بداية احتلال، وبحثت عن صور ترمز إلى وجهة نظرها، وإحدى هذه الصور تُظهر أميركيين منتصرين يرمون رايتهم بشكل عفوي على التمثال.

هكذا، كانت الصورة والواقع يتباعدان. وعندما أدركت ذلك، اخترت الرواية التي أريد سردها. فلم أشأ وضع كتاب يشرح الطريقة التي يمكن للعالم العربي أن يصبح من خلالها مثلنا، أو من هو المُحِقّ أو المخطئ في النزاع القائم بين إسرائيل والفلسطينيين؟ لقد أردت أن أكتب النقيض؛ كتاب يُظهر مدى صعوبة قول أمور ذات معنى في شأن قضية رئيسية كقضية الشرق الأوسط؛ أم ربما وضع كتاب ببساطة حول كل تلك اللحظات التي وجدت نفسي أقول فيها، مرحباً جميعاً!

القِسْمُ الأوّل


العالم العربي في الشرق الأوسط
تركيا
أنقرا
سورية
العراق
طهران
إيران
الكويت
السعودية
الرياض
مسقط
عمان
اليمن
صنعاء
الأردن
عمان
القدس
فلسطين
لبنان
القاهرة
مصر
الخرطوم
السودان
ليبيا
طرابلس
تونس
الجزائر
الرباط
المغرب

الفصل الأول

صحافة للمبتدئين

يتعلم معظم المراسلين المهنة في بلدهم الأم ويُرسَلون بعد ذلك إلى العالم. لقد قمت بالأمر بشكل مختلف: لم أدرس الصحافة بل العلوم الاجتماعية واللغة العربية. وكجزء من مقرّري الدراسي، قضيت عاماً في جامعة القاهرة. بعد ذلك، وضعت كتاباً عن الأمر، وهكذا، بلغ اسمي صحيفة فولكسكرانت ونشرات راديو1 الإخبارية.

هذا يعني أنني كنت على قدر كبير من قلة التمرّس عندما حان موعد تسلّمي المنصب في القاهرة. وبالرغم من السماح لي بممارسة العمل لأيام قليلة على سبيل الاختبار في مكاتب الصحيفة والإذاعة قبل مغادرتي إلى مصر، استمرّيت بالنظر إلى الصحافة كما ينظر إليها القارئ والمشاهد والمستمع العادي. فالصحفيون على عِلم بما يجري في العالم، كما كنت أعتقد؛ والنشرات الإخبارية تقدّم نظرة عامة عن هذه الأحداث، ومن الممكن إبقاء تلك النظرة في إطار موضوعي.

لقد بقي قلّة قليلة من هذه الأفكار على حالها من دون إدخال أي تعديل عليها في السنوات التي تلت. لكن إعداد الفقرة الإخبارية المتعلقة بالاسرائيليين والفلسطينيين دمّرت معتقدي بإمكانية وجود أخبار

غير منحازة. في السنوات التي سبقت شَغلي ذلك المنصب الدقيق - منذ أسبوعي الأول في واو حتى هجمات 11 /9 وما تلاها - تعلمت أن الصحافة الجيدة في العالم العربي ليست سوى تعابير متناقضة، مما يعني أنه ليس باستطاعتك معرفة ما يجري هناك. لا يمكنك معرفة ذلك كصحفي، ولا يمكنك معرفة ذلك في الواقع كمشاهد أو قارئ أو مستمع.

لقد اكتشفت هذا الأمر بالتدريج، ولم تتضح لي بعض الأمور إلا بعد حدوثها، ولكن شكوكي كانت قد بدأت في مرحلة سابقة عندما استيقظت ذات يوم واكتشفت أنني مراسل لشؤون الشرق الأوسط، فأُطلق العنان لشعوري بالإجهاد.

في الأسبوع الأول من وجودي في القاهرة، كنت هناك بين حقائبي غير المفتوحة عندما رنّ الهاتف. فقال لي شخص ما من مكاتب الصحيفة: «عليك الذهاب إلى السودان!». كنت قد عثرت للتوّ على شقة، وبات عليّ الآن مغادرتها على الفور إلى بلد لم يسبق لي أن زرته من قَبل! كيف تجري الأمور في هذه الحالة؟ هل لديهم أي أمراض هناك يتعيّن عليّ جمع معلومات عنها؟ فشعرت أن قلبي ينبض بأقصى سرعة، ولم أكن أدرك حتى تلك اللحظة أنني سأزور مخيماً للجياع. والأكثر تسبباً بالحرَج هو أنني لم أكن على عِلم بحدوث مجاعة في السودان.

لقد اتصلت بي الصحيفة بسبب قيام ما أُطلق عليها اسم «الجبهة الإسلامية في مواجهة اليهود والصليبيين» بتفجير سفارتين أميركيتَين في أفريقيا. ورداً على ذلك، قصفت واشنطن معسكرات التدريب الحدودية في أفغانستان ومصنعاً في السودان. وادّعى الأميركيون أن المصنع يُنتج أسلحة كيميائية، ويملكه زعيم الجبهة المدعوّ أسامة بن لادن، ولكن واشنطن لم تقدّم أي دليل، ووفقاً للنظام الحاكم في الخرطوم، كان

مصنع الشِفا يُنتج أدوية.

بينما كنا مصطفّين أمام السفارة السودانية في القاهرة، شرح لي صحفيون زملاء ما يجري: طيلة سنوات، سمحت حكومة الخرطوم بدخول أقل عدد ممكن من الصحفيين الغربيين إلى أراضيها، إدراكاً منها أنهم لن يكتبوا سوى ما يشير إلى سوء ممارسة الحكم، والاستغلال، وجرائم الحرب. من الواضح أن النظام بات يفترض أن الصحفيين سيكتبون قصصاً مثل «أميركا تدمّر منشأة صيدلانية في سودان يرزح تحت عبء فَقر مُدقع»، لنتخطى الأمر الآن. لقد حصلتُ على تأشيرة الدخول في غضون ساعة.

فحجزت على متن رحلة جوّية، واجتزت تيارات هوائية عكسية على غرار الصحفيين الأكثر تمرّساً، وبقيت في الأكروبوليس كمعظم الأوروبيين وهو فندق صغير يمكن تحمّل تكلفة الإقامة فيه، وهو بإدارة عائلة يونانية تُقيم في المدينة منذ أجيال. فالجميع يتناولون الطعام معاً، ولم تكن غرف النوم مزوَّدة بخطوط هاتفية دولية، والردهة الرئيسية هي المكان الوحيد الذي يمكنك مشاهدة التلفاز فيه. بالمقابل كان كل الأميركيين، من دون استثناء، ينزلون في فندق الدرجة الأولى، هيلتون، الذي يأوي أيضاً مكتب الصحافة المؤقت للنظام السوداني.

لم أكن أملك أي فكرة عما يُفترض بي القيام به، وفي صباح اليوم التالي، حَذوت حَذو نظرائي ببساطة. كانوا أنيسي المعشر بمجملهم، واتضح لي بعد فترة قصيرة سبب عدم شعورهم بالقلق في أثناء الرحلة الجوّية مساء أمس؛ لقد كان كل شيء مُعَداً لنا. ففي المصنع الذي تعرّض للقصف، جمع السودانيون مجموعة من بقايا الصواريخ الأميركية وأدلة على الهجوم مثيرة للمخيّلة وملفتة للنظر. كانت لوحات المفاتيح الموجودة بين زجاجات الدواء، وأجهزة الهاتف المسودّة، وآلات

عرض الشُفافيات، تغطي المكان. قادنا العاملون في وزارة الإعلام إلى المستشفى حيث الجرحى، وإلى التظاهرات الصغيرة الحجم في المدينة التي بدت أكبر حجماً لدى تصوير مشاهد عن قرب كما عرضتها السي أن أن: «حشود غاضبة تحتج على القصف الذي تعرّضت له الخرطوم». كان هناك مؤتمر صحافي يومي حيث لا يتم الإعلان عن أي جديد. بالرغم من كل شيء، ما الذي يمكن للنظام أن يقوله؟ «البلد الأكثر فقراً في أفريقيا يهدد الولايات المتحدة بالعقوبات؟» مع ذلك، فإنه المكان حيث يمكنك تبادل ما يتم تداوله من أخبار سارّة ومثيرة، وكان مدير التصدير في الشفا يتنقل في الأرجاء بلا كلل مُخبراً قصته لمجموعات الصحفيين المتدفقة. «سيكون على الرئيس الأميركي الاعتذار ببساطة».

هكذا جرت الأمور، وثبت أن القصف كان مادة مفيدة للنشرات الإخبارية طوال ثلاثة أيام: التقرير («صواريخ كروز على السودان»)؛ وردود فعل عامة الناس («كلينتون يكذب في شأن الشفا أيضاً»)؛ والتحليل («الخرطوم تستغل الهجوم الأميركي»). بهذه الطريقة، تمت تغطية حادثة القصف، وتقدمت قافلة الإعلاميين بحثاً عن قصة تالية.

لا يمكن أن تكون تلك القصة قصة المجاعة جنوبي السودان، قال صحفيون آخرون، بالرغم من أن المئات يقضون نحبهم هناك كل يوم. ولكنني أردت مشاهدة البؤس على الأرض، فطلبت مني صحيفتي التحقق من مدى إمكانيتي مقاربة هذا الموضوع. فقمت بالاستفسار، واكتشفت أن الجنوب مفتوح للصحفيين مؤقتاً كجزء من الحملة التي تشنّها الخرطوم. وبما أن هولندا تمنح السودان قدراً كبيراً نسبياً من المال لغايات تطويرية، تمكنت السفارة من تأمين تصريح سفر لي إلى منطقة الحرب. كان أطباء بلا حدود توّاقين إلى بعض التغطية الدعائية

لنشـاطاتهم، فقدّموا لي مقعداً على متن طائرتهم في مقابل قيامي بذكر اسم منظمتهم في مقالتي. وهكذا ذهبت.

لقد اعتبرت هيئة التحرير في الوطن أن رحلتي إلى السودان بداية ممتـازة لمهنتـي. ولكننـي كنتُ مُثقَـلاً بالإرباك والانطباعات الجديدة في أثنـاء عودتـي إلـى القاهـرة. كنـت أعتبـر اللاجئيـن على الـدوام ضحايا، ولكن أكبر المشـكلات التي كانت تواجهها منظمة أطباء بلا حدود هي التعـرض للعُنْـف والسـرقة. لقـد دأب المقيمـون في المخيم على سـرقة موظفي الإغاثة، وسـرقة بعضهم بعضاً، وخوض نزاعات ثأرية، وإتلاف المسـاعدات الغذائيـة مـا لـم يحصلـوا علـى معاملـة مميّـزة... لـم أكـن أتخيّـل أبـداً حـدوث ذلـك من قَبل، ولكن عندما أخبرني منسّـق المخيم عن الأمر، قلت في نفسـي، ماذا كنت تتوقع؟ وينطبق الأمر نفسـه على المسـؤولين والبيروقراطييـن. كنـت قـد افترضـت أنهم يريدون وضع حدّ للبؤس، ولكن الأمور لا تسير على هذا المنوال. فالمسؤولون الرسميون يعرفون أنه يتعيّن على منظمات الإغاثة الغربية تسليم السِّلع التي وعدوا بتوفيرها، وأن وظائف العاملين في ميدان الإغاثة سـتكون على المِحك إذا لـم يصـل الغـذاء للأشـخاص المحدَّدين فـي الوقت المحدَّد. لذلك، يقوم المسـؤولون بابتزاز موظفي الإغاثة؛ يُدفع رسـم بقيمة ألف دولار للحصـول علـى ترخيـص لتوزيـع شـحنة غذائية للجنـوب؛ من دون هذه الدفعة من المال، يُترك الغذاء في الميناء ليتعفّن.

في القاهرة، نمت طيلة أربع وعشرين ساعة، وأفرغت بضع حقائب، وحـلّ بعـد ذلـك صبـاح يـوم الإثنيـن. فجلسـت إلى طاولتـي، وصففتُ بطاقات عمل مراسل شؤون الشرق الأوسط الخاصة بي، وتحققت من عمـل الفاكـس والهاتـف وجهـاز الكمبيوتـر والإنترنـت، وفكرت ماذا لو اختُطـف سـائح غربـي فـي اليمـن، أو فُجِّـر زعيـم في لبنـان، أو خرجت

تظاهرات غاضبة يدعمها نظام بغداد، أو حوصرت مجموعة أصولية في جنـوب مصـر حيـث أقيـم؟... أنّـى لي أن أعـرف ذلك؟ قد تقول لي إنه يتعيّن عليّ متابعة النشرات الإخبارية، ولكنني أنا الأخبار الآن.

لقد انتهى الأمر بالعمل الإخباري على هذا النحو: تشترك كل مكاتب الصحف، والإذاعات، ومحطات التلفزة، في النشرات الدورية التي توفرها وكالات أنباء مثل رويترز، ووكالة الصحافة الفرنسية، والأسوشيتد برس، إضافةً إلى منافسيها الأقل أهمية. وترسل هذه الوكالات مراسلين لتغطية أحداث هامة، ويكون لديها أيضاً بائعو معلومات سرّية على جدول الرواتب حتى في أقصى أقطار العالم. وعندما يقع أحد أولئك المراسلين أو بائعي المعلومات الذين يعملون لصالح رويترز، مثلاً، على خبر جديد بالاهتمام، يتصـل بمديـره المباشَـر الـذي يقـوم بدوره باستشـارة رؤسـائه. فإذا أعطى هؤلاء الضوء الأخضر، ينطلق المراسلون والمصوّرون في مهمة التغطية. وترسَـل صورهـم ومعلوماتهـم إلـى العاصمـة المحليّـة أو إلى لندن حيث تُحوَّل إلى ملحق إخباري يتم إرساله بأسرع وقت ممكن لآلاف المحررين في مختلف أنحاء العالم: مؤتمرات صحافية، مآتم، أرقام قياسية عالمية، عمليـات إطـلاق نـار، نتائـج انتخابـات، مآثر طبيـة، زلازل، عمليات إنقاذ مثيرة للدهشة، تساقط غير متوقَّع للثلوج، حوادث حدودية...

فوكالات الأنباء هي أعين العالم وآذانه، والتعابير المسـتخدَمة في صناعـة الخبـر للدلالـة علـى فيـض المعلومـات التـي ترسـلها هي تدفق الأخبار أو ببسـاطة الوكالات أو الأنباء. فيقال على سـبيل المثال: «هنا اسـتوديوهات هيلفرسـام. تفيـد الأنبـاء عـن اعتقال بعـض الأصوليين في منطقتك. هل لديك أي معلومات إضافية عن الموضوع؟» في البدء، كنت أريد الصراخ أحياناً والقول: «كيف تتوقع مني أن تكون لدي معلومات أخرى عن الموضوع بينما تتحفظ وسـيلة الإعلام المحلية على الأخبار

طيلة أيام متواصلة؟» لقد كان بالطبع سؤالاً معيارياً، ولكن معناه الضمني يحمل طابع الإهانة: لو كانت هيلفرسام تتمتع بقدرة أسرع وأفضل من قدرتي لمعرفة ما يحدث في منطقتي، ماذا كان ليحلّ بي؟

إن العرض للأحداث الجارية هي المهمة الرئيسية لكل مراسل كما اكتشفت بعد شهر ونصف عندما هيمنت الأحداث التي شهدها الشرق الأوسط على الأخبار العالمية لمدة من الزمن. كان صدام حسين لا يزال في سدة الحكم في العراق عندما طرد مفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة من بلده، وأصرّت الولايات المتحدة على السماح لهم بالعودة مهدّدةً إياه بالتعرّض للقصف.

حُدّد موعد نهائي لتنفيذ الإنذار، فسارع الصحفيون للانتقال إلى الأردن المجاور حيث السفارة العراقية الوحيدة التي كانت لا تزال تزاول مهامها. واجتمعتُ مجدداً بالصحفيين الذين تعرّفت إليهم في السودان، ولكن كان هناك العديد من الوجوه الجديدة مما حال دون أن يكون اجتماعاً ودّياً. وبما أن قيام أميركا بقصف العراق هو خبر جدير بالاهتمام أكثر من قيامها بقصف السودان، تدفّق المراسلون إلى الأردن من مختلف أنحاء العالم. وانتقلوا من ثم إلى أفريقيا ثم إلى آسيا. كانت هناك بعض المشاهد المثيرة للاهتمام في فنادق الدرجة الأولى في عمّان: دبلوماسيون ورجال أعمال غربيون كانوا يزاولون أعمالهم في العراق انتقلوا من بغداد إلى عمّان على عجَل بعرباتهم ذات الدفع الرباعي، وصحفيون وصلوا إلى عمّان على عجَل لينتقلوا بعد ذلك إلى بغداد على وجه السرعة. كان هناك أيضاً عملاء سرّيون عراقيون في فنادق الدرجة الأولى يحاولون وضع تقارير عن الأشخاص الذين يتحدث إليهم النازحون العراقيون.

كان الجوّ عائلياً بالرغم من ذلك الكمّ الكبير من المراسلين الذين يغطون الأحداث التي تشير إلى حرب وشيكة، وهيمنت المسائل العملية على نقاشاتنا. كنا نتشاور مع مصادر معلوماتنا، ونتحدث خِلسةً عبر هواتفنا، ونحاول استنطاق أشخاص آخرين بعد تقديم الكثير من الشراب لهم، أو التماس المساعدة من البي بي سي؛ كانت هناك شائعة تتناول وجود موظف تابع لهم في وزارة الإعلام العراقية مُدرَج على جدول الرواتب، ويمكنه الحصول على تأشيرات دخول. فالحصولُ على تأشيرة دخول كان الشغل الشاغل للجميع ولي أيضاً. يا له من كابوس مهين: تملأ الاستمارة، وتقصد السفارة العراقية مرتين في اليوم للاستماع إلى القنصل الجالس تحت صورة كبيرة لصدام حسين المكرَّس والظافر يتلو أسماء المحظوظين القلائل. لقد احتكّينا بالقنصل كأطفال يتحلّقون حول رجل يحمل سكاكر، وكنت أرى أشخاصاً بالغين دامعي الأعين أمام بوابات السفارة بعد أن يكتشفوا أنهم ليسوا من المحظوظين، ويقتصر عملهم على التحديق عبر السياج. وربما كان هناك بعض العزاء لهم عندما أُصيب القنصل بنوبة قلبية بعد فترة قصيرة بسبب الإجهاد، فأرسلت بعض المؤسسات الإخبارية سلال فاكهة.

في الفندق، كنا نتناول المشروبات بأجمعنا. بعد أن نفدت مني الكلمات، شربت معهم لسبب وحيد وهو أن الشراب يساعدني على نسيان حقيقة أنه لم يتم منحي أيضاً تأشيرة دخول إلى العراق، ويتعيّن عليّ تغطية الحرب من غرفة فندقي في عمّان.

بدأت عمليات القصف الجوي، وساد المراسلين، ولا سيما المستقلّين منهم، ارتياحٌ غير ظاهر. كان باستطاعة صدام التراجع في الدقيقة الأخيرة وتجنّب القصف، وفي هذه الحالة يبقى المراسلون الذين أنفقوا أموالاً للقدوم إلى عمّان بلا عمل.

وردت تقارير وكالات الأنباء حول عمليات القصف الجوي الأولى، وبدأ راديو1 الهولندي الإخباري ببث متواصل. ولكن هل هناك أنباء لرفع تقارير بها؟ لم يكن بالإمكان بعد تحديد ما إذا كانت كل الأهداف قد أُصيبت. ولكن إعلان سلاح الطيران الأميركي أن كل شيء يسير وفقاً للخطة الموضوعة، كان مقياساً لكيفية سير المعركة؛ لم يكن باستطاعتي نقل هذا الخبر سوى مرتين. أليس هناك تطورات أخرى؟ لكنني لم أتمكن من مغادرة الفندق. ولم يكن الليل قد انتصف فحسب بل إن جودة الصوت التي توفرها شركة الهاتف الأردنية كانت منخفضة جداً لإجراء حديث تداخلي بواسطة هاتف الإذاعة الخلوي.

كنت أخشى أن يبلغ بي الأمر حدّ أخذ رأي نادل خدمة الغرف في فندقنا، في شأن عمليات القصف الجوي. ولو حدث ذلك، لظن الرجل أنها فرصته الكبيرة، ولقال أمراً مماثلاً: «والله، سيشتد الغضب على أميركا». بعد عشر دقائق، شاركت في برنامج إذاعي مباشَر، وتحدثت أولاً عن خبر تلقيته من نشرة إعلامية لإحدى وكالات الأنباء، قام الاستوديو في الوطن بإرسالها لي عبر الفاكس، ومن ثم عن خبر أوردته الجزيرة يمكن الاطلاع عليه في هولندا، وأخيراً عن رأي المواطنين العرب العاديين. لقد تحدثت بصوتِ خبيرٍ وقلت: «يصعب الحكم على مجريات الأمور، ولكنكم تسمعون أشخاصاً يقولون إن هذه التصرفات تعود على الأصوليين بالفائدة. على أي حال، إنهم في وضع يؤهّلهم للإفادة القصوى من الغضب المتنامي ضد أميركا الذي ستتسبب به الغارات».

دعا البيت الأبيض الغارات عملية ثعلب الصحراء، وأدركت شيئاً فشيئاً سبب هذه التسمية. والأخبار، هي أيضاً، نوع من أنواع العمل الاستعراضي. لهذا السبب، كنت في عمّان أوجز النشرات الإعلامية الواردة من هيلفرسام حول عمليات القصف الجوي التي تتعرض لها

بغداد، وذلك بدلاً من قيامي بالأمر في استوديوهات هيلفرسام. من عمّان يبدو وقعها أفضل على المسامع. كما تعلّمت تعبيراً صحافياً جديداً: مكان الصدور أي مكان إعداد المقالة أو التقرير: «مراسلنا في العاصمة الأردنية عمّان. جوريس، كيف تبدو الأحوال هناك؟»

يُكوّن رؤساء التحرير رأياً عن مراسليهم من خلال مكان الصدور: إذا كنت «تملك المعلومات» وكنت «هناك»- أي إذا لم تُغفل حدثاً رئيسياً تورده وكالات الأنباء وكنت موجوداً في مكان الحدث - تكون قد أحسنتَ عملاً، وإلا، «تحليل جيد، وأمر مؤسف بالنسبة إلى مكان الصدور». لذلك بكى أولئك البالغون عند بوابات السفارة العراقية في عمّان. ولو كانوا في بغداد، لَلَزموا غرفهم على الفور وحُكم عليهم باستخدام وكالات الأنباء نفسها على غراري في عمّان (هذا إذا كانت أجهزة الفاكس تعمل)؛ ولكنهم كانوا ليسجلوا نجاحاً هناك على الأقل بسبب وجودهم في مكان أقرب إلى موقع الحدث.

في الليلة الأولى، بثت الإذاعة ساعات وساعات من التغطية، وشاركت بالتغطية عملياً كل ساعة («هل الغضب لا يزال يتنامى؟»). بعد ذلك، سألني أحد الأصدقاء عن كيفية تمكّني من الإجابة عن كل الأسئلة التي طُرحت عليّ كل ساعة ومن دون تردد في أثناء تلك الأحاديث المتداخلة. وعندما قلت له إنك تطّلع على كل الأسئلة مُسبَقاً كما هو الحال في البرامج الحوارية التلفزيونية، جاء رد فعله عبر البريد الإلكتروني مُرفَقاً بكلمات وعلامات تعجّب. كان صديقي يدرك أن ما دأبنا على مشاهدته والاستماع إليه طيلة عقود على النشرات الإخبارية كان عملاً مسرحياً بَحتاً.

***

كنـت قـد أُصبـت بالدهشـة والإطـراء عندما عرضـت عليّ صحيفة فولكسـكرانت والمحطة الإذاعية وظيفتي مراسـل. وبالرغم من افتقاري إلى الخبرة الصحافية أو الاطلاع على سياسـة المنطقة، أردت الاعتقاد أنهما يثقان بقدراتي. ولكن السبب الحقيقي لا يرقى إلى مستوى الإطراء عليّ، إن مهمة المراسل ليست بهذه الصعوبة. كان المحررون في هولندا يتصلـون بـي عندمـا يحـدث أمـر ما، ويرسـلون النشـرات الإعلامية عبر الفاكـس أو البريـد الإلكترونـي، فأُعيد سـرد مضمونهـا بكلماتي الخاصة عبـر أثيـر الإذاعـة، أم أُعيـد صياغتهـا علـى صورة مقالـة للصحيفة. لهذا السـبب، اعتبر المحررون أن إمكانية الاتصال بي في المكان نفسـه أكثر أهميـة مـن اطّلاعـي علـى مجريـات الأحـداث. فوكالات الأنبـاء تزوّدك بمعلومات كافية تمكّنك من كتابة الخبر المتعلّق بأي أزمة أو لقاء قمة، أو سرده بطريقتك الخاصة.

لقـد تطلـب الأمـر الاعتيـاد على ذلك، وتلقّـي المفهوم الذي كنت قـد كوّنتـه عـن الصحافـة، والأخبار، ووسـائل الإعـلام، الصفعة الأولى. كنت أتخيّل أن المراسلين هم مؤرّخو اللحظة. فعندما يحدث أمر هام، يقومون بمتابعته، ويكتشـفون ما يجري، ويرفعون به تقريراً. ولكنني لم أبرح مكاني لاكتشاف ما يجري؛ كان يحدث ذلك منذ زمن طويل. فما كنـت أقـوم بـه هـو تقديـم تقريـر من مكان إقامتي، وما كنت لأرتاب أبداً بهذه الطريقة، ولكنها منطقية فكل يوم هناك آلاف المؤتمرات الصحافية، والقمم، والمآتم، والتظاهرات، والهجمات، وأعمال الشغب. كيف تتمكن هيئـات التحريـر مـن إلقـاء نظـرة عامة على كل هذه الأحداث؟ بالإضافة إلى ذلك، هناك عدة آلاف من الفِرق الإخبارية في أنحاء العالم؛ تخيّل أن الجميع يحضرون مؤتمراً صحافياً أو مأتماً...

بعـد فتـرة قصيـرة، وفـي أثناء زيارتي الأولـى إلى هولندا للاجتماع

بهيئة التحرير، أدركت سبب سماح رؤسائي لأنفسهم بالانقياد بشكل أعمى وراء وكالات الأنباء والتشديد على أن «تكون هناك» و«تملك المعلومات». كنت أظن أن قسم الأخبار العالمية هو مجموعة من الرجال والنساء المطّلعين الذين يملكون فكرة عن العالم، ويتخذون قراراً بعد تفكير معمَّق في شأن الأحداث التي تصلح لتشكيل النشرة الإخبارية. الأشخاص العاملون خارج إطار هيئة التحرير مطّلعون أيضاً، ولكنهم لا يراقبون مجريات الأحداث العالمية؛ هم يتابعون وكالات الأنباء، ويقوم مدير التحرير باختيار مجموعة من الأخبار المرسَلة من قِبل الوكالات التي سبق لها أن اختارت مجموعتها الخاصة وفقاً لأهميتها خبر عاجل، ملحَق إخباري، وخبر مفصَّل.

مرة أخرى، ما كنت لأرتاب بهذا الأمر أبداً، ولكن عندما شاهدت كيفية إعداد النشرات أدركت أن لا وجود لأي طريقة أخرى. فالمحرر الأجنبي لا يملك خبرة مباشَرة بالعالم العربي؛ هو يعمل تحت تأثير ضغط الوقت الذي يفرض إعداد النشرة الإخبارية قبل الموعد المحدَّد لبثّها، وعليه تغطية العالم، وإدخال أي تعديل يقترحه رئيس التحرير بعد الاطّلاع على الخبر المحرَّر، ولهذا الأخير معلومات أقل عن العالم العربي، ويتعيّن عليه الإشراف على كافة أقسام النشرة (المحليات، الرياضة، الاقتصاد، الفن...)، بالإضافة إلى التعاطي مع كمّ كبير من المهام الإدارية المتزايدة. ما الذي يمكن لرئيس التحرير ومدير التحرير القيام به سوى متابعة وكالات الأنباء ومتابعة المنافس المباشَر لوسيلتهما الإعلامية وطرح السؤال التالي: «لماذا لا نُدرج هذا الخبر؟» لهذا السبب تقع على الصور والأخبار نفسها كلما تصفّحتَ صحفاً مختلفة أو تنقلت بين محطات تلفزيونية إخبارية. فكل المحررين يحصلون على معلوماتهم وصورهم من المصادر نفسها. لهذا السبب أيضاً، لا يميل الأشخاص

الذين يترجمون النشرات الإعلامية ويعيدون كتابتها إلى دعوة أنفسهم صحفيين بل محررين. فهم لا يسافرون، بل يترجمون الرسائل ويقوم المراسلون بإعادة صياغتها.

لحسن الحظ، لا يقتصر عمل المراسل على سرد الأخبار فقط، بل يُتوقّع منه إجراء تحليل ووضع تقرير أو تحقيق. ولكن كيف يكون باستطاعتي إتمام ذلك من دون الاعتماد على نادلي خدمة الغرف؟ لقد عرّفني مراسلون آخرون بمجلات متخصصة، ومواقع انترنت تتناول الشرق الأوسط، ومنشورات للأمم المتحدة، وصندوق النقد الدولي، ومؤسسات استشارية متنوعة. ولكل بلد عربي دبلماسيّوه في الأمم المتحدة، وخبراؤه المحليون، وناشطوه في ميدان حقوق الإنسان، الذين يتحدثون إلى الصحفيين. فتطرح عليهم أسئلة حول مسألة معيّنة وتضع ملاحظاتهم في مقالة: «وفقاً للرأس المتكلّم، وهو أستاذ مادة العلوم السياسية في جامعة القاهرة، لا يدرك الناس - كما يبدو - أن عدداً كبيراً من العرب ليسوا ضد أميركا بل ضد السياسة الأميركية المتّبَعة». فهذا النوع من الأشخاص يُدعَون رؤوساً متكلّمة، ويملك زملائي المراسلون لوائح بهم وبأرقام هواتفهم. ويمكنك أيضاً الاستعانة بخدمات شخص محلّي يعدّ لك لقاءاتك ويقوم بالترجمة عند الضرورة، وذلك بتكلفة مئة أو مئتي دولار يومياً.

لقد ساعدني زملائي بتحاليلي الأولى، واعتمدت عليهم في تقاريري وتحقيقاتي الأولى. كانت لوائحهم التي تحتوي على قصص جاهزة الأكثر إفادة: «هل أعددتَ نصاً حول... إساءة استخدام القات في اليمن/ جرائم الشرف في الأردن/ مدى الوعي للأيدز في مصر؟ اتصل بي غداً؛ لقد حصلت على كافة مصادر المعلومات».

كان هناك أيضاً بنك معلومات يدعى لكسيس نكسيس حيث يمكنك

شراء مقالات نُشرت في السنوات الأخيرة في مختلف الصحف الغربية الكبيرة تقريباً. إنه منجم ذهب من الأفكار والمعلومات المتمِّمة، ويجري الأمر عملياً على النحو التالي: في رويترز أو النيويورك تايمز، اقرأ تقريراً للأمم المتحدة حول الأيتام القاصرين الذي يجمعون نفايات 22 مليون مقيم في القاهرة. وبعد ذلك، يرسل لي لكسيس نكسيس بريداً إلكترونياً يحتوي على عشرين مقالة تتناول جامعي النفايات، فأبحث فيها عن وقائع وصور متعلقة بموضوع بحثي؛ عدد الأطفال، الأمراض والوفيات بسبب الأدخنة السامة، والتكاليف التقديرية للحلول البديلة لجمع النفايات. بعد ذلك، أدوّن على عجَل أسماء موظفي الأمم المتحدة واقتباسات لناطقين آخرين بلسان منظمات أخرى، وأحصل على أرقام هواتفهم من صحفيين آخرين أو من الإنترنت، وأتصل بهم. وعندما كنت أنتظر أياماً قليلة قبل البدء بجمع المعلومات ووضع تحقيقات، كان مراسلون آخرون يتقدمونني في هذا الإجراء. أما المسؤولون الذين يكونون قد قابلوا العديد منا فيكون باستطاعتهم تلاوة اقتباساتهم في أثناء نومهم بسبب كثرة تكرارها. أخيراً، ومراعاةً للجانب الإنساني، أقصد كومة قمامة وأجد هناك طفلاً، فيقول لي إنه يفضّل اللعب في الخارج ولكن عليه تناول الطعام؛ فتى يفتخر بكونه يجني مالاً بدلاً من قضاء أيامه في صف مدرسي مليئاً بالتلاميذ، يتلقى الضرب من قِبل مدرّسه، وغير قادر على البقاء على مستوى واحد مع الآخرين لأنه شبه أمّي.

***

قبل ذهابي إلى الشرق الأوسط، مازحتُ أصدقاءً لي قائلاً إنه إذا كان شعار الجيش «شاهد العالم، التقِ أشخاصاً مثيرين للاهتمام، واقتلهم»، يُفترض بصرخة المعركة أن تكون «شاهد العالم، التقِ أشخاصاً مثيرين للاهتمام، واكتب عنهم». ولكن عندما مرّت الأسابيع وكبرت

شهرتي، وأدركت ما يقتضيه العمل، لم أعد أستخدم هذه الدُعابة. قد أشاهد العالم... من خلال نافذة طائرة أو سيارة أجرة ربما، ولكن ما أشاهده في الغالب هي سفارات، وردهات المغادرة، وغرف فنادق، ومكاتب. كان هناك انتظار، الكثير من الانتظار، حتى مغادرة الرحلة الجوية المتأخرة، ووصول الحافلة، والرد على اتصالي الهاتفي باتصال آخر كما وُعدتُ أم يُفترض بي الاتصال مجدداً؟ هل يُعتبر ذلك وقاحة؟ أم أنني ساذج لظنّي أنهم سيردّون على اتصالي من خلال صحفي من بلد ما لا يمكنهم تحديد موقعه على الخارطة؟ هل يُفترض بي الانتظار حتى يجد القنصل أن الوقت بات مناسباً لمقابلتي، أم أنه يعود إلى منزله دون قول أي شيء؟

لم يكن رؤسائي في الوطن يفهمون كما يبدو أن وزارات الإعلام، ووكالات السفر، والسفارات في الشرق الأوسط مختلفة عن تلك الموجودة في الغرب. إذا توجّهت مع حقائبي للحصول على تذكرة السفر كما هو مخطَّط له سلَفاً، قد يتبيّن لي أن وكالة السفر قد أقفلت أبوابها في منتصف اليوم لسبب غير واضح؛ أم أن التذكرة تكون غير جاهزة بعد، أم يظهر عليها المكان المقصود بشكل غير صحيح أو تاريخ العودة يكون غير صحيح. وأصبح المصور الفوتوغرافي الموجود عند زاوية الشارع حيث أقيم والذي يُعدّ صوراً لجوازات السفر صديقي المفضّل، أم أنني أصبحت صديقه المفضّل على الأقل، وبدأت بعد وقت قصير أدوّن مرات عدة المعلومات المتعلقة بجواز سفري بحيث إنني حفظتها عن ظهر قلب. وكنت أشعر أحياناً أنني فتى كشّاف أكثر من كوني مراسلاً.

بعد ذلك حان وقت الأشخاص المثيرين للاهتمام الذين يُفترض بي وضع تقارير عنهم... لقد التقيت أشخاصاً رائعين بلا ريب مثل حسن

نصراللـه، أميـن عـام حـزب اللـه فـي لبنان. لكن مقابلة مع شـخص مثير للاهتمام لا تساعد على أن تكون المقابلة مثيرة للاهتمام أيضاً كما ثبت في النهاية.

فغـادرت إلـى بيـروت جـواً، وعلمـت من وزارة الإعلام أن لحزب الله قسم علاقات عامة خاصاً به. فقالوا لي على الهاتف إن باستطاعتي القدوم على الفور، وكان مقر قيادتهم في محلّة حارة حرَيك في الضاحية الجنوبية للعاصمة، «أي سـائق سـيارة أجرة سـيعرف مكانه». كل ما كان عليّ القيام به هو الذهاب إلى آخر الشارع، والاستدارة يساراً تحت لافتة تحمل عبارة أميركا شر مُطلَق، والدخول بعد ذلك في طريق إلى اليمين موجود على بُعد خطوات من اللافتة، فأبلغ المقر الذي يشـغل طابقين بسيطين فوق متجر ملابس نسائية؛ عِلماً أن ذلك التفصيل لم يُذكر لدى وصف الطريق. تم تعريفي بالمسؤول عن قسم العلاقات العامة حسين نابلسي الذي كان يجيد الإنكليزية أكثر مني لأنه قضى بضع سنوات في نيويورك. ما هي الصحيفة التي تعمل لصالحها؟ هل يمكن للصحيفة أن ترسـل تأكيداً عبر الفاكس يتضمن مدى انتشـارها وعدد النسـخات التي توزعها، بالإضافة إلى ما يشير إلى خطها السياسي؟ هل باستطاعة السفارة تأكيد هذه الأمور؟ وطلب حزب الله أن تكون المقابلة على صورة سؤال وجـواب، ويتطلـب هـذا الأمـر أيضـاً تأكيداً عبـر الفاكس. فاتصلت بهيئة التحرير، وتوسّلت السفارة أن تزوّدني بكتاب تأكيد.

بعـد أسـبوع وكثيـر مـن العنـاء، وقفـت داخل مقـر قيادتهم بجانب جهـاز للكشـف عـن المعـادن. لقـد تم تفتيشـي في بـادئ الأمر، ومن ثم كان علـيّ تسـليم هاتفـي الخلـوي، ومحفظـة جَيبي، والسـاعة، والحزام، والمفاتيح، والحقيبة. في الوقت المتّفَق عليه - وهو أمر استثنائي تماماً في الشرق الأوسط - تمّت مواكبتي إلى غرفة مفروشة. فطرحت أسئلة

حـول سياسـات حـزب اللـه، وأعطـى نصراللـه إجاباته المدروسـة. كان باستطاعتي الحصول على كل شيء بسهولة من نابلسي أو من موقعهم علـى الانترنـت، ولكننـي كنـت أدوّن كل مـا يقوله نصرالله إكراماً للتقليد الصحافي. فأنا لست شخصاً تافهاً من هولندا.

مـرةً أخـرى، كان الأمـر منطقيـاً تمامـاً، فكّرت في لحظة من الزمن بالاعتـراف بعجـزي عـن إدارة الحديـث وفقاً للوجهـة التي أحددها، كل ذلك العناء في إجراء اتصالات وتوجيه رسائل فاكس لبلوغ هذه المرحلة مـع حـوار يمكـن توقعـهُ. ولكن مقابـلات كهذه المقابلة تُعتبر في الوطن نجاحاً؛ فلا أحد هناك يعرف شيئاً عن قسم العلاقات العامة، ناهيك عن متجر الملابس النسائية، يظنون أنه من الخطورة بمكان إجراء مقابلة مع شـخص كنصرالله. لكن هذه المقابلات قد تكشـف عن أمور ثانوية إذا ما قرأ المرء بين السطور، ولا تكمن الأهمية في ما قيل بل بطريقة قول الأمور. في السودان، كنت قد أجريت مقابلة مع حسن التُرابي، الشخص الإيديولوجي في النظام الأصولي. لقد قرأت بعض خُطبه، ولكن تبيّن لي في النهاية بعد مقابلته شخصياً أنه رجل يحب إطلاق الدُعابات، وتوجد على جدار مكتبه شهادات دبلوم من جامعة السوربون الباريسية مما يشير إلـى المفارقـة أو التناقـض فـي السياسـات الغربيـة: «لا معنى لذلك، هي هي هي!»

تلك كانت الوظيفة المختلفة عما كنت قد توقعته، ولكنها لا تقلّ إثـارةً عـن الوظائـف الأخـرى. فقد تتصل الصحيفة أو الإذاعة بي: «رأينا شيئاً ما على البي بي سي حول مصنع في بيروت يُنتجون فيه دمى لقادة غربيين بهدف إحراقها. علينا تغطية هذا الحدث!» أم أقرأ خبراً ما وأقول في نفسي، سأقوم بمتابعة هذه القصة، فأسافر إلى تلك المدينة أو ذلك

البلد على نفقة مستخدِمي. لقد ساومتُ في شأن قاذفة صواريخ بازوكا في إحدى أسواق اليمن، وحضرت مأتم الملك في المغرب. وعندما كنت ذات مرة في بيروت، حدثت عمليات إطلاق نار على الحدود اللبنانية-الإسرائيلية. فتوجهت إلى هناك بأقصى سرعة، وجمعت معلومات ملائمة حتى التاسعة والنصف ليلاً، وكتبت مقالة على مفكرتي في أقل من نصف ساعة، وأجريت اتصالاً هاتفياً بهولندا وتلوت المقالة، مدركاً أن أكثر من مئتي ألف شخص سيجدونها في صباح اليوم التالي ملقاةً على ممسحات الأحذية عند مداخل بيوتهم. ذات مرة كنت في طهران التي تتعرض لحرارة شديدة، في حين أن حرارة الطقس في هولندا كانت عشر درجات تحت الصفر، واقفاً بجانب صندوق انتخابات وأُصغي إلى المنتج في هيلفرسام يقول، «خمس ثوانٍ قبل البث المباشَر»، وأخبرت بعد ذلك عدة مئات الآلاف من المواطنين عن إيران.

لقد ارتكبت أخطاء مبتدئين بالطبع، ولا أزال أحمرّ خجلاً كلما تذكرت تلك اللحظة عندما سألت مراسل النيويورك تايمز عما إذا كان بإمكاني الحصول على رقم هاتف الرجل الذي كتب عنه في الأسبوع السابق. فنظر إليّ من رأسي حتى أخمص قدمَيّ للتحقق على الأرجح مما إذا كان بإمكاني مبادلته المعروف، وتمتم قائلاً إن ذلك قد يحمله على الشعور ببعض الانزعاج، وغادر.

كان ذلك جزءاً من العمل أيضاً، ولكن رد فعل مماثل هو استثناء؛ فمعظم زملائي الصحافيين مدّوا لي يد المساعدة لأنني ربما المراسل الوحيد من هولندا الذي يعمل بدوام كامل ولم أكن أسعى إلى اقتناص الفرص من الآخرين. كانت هناك لائحة واحدة فقط يحتفظ بها الجميع لأنفسهم: أسماء وأرقام الأشخاص الذين يكونون على صلة بهم ويمكنهم أن يوفروا لك تأشيرة دخول إلى بلد آخر في غضون ساعات قليلة، وبسعر

مرتفع، لدى توافر فيض من الأنباء العاجلة.

على مرّ الأشهر، كبرت لائحة الرؤوس المتكلمة لديّ: مرشدون سياحيون، رجال أعمال، دبلوماسيون، بحّاثة، عاملون في ميدان التطوير، ومبشرون دينيون. وللمعلومات المتمِّمة والتحليل، استندت إلى السي أن أن، والنيويورك تايمز، والجزيرة، ووسائل إعلام كبيرة أخرى. وكوّنت من هذه المصادر تصوّراً دمجته مع التصوّر الذي اكتسبته من اطّلاعي على مواقعِ الانترنت والمجلات، وقمت باختباره: هل يتلائم مع انطباعك؟ هل أُغفل أي أمر؟

وجدتُ شقة أفضل في القاهرة حيث يملك صاحبها نظرة إنسانية وليس فقط لافتات بقيمة الإيجار، ولا أزال أتذكّر النظر إليّ في أثناء مؤتمر صحافي بعد حوالى ستة أشهر من تلك الرحلة الأولى إلى السودان، والقول في نفسي بسعادة، أجل، لقد وصلت أخيراً.

في الوقت نفسه، لا يمكنني الفرار من شعور متنامٍ بالقلق.

الفصل الثاني

لا أخبـــار

من الطبيعي أن يتبنى الأشخاص وجهات نظر المؤسسة التي يعملون لها من دون الانتباه إلى ذلك، وهذا ما حدث معي. كنت أعمل بكدّ لتلبية متطلبات مستخدِميّ وتوقعاتهم من دون أن يكون لديّ الوقت للتفكير فيها مليّاً. وعندما ظهرت مقالتي بعنوان **الجبهة الإسلامية تهدد الولايات المتحدة بشن هجمات جديدة** على رأس الصفحة الأولى، أشرق وجهي فخراً. كانت المقالة خلاصة نشرات إعلامية منقولة عن وكالات الأنباء، وأخبار محلية، وقد تمكنت من كتابتها بسهولة تامة في أمستردام بفضل الإنترنت، محققاً نجاحاً على صعيد العنوان الرئيسي، فاستحقّيت تهنئة زملائي! لقد منحتني نجاحات مماثلة شعوراً جيداً في الأشهر الستة الأولى. بعد ذلك، أصبح الأمر روتيناً، وبات لديّ الوقت للتفكير مليّاً في ما أقوم به وبمصدر ذلك الشعور بالقلق.

في وقت سابق، وعندما كنت طالباً، قضيت بعض الوقت في الشرق الأوسط. لقد جرى لقائي الأول غير المتوقَّع بالعرب في أواسط التسعينيات عندما كنت شاباً في العقد الثالث من العمر أجوب أنحاء سوريا. كنت أعتبر العرب أشخاصاً غير منطقيين يضرمون النار بالرايات

والصور، ويهتفون بأمور مريعة عن الغرب. على كل حال، لقد شعرت أنهم شديدو الغرابة؛ قد لا يكونون أدنى مستوى ولكنهم مختلفون بالتأكيد.

لكن عندما زرت سوريا، لم أشاهد أي رايات مشتعلة، ولم أسمع أي شعار مناهض للغرب. قد تكون سوريا أكثر فقراً من هولندا بثلاثين مرة، ولكنني كدت لا أرى أي مظهر من مظاهر التخريب، أو التسوّل، أو التشرد. ولم يكن هناك وجود لأي جرائم وإن ثانوية؛ كان باستطاعتي ترك أمتعتي عند موقف حافلات أو موقع آثار، وأعود لاحقاً لأخذها. كان الناس يدعونني للبقاء معهم، ولم أختبر يوماً في شوارع هولندا أو في أي مكان آخر من الغرب جواً متساهلاً ولطيفاً كما هو الحال في الشوارع السورية.

كانت هناك مناطق لا يختلف فيها السوريون البتة عن الغربيين، فيدهشني سماعهم يُطلقون دُعابات. بالطبع، كنت أستعيد رباطة جأشي على الفور، ولكن أين سبق لي أن رأيتُ عرباً يُخبرون دُعابات؟ فالفكرة التي كوّنتها عن العرب مصدرها أفلام هوليود السينمائية، وكتب التاريخ، والأخبار، حيث يُختزَل العرب على أنهم إرهابيون في معظم الأحيان، أو أثرياء نفط، أو جماهير تطلق صَيحات، أو ضحايا مجهولو الهوية؛ وليسوا أشخاصاً يضحكون. ولكن أينما ذهبت في سوريا، كان الناس يحاولون إضحاكي وإضحاك أحدهم الآخر.

بعد عام من التنقل في أنحاء سوريا، أجريت بحثاً في جامعة القاهرة على طلاب مصريين لم يتحدث العديد منهم إلى غربيّ من قَبل. سنحت لي الفرصة لدراستهم بإسهاب، فصُعقت بأوجه الشبه بينهم وبين الغربيين، وبدرجة أكبر مما هو الحال في سوريا، بالرغم

من الفوارق: لقد بدا لي أن الغربيين يشبهونهم. ومواضيع الحوار الأكثر شيوعاً بين الطلاب المصريين هي الرياضة والمهن والعلاقات الحميمة، وليس السياسة أو الأخبار. في مصر أيضاً مجلات للفضائح، وبرامج مقابلات، وهوَس بالمشاهير وبالأعمال الاستعراضية على نطاق واسع. والناس أيضاً يطلقون الدُعابات.

كان زملائي الطلاب المصريون أقل غرابة مما تصوّرت، وفي الوقت نفسه، كانت بعض الأمور مختلفة في الواقع عن هولندا - بخلاف توقّعاتي. لقد بلغني أن 9 ملايين من أصل 22 مليون مقيم في القاهرة يعيشون بما يوازي يورو واحد يومياً، ولكنني لم أتوقّع أبداً أن يؤدي الفقر إلى زيادة في احترام الذات؛ فالأكثر فقراً بين أصدقائي هو أكثرهم اعتزازاً بالنفس.

عندما كنت طالباً، رأيت للمرة الأولى الفرق الشاسع بين المزاعم والواقع في الشرق الأوسط، وغالباً ما كنت أطرح على نفسي السؤال التالي: كيف يُعقَل أنني أتابع أخبار المنطقة منذ سنوات ولا أزال أصادف أماكن مختلفة كلّياً عن توقعاتي؟ ولدى عودتي إلى هولندا، خفّت حدة هذه الدهشة لأن الأشهر الأولى من عملي كمراسل كانت محمومة جداً لدرجة أنني لم أفكر في ذلك أبداً.

لكنني تمكنت من إعادة الاتصال بأحد أصدقائي القدماء في الجامعة، عماد. فنحن لم نتمكن من الجلوس معاً من قبل لأسباب مختلفة: ذات مرة، لم يحضر إلى مكان اللقاء؛ وكان عليّ المغادرة فجأةً مرةً أخرى. بعد ذلك، لم نتمكن من الاتصال ببعضنا لفترة من الزمن لأنه لا يملك جهاز كمبيوتر محمولاً، وهكذا جرت الأمور. الصبر جميل يقول المصريون، وأخيراً، تصافحنا مجدداً وشعرت بالذَنب، ولكنه قال: «هيا بنا! دعنا لا نذهب إلى مقهى؛ لنذهب إلى مطعم حقيقي على متن

مركب في النيل. أكسب المال الآن، لذلك سأستضيفك». وتبادلنا أطراف الحديث، وتذكرت سبب محبتي له واعتباري إياه غبياً، ومن ثم وصلت الفاتورة. وقبل أن أدرك ذلك، أخذها عماد بسرعة، وفتحها، وتسمّر في مكانه. لم يكن بالإمكان مناقشة التكلفة، وهكذا، جلست مثل عماد بأكبر قدر ممكن من التكتم، وجمعنا أوراقاً مالية من الفئات الصغيرة أخرجها كل منا من جيبَيه. الله أكبر، صاح عماد، وأُنقذت الأمسية. ولكنه قضى الشهر التالي في المنزل لأن نصف راتبه أُنفق على أكواب عصير الفاكهة تلك.

بينما كنت عائداً إلى المنزل سيراً على الأقدام، تذكرت الانطباع الذي تركه الفقر في نفسي عندما كنت طالباً في القاهرة. لم أكن أتصور شيئاً مماثلاً حتى رأيته بأم عينَيّ وفهمت أنه عليك اختبار ذلك بنفسك. خذ على سبيل المثال طفلاً يكون أمر رعايته مُناطاً بك - ابن أو ابنة، ابن أو ابنة شقيق أو شقيقة، شقيقة صغيرة، ابنة الجيران - وحاول أن تتصوّر حالة هذا الشخص فيما لو كان يعاني معاناة حقيقية. فكر في شعورك العاجز حينئذٍ وضاعفه: إنه يشعر بألم مريع، ومرضه مميت، وهو يذوي في السرير مطلقاً صيحات لأنه لا يفهم ما يجري. تخيّل الآن وجود مستشفى على بُعد خمسمئة متر حيث يمكن إنقاذه؛ ولكنك لا تستطيع تحمّل كلفة العلاج.

إنه الفقر. عندما رأيته عن قُرب في عماد وآخرين، دخلت في جدل شائك ومُربك مع نفسي حول سبب عدم حصول حالة مماثلة بالرغم من اهتمام الصحافة. كيف يكون باستطاعتك فهم أي شيء عن الشرق أوسطيين من دون امتلاك فكرة عن مدى عُرضة هؤلاء الأشخاص للأذى؟ تخيّل أنك لا تملك حق الانتساب إلى الضمان الاجتماعي، والحصول على راتب تقاعدي من الدولة وعلى قروض للطلاب،

ومساعدات للأطفال، وإيجار ثابت... ومع ذلك تشتري مشروبات لشخص غربي فاحش الثراء بالنسبة إليك. وكوني قارئاً مواظباً للصحف ومتابعاً للأخبار، لماذا لم أكن أملك أي فكرة عن الفقر أو عن طريقة قيام هؤلاء الأشخاص بالتعاطي معه؟

ذكّرني عماد وشعوره بعزّة النفس بأمور أخرى حدثت عندما كنت طالباً، وبدأت أشتبه بالسبب الذي أدى إلى تنامي شعوري بالقلق. ففي أثناء عملي كمراسلٍ، كنت أروّج لتلك الصورة نفسها عن العالم العربي التي اعتمدتها خطأً عندما كنت طالباً. على كل حال، وبعد ستة أشهر، كتبت قصة وحيدة عن الفقر، ناهيك عن الاعتزاز بالنفس الذي يشعر به الفقير. وفي الوقت نفسه، كانت محفوظاتي الخاصة تحتوي على قصص تحمل عناوين رئيسية على غرار العناوين التالية:

«العقوبات تمسك بجناحَي صدام بإحكام كما هو مفترَض»

«أوراق صدام حسين الرابحة»

«لوكربي مُعضلة بالنسبة إلى ليبيا»

«إسرائيل تتهم وسائل الإعلام المصرية بمعاداة السامية»

«إسرائيل لا تزال العدوّ الأول لمصر»

«العالم العربي عند نقطة تحوّل»

وواقع الحال هو أنني كنت أغطي لقاءات القمم فقط، أو الهجمات، أو التفجيرات، أو الخُدع الدبلوماسية. «شعور الشرق أوسطيين بالفخر بالرغم من الفقر»، «معدلات جريمة أكثر انخفاضاً وإدمان أقل على الشراب في دول الشرق الأوسط»، و«الشرق أوسطيون أقل إصابةً بالإجهاد من الغربيين»... لم تكن هذه الأمور أخباراً بل رواية للوقائع

أو مقالات خاصة، ولم يكن لها أي وَقع على أفكار الناس في المنطقة، ولكـن مـن دونهـا لا يمكنـك فهم العناوين الرئيسـية أو الرواية الإخبارية للوقائع.

لـم تبـقَ خبرتـي الإيجابية عن الشـرق الأوسـط غائبـة عن مقالاتي فحسـب، بل كنت أسـاهم أيضاً في رسـم صورة عن الشـرق أوسـطيين تصفهـم بالغربـاء، والسـيّئين، والخطريـن. عندمـا كنـت أكتـب خبراً عن أشـخاص غاضبيـن يحرقـون رايـات ويُطلقـون شـعارات، لـم أكن أخبَر القراء عما يحدث خارج إطار المشـاهد المصوَّرة. فعلى التلفاز أو في الصور الفوتوغرافية، قد يبدو أن هناك حشـد، ولكنك تشـاهد قليلاً من الأشـخاص الغاضبين على أرض الواقع لا يرفعون ولاّعاتهم إلا عندما تسـتدير آلات التصويـر لالتقـاط صـور لهـم، ويعـودون بعـد ذلـك إلـى منازلهـم لتنـاول الشـاي. فـي غضون ذلك، وفـي مكان آخر من المدينة، يكون الأطفال ذاهبين إلى المدارس، والقطارات تقوم بجولاتها، ويجري عرض خاص على البندورة في الأسواق.

إن الأكثر إثارة للاستياء هو قيامي بتشويه الحقائق المحيطة بالنساء في مقالاتي. فبعد عودتي إلى مصر، كان هناك اهتمام كبير بوضع النساء، ويمكنك الحصول على اقتباسات معبّرة حول الموضوع.

لقد لقيت المقالات التي تتناولهنّ قَبولاً جيداً، ولكنها أعطت كلها الانطباع بأن النساء المصريات بائسات ومقموعات؛ وهو أمر منافٍ تماماً لخبراتي اليومية عنهنّ. وأُذيع خبر جاء فيه إن البرلمان المصري أصدر قراراً بعدم تمكّن النسـاء من السـفر إلى الخارج دون موافقة أزواجهنّ، ولكن طريقة تصرّف النسـاء المصريات حيالي عندما كنت أتسـوّق في القاهـرة لـم يكـن خبـراً بـل اختبـاراً على أرض الواقـع. فخبراتي اليومية هي التي وجدت طريقها إلى دفتر يومياتي:

خرجت اليوم لتمديد إجازة الإقامة. ما زال عليَّ الذهاب إلى المجمَّع، ذلك العنكبوت القائم وسط الشبكة البيروقراطية المصرية في ساحة الحرية. لقد شعرت بالارتياح لأن كل شيء باقٍ على حاله مذ كنت طالباً. موظفون مدنيون يغلبهم النعاس، أكداس من الملفات المغطاة بالغبار، خزائن طافحة بمحتوياتها، شبان يُعِدّون الشاي في الممرات، جنود متكئون على أسلحتهم غير الملقَّمة، صفوف من الناس المنتظرين وكل منهم يصيح فوق رأس الآخر، مكيفات هواء لا تعمل البتة أم أنها تعمل بسرعة مضاعَفة... حتى عندما يتعيّن عليّ التوجه إلى الغرفة التي يُفترض بي أن أكون في داخلها، يتطلب الأمر وقتاً طويلاً من المسامرات الودّية قبل الوصول إليها. ويتجه نحوي رجل بساقٍ ونصف ساق يتكئ على قُرمة بذراعه اليمنى ويبيعني قسيمة ويختمها. وبعد ذلك، مزيد من الانتظار، واستراق السمع إلى النساء القائمات من حولي واللواتي يُغطين رؤوسهنّ بوشاحات:

ما رأيك بذلك الأبيض لك، فاطمة؟ عليك الزواج يوماً ما.

فاطمة أكبر سناً منه بكثير! لن يرغب فيها!

لا يمكنني أن أحزر أبداً عمر البيض. يبدون كلهم مماثلين بالنسبة إليّ.

بعد ذلك شراء القمصان. «هل يلائمني؟» سألتُ الفتيات وراء المِنضدة. «أنت أشبه بنجم سينمائي!» قالت إحداهنّ مقهقهة، وضحكنَ بأجمعهنّ. «عليك الذهاب الآن، المدير آتٍ!» والتوجّه إلى شركة الهاتف الخلوي لدفع فاتورة كان الشيء الأخير على لائحة تبضّعي. فقال لي الفتى الذي يساعدني: «سندخل إلى تلك الغرفة ومن ثم أكلّمك بالإنكليزية». ودخلنا الغرفة وقال: «لماذا

لا تأتي وتقف هنا؟»، وطرح سؤالاً على زميلة له متبرّجة بشكل مُفرط، في السنوات الأولى من عقدها الثالث، ولا تضع وشاحاً: «زينب! ماذا تريدين أن تفعلي بهذا الغربي؟» فرمقته زينب بنظرة مُذلّة وقالت: «تقبيل يده، أيها الغبيّ». وقهقه زملاؤهما، وأومأ الفتى برأسه، وقلت بصوت مرتفع وواضح وكأنني موافق: «دي مجاملة حلوة جداً، شكراً جزيلاً». فاحمرّ وجه زينب كالبندورة، ودخلت الحمّام مُسرعة.

***

كنت أفكر على الدوام في أن الأخبار هي تجميع للأحداث الأكثر أهمية في العالم. ولكن بعد ستة أشهر من عملي كمراسل، فرض الواقع نفسه. فالأخبار هي تلك الأحداث المختلفة تماماً عن الأحداث اليومية؛ الاستثناء عن القاعدة. ولهذا الأمر أثر محرِّف للحقيقة بالنسبة إلى عالم مجهول كالشرق الأوسط. فعندما تُطلَق النار على شخص ما في ساحة دام في أمستردام، يُعتبر الأمر خبراً، ولكن الشعب الهولندي يعرف أن إطلاق النار على الناس هناك ليس أمراً طبيعياً. لقد كانوا هناك بأنفسهم، أم أنهم يعرفون شخصاً ما قصد ذلك المكان وعاد سليماً معافى. ولكن إلى أي مدى يملك الشعب الهولندي معلومات عن الحياة اليومية في الشرق الأوسط؟ قبل ذهابي إلى سوريا، شاهدت تظاهرة غاضبة في سوريا ضمن نشرة الأخبار؛ فمن غير المستغرَب الاستنتاج أنهم يكنّون الكره لنا، وأن سوريا مكان غير آمن. وإذا تمّ إطلاعك على الاستثناء فقط، فإنك ستعتقد أنه القاعدة.

تمثّل السؤال المطروح بما إذا كان بالإمكان القيام بأي شيء حيال الأمر. فإذا نظرتَ إلى صور فوتوغرافية أو مشاهد فيديوية عن الشرق الأوسط – على سبيل المثال، الشوارع المكتظة في القاهرة، أو دمشق، أو

الإسكندرية - ما تلاحظه هي الحروف العربية المتراقصة في كل مكان. يبدو الأمر غير عادي، حتى يقال لك إن هذه الحروف الغريبة تهجئة لعبارات مثل «المتحف المصري عبر المخرج المجاور»، «شاي ليبتون- الشاي الألذّ في العالم»، أو «اثنان بسعر واحد، عرض خاص». وإذا كففنا عن تسمية صحف مثل الحياة، الشرق الوسط، والأهرام، بأسمائها المجازية، مستبدلين هذه الأسماء بمعناها الحقيقي، فتغدو الحياة الحياة البشرية، والشرق الوسط منطقة الشرق الأوسط، والأهرام الأهرام التي بناها الفراعنة، ألن يُحدث ذلك فَرقاً؟ وماذا لو أسْمَيْنا قنوات تلفزيونية عربية مثل الجزيرة، المنار، والمستقبل، الجزيرة العربية، ومنارة لبنان، ومستقبل لبنان؟ وإذا تكلّمنا عن حماسة المناضلين، وعن حزب يحمل راية المقاومة والله، وعن أسس الإسلام، بدلاً من حماس، وحزب الله، والقاعدة، ألن يُحدث ذلك فَرقاً أيضاً؟

لقد حاولت لمدة من الزمن ترجمة أسماء وسائل إعلام عربية في مقالاتي، ولكن المحررين قاموا بحذفها؛ لقد وجدوها مُربِكة. إنهم ربما على حق، تماماً كما رفضوا اقتراحي باستحداث باب للدُعابات في الصفحات الأجنبية للتذكير بأن الشعوب تضحك أيضاً في نواحٍ أخرى من العالم.

بالطبع، لا يمكنهم القيام بذلك؛ فلا يمكنهم إقحام دُعابات بين صور أشخاص متنازعين وقادة عالميين متمرّسين يملكون شخصية محبَّبة. ولكن باستطاعتهم إضافة أمور أخرى، أقلّه في صفحات التتمّات والعواميد التي تحتوي على ما يهمّ القراء في الصحيفة. ومذاك الحين، حاولت وضع مقالات تنفي صورة العرب كأشرار غريبي الأطوار. فأجريت مقابلة مع مقدمات النسخات العربية لبرامج توب أوف ذي بوبس، بيغ براذر، وذي ويكست لينك - للتذكير بأن هذه البرامج تُبَث

هناك. وكتبت مقالة عن الشيف رمزي، وهو المسيحي اللبناني الذي كان لمدة من الزمن الطاهي التلفزيوني الأكثر أهمية في العالم العربي. إنها الفكرة الرئيسية - لديكم طهاة مشهورون في العالم العربي، وأموال، وبرامج كاميرات خفية، واستوديوهات مليئة بأشخاص جدّيين وناضجين يرتدون بذلات ويناقشون موضوع كرة القدم.

لقد اختار المحررون أنواع المقالات تلك من دون تردد ليتم نشرها في الصفحات غير الرئيسية التي تكاد لا تحظى بنظرة ثانية من القراء وفقاً للمعلومات المتوافرة؛ أم أنها تُنشر في الصفحة الرابعة في العمود الذي يحتوي على ما يهمّ القراء والذي يدعى في فولكسكرانت على نحو بارز «إنه عالم صغير».

كان عليّ الدخول في تفاصيل الأخبار، فأدركت مدى صعوبة محاولة نقض الفكرة المبتذَلة القائلة إن كل العرب مماثلون ويمكن اعتبارهم كياناً واحداً. لقد أسهمت في تلك الفكرة بنفسي عندما كتبت عن العالم العربي؛ الجملة الوحيدة المتوافرة لوصف تلك المناطق التي يقطنها سكان يُدعون عرباً. ومن ثم، هناك الجامعة العربية ببياناتها الرسمية عن الأخوّة والوحدة، وتصاريح الحكومة الإسرائيلية عن بحر العرب.

يضاف كل ذلك إلى الانطباع الذي تتركه مقولة إن المنطقة القائمة بين الرباط وبغداد تأوي 260 مليون شخص مماثلين. ولكن خذ الحروب التي خاضتها الدول العربية في السنوات الخمسين الأخيرة، ليس ضد إسرائيل بل ضد بعضها بعضاً.

هناك فوارق كبيرة بين الشعوب ضمن الدول العربية، وتكتشف ذلك في الدُعابات التي يخبرونها عن بعضهم بعضاً: السوريون يُطلقون دعابات عن سكان مدينة حمص؛ ولا تنتهي الدعابات التي يُخبرها سكان

القاهـرة عـن سـكان مصـر العليـا الذين تقول الشـائعة إنهـم يُفرطون في الاعتداد بالنفس؛ ويسـخر الفلسـطينيون من سـكان الخليل. لقد جاء في إحـدى القصـص إن رجـلاً مـن الخليـل دخل متجـر أدوات كهربائية في القدس، وسـأل: «هل باسـتطاعتك إصلاح هذا التلفاز؟» فنظر صاحب المتجر إلى الرجل وقال: «لا بد أنك من الخليل»، فهرب الرجل. كيف عرف من أين أتيت؟، تساءل مذعوراً. لا بد أنهم يظنون أن باستطاعتهم خداعي. وقصد متجراً آخر، فحدث الأمر نفسه؛ وتكرر الأمر في متجر ثالـث. والآن، لـم يتبـقَّ سـوى متجـر واحـد وإلا اضطُرّ للذهاب إلى رام الله. ولكنك لن تصدّق ما جرى. فما كاد يسأل إذا كان بالإمكان إصلاح تلفازه حتى تمتم المصلّح قائلاً: «هل أنت من الخليل أو ما شابه؟» فنفد صبر الرجل وسأل بعينَين دامعتَين: «كيف يعرف الجميع أنني من الخليل عندما أسأل عما إذا بإمكانهم إصلاح تلفازي؟» فأجاب المصلّح قائلاً: «إنه جهاز راديو، يا سيدي».

إن العالـم العربي هو على هذا القدر من التنوع وأكثر، ولكن الزملاء والأصدقـاء فـي الوطـن لا يملكـون أي فكـرة عـن الأمـر. أنّـى لهم هذه الفكـرة؟ فهـم يتابعـون الأخبار بأمانة ويعرفون كل المناورات السياسـية. ولكـن مـا لا يعرفـه الزمـلاء هـو أن العالـم العربي يُنسَـب إلى لغة، وهي العربيـة، وليـس إلـى معتقَـد، وأن هناك ملايين المسـيحيين العرب أيضاً، بمـن فيهـم رئيـس دولـة؛ ناهيـك عـن وجـود مئـات آلاف اليهود العرب الذين اعتادوا العيش في مختلف أنحاء الشـرق الأوسـط حتى قيام دولة إسرائيل.

بعد زلزال كبير في تركيا، اتصل بي معلّق أجنبي مشـهور ليسـألني عما إذا كنت أريد الذهاب إلى موقع الكارثة. «لماذا؟» سألت مندهشاً.

«حسناً، لأنك تجيد اللغة العربية...» وكان عليّ أن أشرح أن اللغة الهولندية أقرب إلى التركية منها إلى العربية. وصادفت سوء الفهم هذا في وقت لاحق في إيران حيث يتكلمون الفارسية، ويكون الانطباع الذي تُحدثه لدى تكلّمك العربية مماثلاً للانطباع الذي يُحدثه المرء لدى تكلّم الالمانية في هولندا.

إن جهل القراء الأكثر إخلاصاً للمنشورات التي يتابعون الأخبار فيها يكون كبيراً جداً أحياناً لدرجة أنه يبدو غير قابل للعلاج. ولكن كانت تظهر فرص من حين لآخر، على سبيل المثال، عندما تحولت القمة العربية التالية إلى شجار. وعندما سأل مذيع الأخبار كالعادة عن «الانقسام الميؤوس منه»، تمّ تخطي النزاعات الدبلوماسية التي جرت في أثناء اليوم وعُرض للفوارق بين الدول العربية العشرين التي لم تكن منقسمة بقدر ما كانت مصالحها متضاربة. فهناك فرق بين أن يكون لديك آبار غاز أو نفط، ومقدار كافٍ من الماء أم لا، وإذا كنت واقعاً تحت احتلال القوى الاستعمارية، أو عليك مشاطرة الثروات المائية للأنهر، أو إذا كانت لديك حدود مع إسرائيل، تركيا، إيران، أو مضيق جبل طارق.

فجمع معلومات من هذا النوع يُعتبر إنجازاً ولكن ليس كبيراً. يجب على الأخبار أن تكون سريعة وموجَزة، ولذلك كان على المقالة التالية حول اللغة الانتظار سنوات على جهاز الكمبيوتر في ملف البيانات المتمِّمة قبل أن تجد لها مكاناً في الصحيفة:

> يُنظر إلى العرب أحياناً كوحدة، ولكن واقع الحال هو أنهم لا يفهمون بعضهم بعضاً. إنهم لا يتكلمون اللغة نفسها؟. في الواقع، تتألف العربية من ثلاث لغات مختلفة. هناك العربية التقليدية التي لا يعرفها أحد تقريباً ولا يمكنك إجراء محادثة طبيعية بواسطتها. لذلك، هناك العربية وفقاً للمعيار الحديث، وهو شكل مبسَّط

للنسـخة التقليدية يُستخدم للقراءة والكتابة، والأخبار، والخُطَب، والعناويـن الفرعيـة، والكتابـات الأدبية. وحسـنة هذه اللغة معتمَدة في كل مـكان مـن العالـم العربـي، أما سـيئّتها فهي أنها لغة جامدة ولا يمكن استخدامها للأحاديث العادية كالعربية الكلاسيكية، هناك سـيئّة ثانيـة إذا كنـت تعـرف ذلـك: نصف الشـعب العربي لا يجيد القـراءة والكتابـة. ففـي أحاديثهـم مع بعضهـم بعضاً، يتكلم العرب لغاتهم المحليّة، وهي مختلفة جداً لدرجة أنه لا يمكنك التحدث عن لغة واحدة. على سبيل المثال، «جيد» تعني جيد وفقاً للعربية التقليدية، وكويّس بالمصرية، وزين بالعراقية، ومنيح بالفلسـطينية.

«أريد أن أشتري خبزاً» يقابلها:

بْريد نَشري خبز بالمغربية

أريد أن أشتري خبزاً بالعربية التقليدية

عايز أشتري عيش بالمصرية.

قابـل بيـن الفـوارق السـبعة وتذكّـر أن اللفـظ يختلـف أيضاً. فعلـى سـبيل المثـال، يبتلعـون فـي القاهـرة حـرف «القـاف» الذي يصعب لفظه، في حين أنهم يلفظونه جيداً أو بطريقة مشـوَّهة في دول عربية أخرى.

لقد اسـتفدتُ على الأرجح من جهل البعض للعالم العربي. فهم لـم يعترفـوا بذلـك أبـداً، ولكـن لديّ انطباع أن فولكسـكرانت كان لديها شكوك في شأن إرسال شخص غير متمرّس إلى العالم العربي. وأتخيّل رئيس التحرير يشير إلى إجادتي العربية، وهذا ما رجّح تعييني مراسلاً. فهم لم يدركوا ربما أنني أكاد لا أستطيع فهم كلمة من اللغات المحلية المتنوعة خارج حدود مدينة القاهرة.

الفَصْـلالثّـَالِث

أحباء المانحين وكوكتيل هتلر

ظننت لمدة قصيرة من الزمن أنني أفهم مشكلة الصحافة في العالم العربي: تُظهر النشرات الاخبارية ما يخرج عن المقياس فقط، وإذا كان المقياس غير معروف تحصل على صورة محرَّفة.

لكن قلقي استمر، وظننت أنه قد يكون شعوراً بالذَّنب؛ كنت قد توقعت إعادة إحياء صداقاتي التي تعود لأيام الدراسة، ولكن ذلك لم يحدث. فعندما كنت طالباً، تمكنت من تقليص الفارق إلى الحد الأدنى بيني وبين زملائي الطلاب الفقراء من خلال استئجار غرفة في ضاحية سكنية للطبقة العاملة، ولم أعد أبالي بالمغتربين الغربيين المقيمين في الزمالك، وهي جزيرة النخبة في النيل. ولكنني أقمت هناك عندما أصبحت مراسلاً. عندما كنت طالباً، كان اعتماد نمط الحياة العربي أمراً رائعاً: تخصيص وقت لأشخاص آخرين، الحضور في وقت متأخر، إجراء اتصالات بلا انقطاع للوقوف على مجريات الأمور. أما الآن فهناك محررون في الوطن، ووسائل الإعلام منظَّمة كمصنع، أو بالأحرى كجيش؛ لا نستخدم عبارة الموعد الأخير عبثاً.

عندما التقينا، لاحظت كم أن القواسم المشتركة قليلة بيني، كغربي

مثقَّف، وبين أصدقائي القدامى. وكان هناك ذلك الفارق المالي الكبير الذي لا يمكن إزالته. فالإيجار الذي كنت أدفعه كل شهر يساوي ما يمكن بعض الأشخاص من العيش طيلة ثلاث سنوات. أنتقل إذاً إلى مكان آخر، قد تقول: ولكن بعد يوم عمل شاق، كنت أشتاق إلى هدوء ورفاهية الزمالك.

لم يكن توفير الوقت ممكناً أيضاً لإنشاء صداقات جديدة. كنت أغطي عشر دول مما يتطلب القيام بزيارات دورية إليها. فقد يحصل انقلاب في أي وقت، أو يموت زعيم ما، أو يحدث انفجار، فيكون عليّ حينذاك العمل حتى وقت متأخر أو الإسراع إلى هناك؛ إنه أمر لا يساعدُ كثيراً في بناء صداقات. في وقت فراغي، لم أكن أشعر ببساطة بالرغبة في التفكير في الأشخاص الذين كنت أضع تقارير عنهم. فكم عملية تنديد جماعية برئيس أميركي أو برئيس وزراء إسرائيلي يمكن للمرء أن يغطي؟ إنه وضع مماثل لـ كاتش 22: كنت بحاجة إلى مصادر معلومات محلية بهدف متابعة ما يجري، ولكن لا يمكنني الحصول على هذه المصادر إذا كنت أعيش بطريقة غير منسجمة مع حياة مراسل.

غير أن الواقع كان أكثر من مجرد شعور بالذَّنب، وقد ازداد الأمر سوءاً عندما اكتشفت أمراً غريباً. كانت فِرق الأخبار الهولندية، وأنا من ضمنها، تتغذّى من اختيار أخبار تبثّها وسائل إعلام نوعية مثل السي أن أن، والبي بي سي، والنيويورك تايمز. كنا نقوم بذلك مفترضين أن مراسليهم يفهمون المنطقة ويملكون فكرة عنها؛ ولكن ثبت في النهاية أن العديدين لا يجيدون العربية، أم أنهم لا يجيدون إجراء محادثة بهذه اللغة على الأقل أو متابعة وسيلة إعلام محلية. فالعديد من ذوي المناصب العليا في السي أن أن، والبي بي سي، والإنديبندنت،

والغارديان، والنيويوركر، والنيويورك تايمز، يعتمدون في غالب الأحيان على مساعدين ومترجمين.

كان مراسلو وسائل الإعلام النوعية يقيمون، على غراري، في أفضل مناطق المدينة. ماذا لو قلبنا الأدوار. لنتخيّل أن مراسلاً مغربياً لا يجيد الإنكليزية أو أي لغة أوروبية يرسَل إلى لندن، فيستأجر منزلاً فخماً في كنسينغتن للإقامة فيه، ممضياً وقت الفراغ في التعرّف بأصدقاء يتحدثون كلّهم العربية. ويرتاد أطفاله مدرسة عربية، وتنضم زوجته إلى جماعة النساء العربيات. ما هو الانطباع الذي يكوّنه هذا المراسل عن المملكة المتحدة؟ فهو لا يفهم برامج المقابلات، والسجالات الانتخابية، وخُطَب الملكة أو رئيس الوزراء، ومدرّب الفريق الوطني لكرة القدم. كما أنه لا يفهم الحوارات الدائرة في الشارع، والنشرات الإخبارية، وعواميد الشؤون الراهنة، والتملّقات، والدُعابات، والكوميديين. إنه يحاول متابعة الصحافة من خلال الحصول على خدمات المترجمين، فيبقى غافلاً عما لا يقومون بترجمته. ولا يستطيع كذلك التحدث إلى البريطانيين العاديين؛ بل إلى المهاجرين العرب فقط، والعرب البريطانيين، والبريطانيين العرب، والبريطانيين المتزوجين من عرب، وبالطبع، إلى زملائه الصحافيين من العالم العربي. يحدث كل هذا في بلد حر حيث لا يتعيّن على الأشخاص الذين تُجرى معهم مقابلات القلق من أن مُجري المقابلة يعمل في أجهزة المخابرات.

العديد من المراسلين الغربيين في الشرق الأوسط يعملون ويعيشون كما يبدو هذا الاختبار الفكري الذي مرّ به المغربي في المملكة المتحدة. لقد سافرتُ ذات مرة جنباً إلى جَنب مع أحد أبطال البي بي سي. فاصطحبه المعاون المحلّي إلى المطار حيث انتظر موعد الصعود على متن الطائرة والجلوس في المكان المخصص لرجال الأعمال. وعندما

وصـل إلـى وجهتـه، قـدّم لـه أحد المعاونين المسـاعدة لإنهـاء معاملاته الجمركية، ونقله سـائقه المعتاد إلى المكتب للتمكن من دراسـة الأنباء بدقة في قسم الترجمة. كانت طريقة فعالة للقيام بالأمور، وكان مراسل البي بي سي يملك معلومات أكبر من معلوماتي بالتأكيد. ولكن ما هو عدد الأشخاص العاديين الذين تحدّث إليهم، وما الذي يعرفه عن الحياة اليومية؟ لقد قضيت ساعة على الأقل أتعرّق في صف الأشخاص الذين ينتظرون دورهم ليتم التحقق من جوازات سـفرهم، وانتظرت بعد ذلك في صف آخر، ومن ثم كان عليّ إحضار أمتعتي عن الحزام الناقل...

لقد آلَمَني وآلم زملائي أن نكتشف أننا كنا ننظر إلى المناطق التي نغطيهـا وعلـى أعيننـا غمامتـان، ولكن هذا الأمر لم يفسّـر ذلك الشـعور بوجود خلل ما. بدأت أشتبه بعدم وجود خلل فحسب في ما أغفلناه من إطار تغطيتنا للعالم العربي، بل في ما كان موجوداً داخل الإطار أيضاً. هل تذكر تلك القوائم التي يملكها المراسـلون عن الناشـطين في ميدان حقوق الإنسان، والبحاثة، والرؤوس المتكلمة؟ لقد بدت عملية عرض وجهات نظرهم في النشرات الإخبارية عملاً صحافياً يسيراً، ولكن هل هو كذلك؟

تقوم أجهزة المخابرات في العديد من الدول العربية بمراقبة البحاثة قبـل توظيفهـم، ويعـود الفضـل في حصول العديـد من الأكاديميين على وظائـف إلـى علاقاتهـم وليـس إلى قدراتهم، وهو سـر مكشـوف. وتتابع العديد من السفارات العربية في الدول الغربية أيضاً وسائل الإعلام عن كثـب لأن نقـل كلام عـن لسـان الأكاديمييـن هو أمـر محفوف بالمخاطر بالنسبة إليهم؛ ولكنه أمر جذاب. فالأكاديمي العربي الذي يظهر تكراراً فـي صحـف ومجـلات غربيـة مشـهورة أو علـى شاشـات التلفـزة يتلقى

دعوات إلى مناسبات فنّية متعددة الثقافات، ومن قِبل مؤسسات استشارية وأكاديمية في الغرب. هذا يعني تأشيرة دخول، والحصول مستقبلاً على تأشيرات دخول بسهولة أكبر؛ ويعني كذلك رحلات جوية مجانية، وتسوّق مُعفى من الضريبة، واتصالات مع ناشرين، أصحاب رعاية، ومؤسسات توفّر أعمالاً وأسفاراً ومِنحاً دراسية تتضمن تكلفة الإقامة. وغالباً ما تزيد قيمة المخصصات اليومية في المؤتمرات الغربية عن مرتّب شهر يتقاضاه الأكاديميون في الدول العربية.

فالأكاديمي في العالم العربي مختلف عن الأكاديمي المقيم في الغرب، وينطبق الأمر نفسه على الناشطين في ميدان حقوق الإنسان. فهم يتقاضون في الواقع أجراً جيداً لأن الحكومات الغربية تقوم بتسديده (المانحون باللغة الاصطلاحية). ويستشهد المراسلون بناشطين محليين في ميدان حقوق الإنسان أكثر من سواهم لأنه - والحق يقال - من المشوِّق أن تتم الإجابة على أسئلتك. ولكن كلما زاد عدد هؤلاء الناشطين الذين ألتقيهم، خفّت حدة حماستي؛ بسبب قيامهم بتسليم بطاقاتهم على الفور للتأكد من أنني سأنقل أسماءهم وأسماء منظماتهم بطريقة صحيحة. تتضمن المقابلات التي يُجرونها تكراراً تعابير مثل «الطريق أمامنا طويل، ولكننا نعمل لتحقيق الهدف» أو «الاستسلام غير مطروح ببساطة». بدأت أظن أنهم قرأوا مقابلاتهم على الإنترنت في وقت لاحق، وقالوا في أنفسهم، هاي، أولئك الصحافيون الغربيون ينقلون دائماً عن لساننا عبارة عدم الاستسلام، لنستمر بقولها إذاً.

هذه هي مشكلة الناشطين في ميدان حقوق الإنسان في العالم العربي. فالأثرياء العرب يهبون بلايين الدولارات كل عام لمنظمات تبشيرية إسلامية ولبناء مساجد، ولكن الناشطين في ميدان حقوق الإنسان مستمرون بسبب المعونات المالية الغربية. وتزداد فرص حصولهم

علـى هـذه المعونـات مـع ازدياد شـهرتهم، ويمكن للصحفييـن الغربيين أن يسـاعدوهم بالطبع على تحقيق هذه الشـهرة. تكون النتيجة مصالح متبادَلة بين الصحفيين الباحثين عن اقتباسـات جيدة وبين الناشـطين في ميدان حقوق الإنسان الباحثين عن الدعاية. وفي أثناء دراستي، لم يكن أي طالب على معرفة بأي ناشـط في ميدان حقوق الإنسـان، وقد ترك ذلك الأمر أثراً كبيراً في نفسـي....وما أثّر فيّ بطريقة مماثلة هو الاسـم الذي يُطلقه الدبلوماسـيون الغربيون على الناشـطين المحليين في ميدان حقوق الإنسـان: «أحباء المانحين». فلدى السـفارات أموال تنفقها على دعم حقوق الإنسان، ولكن لم يكن باستطاعتها أن تمنحها إلا لمنظمات تملك برنامج عمل غربي، ومحاسبة شفافة، وضمانات أخرى ضد الغش. كان أحباء المانحين يلبّون هذه المتطلبات ويكون لديهم ما يقدّمونه في المقابل. فأعضاء مجلس النواب الهولندي، مثلاً، يقومون برحلات دورية خاطفة إلى بعض الدول العربية. وتقوم السفارة بإرسالهم لزيارة عدد قليل من أحباء المانحين الذين يروون قصة رائعة بلغة إنكليزية طليقة تضغط علـى الأزرار المناسـبة: تطويـر، الجنسَـين، التفويـض، المجتمع المدني، وإدارة الحكم على نحو جيد. ولدى عودتهم إلى الوطن، يكون بإمكان عضو في البرلمان وضع تقرير حماسي عن زيارته: تعلمون، يريدون حقاً أن يكونوا مثلنا!

لقد فقدت الثقة تدريجياً بالرؤوس المتكلمة، وحدث الأمر نفسه مع وسائل الإعلام المحلية؛ مصدر آخر كنت أتوقع استشارته تكراراً. وهناك محطات تلفزيونية كالجزيرة قيل إنها مستقلة نسبياً، ولكن أخبارها تتناول السياسـة الدولية عادةً، ومشـاهديها المرتقبين هم كل شـعوب المنطقة. وبالنسـبة إلـى الأخبـار المحليـة، كنت أعتمـد على الصحف والمحطات

التلفزيونية الحكومية التي تبالغ بخضوعها على نحو مثير للسخرية. في بعض الدول العربية الأخرى صحف مستقلة، ولكنها غالباً ما تزخرُ بالهُراء: «ممرضات أجنبيات تحقنّ أطفالاً ليبيين بالآيدز». ويمكن إغلاق هذه الصحف في أي وقت وإن بسبب قيام الحكومة بمراقبة المطابع، ونظام التوزيع، ومؤن الورق والحبر. وأُشيع أيضاً أن بعض الصحف المستقلة هي أدوات لأجهزة المخابرات، أو لقادة عرب آخرين. ويمكن للصحيفة أن تكون مفيدة جداً عندما تريد إلقاء خطبة ومهاجمة أخصام ومناوئين.

وتوجّه وزارات الإعلام للمراسلين مقالات عبر الفاكس. ففي أسفل رسالة فاكس التي وصلتني عن حادثة تعرّضت لها سائحة يابانية حيث قامَ طالبان بمساعدتها على استرجاع محفظة نقود كانت قد أضاعتها ورفضا أي هدية شكر منهما في إحدى الدول العربية، أضاف موظف مدني بحروف واضحة: «انتباه، هذه هي حقيقة بلدنا». ولم يمر وقت طويل حتى أجرت هذه الدولة استفتاءً عاماً حول منصب الرئاسة مع وجود مرشح واحد. ونشرت أكبر صحيفة في الدولة، التعليق التالي الذي وضعه رئيس التحرير، وهو أحد المؤتمَنين على أسرار الفائز في الاستفتاء العام:

> جرت الحادثة التالية معي شخصياً. حاول أحد الأصدقاء - طيلة سنوات - الحصول على تأشيرة دخول إلى إحدى الدول العربية النفطية ليتمكن من جني ما يكفي من المال ليتزوج. أخيراً، تلقّى رسالة أراحته من كرْبه وعرضاً للعمل في عاصمة تلك الدولة العربية النفطية. فقفز صديقي فرَحاً وأطلع الجميع على النبأ السعيد. ولكن كان هناك استفتاء عام يوم رحيله، ويتعيّن على الشعب التعبير عن شكره لقائدنا المستعدّ لقيادة بلدنا لست سنوات أخرى. فأدرك

صديقي كم أن بلدنا محظوظة بوجود رئيس مماثل، ومزّق تأشيرة سفره لأنه ينتمي إلى هذه البلد.

غالباً ما يطلب محرّريّ في الوطن اقتباسات- ندعوها آراء الشعوب- من الشخص العادي في الشارع. ما هو رأيه بالاستفتاء العام؟ فجلست هناك مع شخص يدعى نبيل في العقد الثالث من العمر، وكنت قد قضيت معه يوماً في العاصمة. هنا اقتبس بعضاً من آرائه أو آراء الشعوب كما يسميها المحررون في هولندا «وراء كل ثورة، كل كارثة، وأزمة اقتصادية وحرب، وأفلام إباحية... هناك اليهود كما ستكتشف. تتمثل المشكلة بأن اليهود يعتبرون أنهم بشر من دون سواهم. هذا هو حال اليهود، إنه في ثقافتهم». وحرّك إصبعه في الهواء. «ولكن دوّن رجاءً أنني لا أكره اليهود. كان لديّ صديق يهودي صالح في أميركا». وأخبرني عن دراسته وإجازاته في أميركا، وكيف كان يدرّس أطفاله الإنكليزية. طلبنا مشروبات غازية، وشرح قائلاً إنه ما كان يمكن لإبادة اليهود الجماعية (الهولوكوست) أن تحدث أبداً لأن «الأفران كانت صغيرة جداً». هل تعلم أن اليهود كانوا يموّلون هيتلر؟ هل تعلم الفائدة التي كانوا يطلبونها؟ «ثلاث وثمانون بالمئة، لأن كل شيء مرتبط بالمال في النهاية بالنسبة إلى اليهود».

ما كان يُفترض بي القيام به بعد سماعي هذه القصة؟ هل هو أخرق أم أن نصف السكان يفكرون على هذا النحو؟

في محل لتناول العصير وسط بغداد، دفعت بخمسمئة دينار عبر المنضدة وقلت: «كوكتيل هتلر، من فضلك». ونادى أمين الصندوق شاباً يحمل خلاطات، وأطباق فاكهة، وزجاجات حليب: «أحمد! كوب كوكتيل هتلر من فضلك لهذا السيد». وتتضمن قائمة المشروبات كوكتيل هايتي، ومانديلا، ونوريغا. ويحتوي كوكتيل

هتلر على أناناس، وفراولة، وعصير البرتقال، وقشدة، وعسل.

«إنه اسم غير عادي»، قلت. «لو كان متجرك في أوروبا لأُقفل». فأومأ أمين الصندوق برأسه.

«اليهود، أه؟ نقوم بذلك للفت الانتباه. نحن ندعو أيضاً ثمر النخيل مونيكا لوينسكي».

«ولكن هتلر قتل ملايين الأشخاص».

فأومأ أمين الصندوق برأسه. «لقد وضع اليهود في الفرن، أليس كذلك؟» إن كلمة هولوكوست، مُحرقة، تعني نار أو إحراق.

«ستة ملايين يهودي، وقتل الملايين من شعوب أخرى أيضاً. هل هناك كوكتيل شارون أيضاً؟»

فلم يتمالك أمين الصندوق نفسه عن الضحك. «لقد خسرنا زبائننا. قصف شارون بيروت، صبرا وشاتيلا... هناك عدد كبير من الفلسطينيين المقيمين هنا».

«أجل. واعتبر هتلر العرب دون البشر كاليهود تماماً. والسبب الوحيد لعدم وضعكم في الفرن هو عدم وجود عرب في أوروبا».

مرّر لي أمين الصندوق كوباً مليئاً جاعلاً إياه ينزلق على المنضدة، وقال بتجهّم: «لكن إسرائيل قتلت ملايين العرب».

بقيت رواية هذه الحادثة مسوّدة على جهاز الكمبيوتر الخاص بي. ولو قمت بنشرها لحقّقت نجاحاً بواسطتها لأنها ستسبب صدمة للقراء الهولنديين. ولكن إلى أي مدى يمكن اعتبار رأي بائع عصير الفاكهة مماثلاً لرأي قسم كبير من مواطنيه؟ كيف يُفترض بي وضع حوار مماثل

في السياق المناسب؟ في الدول الغربية، يستخدم المراسلون حوارات مع أشخاص عاديين لإظهار التوجهات. كنت قد استعنت ذات مرة باقتباسين هامَّين لشخص يدعى جون التقيته عند زاوية أحد الشوارع، فقيل لي: «جون ليس النيويوركي الوحيد الذي ينتابه هذا الشعور. هناك 60 بالمئة على الأقل يعتقدون...» ولكنني لم أتمكن من الحصول على أي استطلاعات للرأي يعوَّل عليها، وأبقيت كل الإحصائيات المتعلقة بالموضوع سرية. وهكذا، لم يكن لديّ سوى تعليقات رجل واحد أو امرأة واحدة في الشارع.

قد تقترح أنه يُفترض بي البحث عن مصادر يمكنني الوثوق بها. لقد حاولت ذلك بالفعل، ولكن كلما حاولت كتابة قصة من دون استخدام وكالات الأنباء، أو سيلة الإعلام الأنكلو ساكسونية، أو رؤوس متكلمة، كنت أفشل في ذلك. إحدى هذه المحاولات قصة ناجحة عن مشروع تطوير هولندي في الفيّوم، وهي واحة على بُعد ساعتين بالسيارة من جنوب القاهرة. وكان ملحق نهاية الأسبوع يُعدّ إصداراً عن المعونات التطويرية، ومن المواضيع المطروحة روايتان عن مشروع أخفقَ وآخر تكلّل بالنجاح. «يمكنني القيام بذلك»، قلت، وأجريت اتصالاً بمهندس مائي هولندي من خلال السفارة يدعى رولند. كان شخصاً لطيفاً بسنّي تقريباً، ودعاني على الفور لإجراء لقاء معه.

كانت الواحات تحملني على الدوام على التفكير في ثلاث أشجار، وكوخ، ومِعزاة، ولكن الفيّوم كانت مرجاً ممتداً بحجم اللوكسمبورغ يقطنه ثلاثة ملايين شخص. كانت الأمور تسير على نحو غير صحيح في الفيّوم: يزداد عدد السكان على نحو كبير، في حين يزداد نظام الرّي سوءاً. «يحصلون على كمية كافية من الماء، ولكنهم لا يستخدمونها

بشـكل صحيـح»، قـال لـي «رولنـد فـي مكتبه فـي وزارة الرّي. وكما هو الحال في الوزارات في القاهرة، كان الموظفون المدنيون في قيلولة، أم يحدّقون بالفراغ، أم يتلهّون بأعمال تافهة في الجوار ويُجرون اتصالات هاتفية باسترخاء». كانت غرفة رولند الغرفة الوحيدة التي تحتوي على مكيِّف هواء وجهاز كمبيوتر يعمل. فاتجهنا بسـيارته الرباعية الدَفع إلى الريف، وأشار إلى النفايات: «لم يعتد الناس استخدام أكياس نايلون. هم لا يزالون يتصرفون وكأن النفايات تتحلّل بمفردها. إن السماد الاصطناعي والمبيـدات ممتـازة، ولكـن عليـك تعليم الناس كيفية اسـتخدامها. لديك هنـا مهنـدس واحـد تابـع للـوزارة لـكل خمسـمئة مزارع، والمهندسـون ينظـرون إلـى المزارعيـن بتعـالٍ». فلاحـون أم مزارعون؟ إنهم أشـخاص فقراء وبسطاء.

«هكذا تسير الأمور على نحو غير صحيح»، وأشار رولند إلى قناة ريّ مسـدودة. «يتخلص المزارعون من نفاياتهم ومبيداتهم. هناك أعداد متزايـدة مـن النزاعـات الدموية حول سـرقة المـاء، والموظفون المدنيون لا يتدخلون لأنهم شديدو الكسل أو فاسدون». وأوجز الحل: «إذا أراد المزارعون إقامة برك مائية كما فعل الهولنديون منذ قرون في أراضيهم المنخفضة، يمكن لهذه البرك أن تساعد المزارعين على تأمين مياه الريّ لهـم، والحفـاظ علـى قنواتهـم، ورفـع مسـتوى وعيهم، وحـل النزاعات القائمة».

كان مواطنو رولند قد اختبروا هذه الفكرة التي حققت نجاحاً. خرج رولند من السيارة، واتجه نحو مزارعَين، وسأل أحدهما بفخر عما يحدث إذا أُمسـك بأحد سـكان الفيّومي يسـرق ماءً. «نهشّـم وجهه!» قالا. وقام المزارعـان بمـا يقـوم بـه كل المصرييـن بعد إطـلاق دُعابة؛ لقد تصافحا. «ولكننا بعد ذلك ندعو إلى اجتماع طارئ للمجلس»، قال المزارع الآخر:

«نيابةً عن الشعب المصري، أرغب في شكر الهولنديين لما قدّموه من مساعدة»، قال بِوَقار يبعث على الثقة. «لقد قلّ عدد محاولات سرقة الماء الآن، وبات لديّ محصول أكبر».

فودّعناهما، وأمطرتُ رولند بوابل من الإطراء. كانت لديّ قصتي الناجحة؛ من يقول إن المساعدة التطويرية مضيعة للوقت؟ وابتسم رولند. ولكن بعد أسابيع قليلة من نشر مقالتي، أطلعني أحد زملائي على القصة الحقيقية. إن الغاية من المساعدات التطويرية هي جعل المتخصصين الغربيين غير ضروريين ويمكن الاستغناء عنهم بأسرع وقت ممكن. على الناس تولّي شؤونهم بأنفسهم. لذلك، دفع مديرو شؤون المياه الهولنديون في اتجاه الخطوة التالية: منح مجالس المياه حقوقاً، وإجراء انتخابات لاختيار الأعضاء، وتوفير نُصح استشاري للمجالس، وزيادة مساهمات الموظفين. ولكن هؤلاء سيكونون مدراء منتخبين ويتلقون أجراً من المزارعين أنفسهم، أليس كذلك؟ لم تكن هذه الغاية المرجوّة من المشروع، كما أوضحت وزارات البناء والريّ في القاهرة؛ كان يجب أن يبقى النفوذ بين أيديها، فحُكم على مجالس المياه بالفشل.

في بيروت، ادّعى طبيب عراقي كان قد فرّ من بلده أن نظام صدام يصادر المواليد الجدد من المستشفيات ويضعهم في الثلاجات ليبدوا كأنهم «ضحايا للعقوبات» يعاينها مراسلون أو برلمانيون أوروبيون يَساريون عندما يزورون العراق. إنها قصة مريعة أخرى، ولكن كيف لي أن أتحقق من أن الطبيب يقول الحقيقة؟

كان نضالاً في سبيل بلوغ الحقيقة حتى عندما أظن أنني حصلت على الوقائع من مصدر موثوق، فأقول في نفسي، لا، هناك أمر غير

صحيح هنا بصفة رئيسية. وقضية سعد الدين ابراهيم هي مثال على ذلك. كان حبيب المانحين الأكثر أهمية في بلده، وقام طيلة سنوات بحملات تجتذب الإعلام حول الوضع الطارئ، والتمييز الذي يلقاه المسيحيون على مختلف الأصعدة ولا سيما على الصعيد الوظيفي، وسوء استخدام النظام للسلطة، ومسائل حساسة أخرى. فقبل عام من الانتخابات، تلقى إبراهيم أموالاً من الاتحاد الأوروبي لإنتاج فيلم يشرح كيفية إجراء الانتخابات. وتضمّن الفيلم مشهداً عن طريقة الاقتراع، فثارت ثائرة البلد. بعدها حُرّم ذكر اسمه في وسائل إعلام بلده طيلة سنوات، وها هي الصحافة الحكومية وما يُدعى صحافة مستقلة تخرج عن طَورها: لقد ارتكب إبراهيم «غشاً انتخابياً» واستخدم مالاً أجنبياً «لتشويه سمعة الدولة». وطيلة أسابيع متواصلة، هاجمت الصحافة مركز ابن خلدون التابع لإبراهيم: «نجمة داود في ابن خلدون»، «ابراهيم يريد أن يجعل من لحم الجياد مأكلاً للمسلمين». وجريدة صغيرة مستقلة وناطقة بالإنكليزية هي الوحيدة التي نشرت تقريراً حول ما إذا كان هناك دليل يُثبت ارتكاب غش انتخابي، وحللت دوافع النظام: إبراهيم رجل شهير ويملك جواز سفر أميركي، والتخلص منه رسالة واضحة لأي مواطن يفكر في التعبير عن آرائه على شاشة السي أن أن.

لقد بدا تفسير الصحيفة الأكثر إقناعاً بالنسبة إليّ بحيث إنني استندت إليه لوضع مقالتي. قد تعتقد أن القضية قد أُقفلت إذ إنني، وبعد إرسال المقالة، قصدتُ في فترة بعد الظهر الجامعة الأميركية ذات التكلفة الباهظة في العاصمة لحضور احتفال تخرّج الطلاب.

فجلست بجانب رجل يدعى حازم في السنوات الأولى من عقده الثالث، قادم من منطقة فقيرة. كان يرتدي بذلته اللائقة الوحيدة لأنه وجد فرصته الكبيرة. كان عمّ أحد الطلاب ذا منصب رفيع في وزارة

الإعلام، ويريد حازم طرح سؤال عليه لإعداد مقالة يمدحه فيها وينشرها في الصحيفة، والعودة من ثم إلى العمّ طلَباً لوظيفة. لسوء الحظ، لم يظهر العمّ، وشعر حازم بإحباط. فتبادلنا أطراف الحديث قليلاً وتطرّقت إلى موضوع سعد الدين إبراهيم. وأومأ حازم برأسه: «أمر لا يصدَّق، أليس كذلك؟ ترى كم يتعيّن على نظامنا أن يكون حذراً على الدوام؟ لا تريد أن تعرف عدد أعداء هذا البلد؛ آخر ما بلغني هو خبر تلك الفتيات الإسرائيليات اللواتي نشرنَ الآيدز في صحراء سيناء». فنظرت إلى حازم وقلت في نفسي، هل يُفترض بي أن أكتب عما يحدث في بلدك فقط، أم عما يحدث هنا أيضاً وفقاً لاعتقاد الناس؟ ولكن كيف يمكنني مجدداً معرفة رأي المواطن العادي؛ من دون الاطّلاع على استطلاعات للرأي يعوَّل عليها؟

الفصل الرابع

حاميها حراميها

لدى استعادة الأحداث الماضية، أتساءل عن سبب مرور وقت طويل قبل أن أدرك أن مفهوم الصحافة الجيدة في الشرق الأوسط ليس سوى تناقضٍ في التعابير. لقد أغفلت ذلك طيلة سنوات لأنني لم أكن أملك أي فكرة عن الصحافة، أولاً؛ ولأن أحداً ممن يمارسون المهنة لا يتحدثون عن الأمر، ثانياً؛ ولأن معنى كلمة دكتاتورية لم يكن واضحاً بالنسبة إليّ لمدة طويلة من الزمن، وهو السبب الرئيسي الثالث.

بالطبع، لقد قرأت عن الدكتاتوريات. فعندما كنت طالباً صغير السن، صادفت عباراتٍ مثل «يتمسك الحكام الدكتاتوريون بالسلطة من خلال مزيج من الترهيب، والتعيين، والتضليل»، أو «في إطار الدكتاتورية، يؤدي انعدام سلطة القانون إلى مجتمع فاسد بشكل مزمن وغير شفاف على الصعيد البُنيوي، ويغدو الرأي العام غير منسجم بشكل جوهري مع واقع الحال».

لم أفهم الأمر جيداً في الواقع، وبقيتُ على هذه الحال مدة طويلة من الزمن. وفي أثناء العام الذي قضيته في الدراسة الجامعية في المنطقة، علمت أن الناس يُرسَلون إلى السجن من دون محاكمة، ورأيت صور الرئيس، وكان هناك دبابة مدرَّعة تحمل مدفعاً رشاشاً أمام الحرَم الجامعي.

أنت تعتاد هذه الأمور. لقد علمت أن النظام لن يمسّني بسوء كوني غربياً - ستكون دعاية سيئة للمستثمرين وتؤدي إلى امتناع السياح عن زيارة البلد - لذلك يبقى الحال بالنسبة إليّ سؤالاً مثيراً للاهتمام أطرحه على نفسي: هل يكون أصدقائي الطلاب والأشخاص الذين أراهم ثلاث مرات أو أكثر في الأسبوع مخبرين لأحد أجهزة المخابرات؟ وعندما عدت إلى البلد الذي درست فيه كمراسل، عرفت أن أسوأ ما يمكن للنظام أن يقوم به هو ترحيلي؛ أمر لم يسبق أن حدث هناك منذ سنوات. لقد عشت حياة ممتعة، وهكذا بقي الوجه الحقيقي للنظام الذي كنت أعيش وأعمل في كنفه مستوراً. وبدا لي أن شيئاً لم يتغيّر في الصور الرئاسية، والدبابات، والانتخابات المتكررة بالرغم من كل شيء.

ولكن بعد أقل من عام، لم أعد واثقاً من ذلك تماماً.

وبما أنني أتوق إلى الأفضل، استمريت بالتقرب من الرؤوس المتكلمة للحصول على آرائهم في شأن أخبار الساعة: نزاع بين العراق والولايات المتحدة («إشارات أكثر عدوانية من بغداد»)؛ تراجع أم اختراق على صعيد عملية السلام («جيران إسرائيل متفائلون بحذر»)؛ الخُطبة الأخيرة للرئيس الأميركي أو وزير الخارجية («يبدو أنها كُتبت في القدس»).

يستمتع العرب بالتحادث مع بعضهم بعضاً، لذلك شاركت في الحديث بعد إحدى مقابلاتي من دون أن أستخدم جهاز الكمبيوتر المحمول. عندها، سمعت عبارة حملتني على التفكير في أحداث ماضية، مرحباً جميعاً! لقد أخبرني أستاذ في إحدى الدول العربية أنه كان قد توقف عن مناقشة الشؤون السياسية مع زوجته حول مائدة العشاء، وكفّ عن إطفاء التلفاز عندما يظهر الرئيس على الشاشة. وبلغ ابنه سنّاً يقوم فيه بتقليد الوالد؛ في ملعب المدرسة، مثلاً، حيث يجول أبناء العملاء السريين. وأقرّ

محام من بلدٍ آخر أنه يتسلم قضايا زبائن أثرياء من دون غيرهم لأنك إذا لم تكن قادراً على تسـديد أتعاب القاضي (تعبير مجازي لأن القضاة لا يتلقون أجراً من المتخاصمين بل راتباً من الدولة) فإنه لا جدوى من إقامة دعوى قضائية. وقال رجل أعمال إن شرطياً أوقفه في اليوم السابق بسبب إقفـال الطريـق لأن الرئيـس ذاهـب فـي ذلك الاتجـاه. «قبل أن أتمكن من الاستدارة بسيارتي»، قال رجل الأعمال، «عرضت ابنتي البالغة من العمر أربع سـنوات على الشـرطي ورقة نقدية تكفي لشـراء قطعة من الشـوكولا. لقد اعتادت الحصول على كل شيء من خلال الرشوة».

يحظّر في العمل الصحافي إجراء مقابلة مع سائقي السيارات مخافة أن يقولوا ما يريد الزبون أن يسمع. ولكن في العديد من دول الشرق الأوسط، يعمل سـائقو السـيارات في النهار كموظفين مدنيين، فتكون سـيارتهم مكاناً آمناً لتبادل أطراف الحديث مع الناس العاديين. وبعض السـائقين حذرون في كلامهم، في حين يكون آخرون أكثر انفتاحاً: قال أحدهم إن باستطاعة رجال الشرطة إجراء صفقات رابحة عند تقاطعات الطرق المزدحمة، وذلك مـن خـلال تحريـر محاضـر ضبط بغرامات مالية مرتفعة تذهب إلى جيوبهم الخاصة. وتجد حصة كبيرة من الأرباح طريقها إلى جيوب المسؤول المباشَر عنهم، وهكذا دواليك، مؤلّفين هرماً من الطفيليين. يعمل بعض السائقين في الجمارك، أو جباية الضرائب، أو التعليم، أو السجون، ويبدو أن الهرميات نفسـها موجودة في كل مكان. «لا خيار آخر لي»، يقول السـائقون. «راتبي منخفض جداً ولا يفي بمتطلباتي الحياتية».

لقد أخبرني سائقي المعتاد في الأردن أن شقيقه قصد عاصمة دولة مجاورة بسـيارة مرسـيدس جديدة لقضاء نهاية الأسـبوع مع عائلته. وفي صباح اليوم التالي، اختفت السـيارة. فأبلغ عن عملية السـرقة في مركز الشـرطة، وقام بزياراته متنقلاً بسـيارة أجرة. ولكنه رأى في اليوم الأخير

سيارته المرسيدس تحمل لوحة حكومية. تتبّع مركز الشرطة اللوحة، وبعد ساعة من الزمن، ظهر عميد. «هل كانت تلك سيارتك؟» سأل بفظاظة. «لقد وجدنا فيها أسلحة ومخدرات بما يكفي لسجنك إلى الأبد». فأومأ الشقيق برأسه، واستأذن، وغادر.

في أثناء إحدى فترات إقامتي في هولندا بعد عودتي إليها، أخبرني سائق تاكسي من أصل عربي أفريقي أن شخصاً ودوداً دنا منه في أحد المقاهي في أثناء رحلته الأخيرة إلى الوطن، وبدأ بطرح أسئلة عليه، ودار بينهما حوار شعر سائق التاكسي نتيجته بانزعاج كبير لما آل إليه الحال في بلده، وتذمّر من بعض الأمور. فقال الشخص الودود: «اسمع، أنت وغد، أنا أعمل لصالح الشرطة السرية. سأعفو عنك هذه المرة، ولكن عليك الانتباه أكثر لما تقوله. أعرف أين أجدك وعائلتك».

إليكم قصة «وليد». لقد التقيته بعد زيارة البابا إلى إحدى الدول العربية التي نجمت عنها مقالة كتبتُها حول الأماكن التي قام البابا بزيارتها، وزيّنتها باقتباسات للرئيس ورجل الدين المسيحي الأعلى رتبة في ذلك البلد تناولت التسامح الديني والسلام العالمي. وبطّنتها باقتباسات لمسيحيين مواطنين عاديين تتناول اهتمامات الناس. لقد ملأت المقالة الصفحة الأمامية، وأرسل لي زملائي في الوطن تهنئتهم.

شكراً، ولكن يبدو أنني كنت أستقي الكثير من المعلومات عن ذلك البلد من وليد. لقد نصحني به قائد فريق سياحي. لم يكن يرغب في بادئ الأمر بالتكلم بسبب خبراته السيئة مع الصحفيين الغربيين. كان وليد في العشرينيات من عمره، ويعتمد قصة شعر حديثة ويرتدي ثياباً أنيقة، وكان والده قد أقام في إنكلترا لمدة من الزمن. فتناولنا الشراب معاً في مقصِف الفندق، وتمشّينا إلى ملهى ليلي. كيف يكون عليه حال

شـاب مؤيّـد للغـرب يقيـم فـي هـذا البلـد؟ فنظر إليّ كما لو أنني أسـأله مـا إذا كانـت دولتـه سـتفوز يومـاً بكأس العالـم. «الأمر مُملّ حقاً. مملّ، مملّ، مملّ. كل يوم ترى الشـعارات نفسـها؛ وتسـمع الهراء نفسـه المثير للفتـن عـن إسـرائيل، عِلمـاً أن الجميـع يعرفـون أننـا لـن نتمكن أبداً من القيام بأي شـيء للفلسـطينيين. الجميع يتهكمون. إنهم يبيعون شـهادات في الجامعة بقيمة ثلاثمئة دولار لكل تخصص. ويُجبر الأساتذة الطالبات على ممارسـة الجنس معهم في مقابل الحصول على علامات مرتفعة. ويُنهي أبناء الآباء الذين هم على درجة من الأهمية كل تخصصاتهم من دون إجراء أي امتحان. أنت تعمل بكدّ ومثابرة بخلافهم، وتحصل على علامـة جيـدة ولكنـه يحصـل على علامة ممتازة لأن والده أجرى اتصالاً بالأستاذ. ألن يحملك الأمر على الجنون؟

ما الذي تشعر به عندما ترى صورة الرئيس؟ «لا شيء - الاشمئزاز ربما. هؤلاء الأشخاص يدمّرون بلدي. إنهم يسرقون أموال النفط، ويدمّرون الآثار التاريخية، ويلوّثون المحميات الطبيعية، ويبنون على الشاطئ. إنهم الأشخاص الذين يكون باستطاعتهم القفز فوق مخطط تمهيدي دام إعداده ثلاث سنوات من خلال توجيه رسالة ليس إلا». وشرح وليد سبب تجنّبه الصحفييـن الغربييـن. إنـه يعـزف مـع فرقة موسـيقية، وقبل عام أجرى معه مراسل من لوس أنجلس تايمز مقابلة بهدف إعداد مقالة. في أثناء المقابلة ألقينا دعابات تتناول النظام. لقد اقتبس ذلك فقط وأغفل كل شـيء عن موسيقانا. واتصل جهاز المخابرات بعد ذلك، وكان عليّ الحضور يومياً إلى مركزهم طيلة أسـابيع؛ الأسـئلة نفسـها على الدوام، وسـاعات انتظار. إنه أمر مُملّ، مملّ، مملّ. لماذا أضع موسـيقى غربية؟ لماذا كنت أقصد مقاهي الإنترنت؟ كما لو أن ذلك ينطوي على سلوك منحرف! لا يملك أولئك الأوغاد أي فكرة عما يبدو عليه العالم خارج البلد. إنهم يحملوننا

على الشعور بالملل حتى الموت بكل ما للكلمة من معنى.

أحضر لنا النادل مزيداً من الشـراب. ودخل رجلان لهما شـاربان يرتديان سترتَين جلديّتَين، واتجها للجلوس إلى الطاولة الأمامية الأقرب إلى الفتيات الراقصات. فعلى مقرُبة من المكان، وفي الشارع نفسه، يقع مركـز التحقيـق الأكثـر أهميـة، من الواضح أن الرجلين يعملان هناك. لا بد من أنها الطريقة لاسترداد أنفاسهما بعد عمل يوم شاق يشمل واضع منخسـات كهربائية على أطراف الناس. كيف تشـرح زوجات من مثلهم ذلك لأبنائهنّ وبناتهنّ؟ العم محمد مدرّس، والعم ياسر مهندس، والبابا يُخضـع أعـداء الرئيـس للتعذيـب. «أخبرني أمراً إيجابياً»، قلت بعد تناول كوب آخر من الشراب.

أخبرني وليد عن جارٍ له بنى جداراً كبيراً حول حديقته. «اغتاظ الحي بأكمله واتصلوا بأنسبائهم. وبعد أيام قليلة، قدِم عقيد في الجيش، ولكن قدومه جاء متأخراً جداً. كان الجار قد رسم صورة ضخمة للرئيس على الجدار وعبارة...! كان العقيد عاجزاً عن القيام بأي شيء حيال الأمر».

لقد بلغني أكبر قدر من المعلومات عن أنظمة المنطقة من غربيين. كانوا يعملون في مراكز مرموقة في الدول العربية، ولم يكن باستطاعة الأنظمة أذيتهم، ويحب العديد منهم تناول مشـروبات ليتحدثوا بسـهولة أكبر. ففي إحدى حفلات العشاء، أخبرني مستشار في الاتحاد الأوروبي أنه ساعد إحدى الحكومات العربية المشرقية في مسألة الشفافية. وتمثلت الفكـرة بـإدراج لائحـة علـى الإنترنـت بكافـة المسـتندات التي قد يكون المدنيـون بحاجـة إليهـا كلمـا أرادوا الحصـول علـى موافقة لخططهم أو مشـاريعهم. لقـد حـال الموظفـون المدنيـون دون ذلك علـى الفور، قال المستشـار. وبمـا أن المواطنيـن لا يعرفـون بالتحديـد المسـتندات التـي

يتعيّـن عليهـم اصطحابهـا معهـم، كان الموظفـون المدنيـون يسـتمرون بابتـكار متطلبـات جديـدة قائليـن «عـودوا غـداً» حتى يُعـرب المواطنون عن استعدادهم لدفع رشوة.

فـي أثنـاء لقـاء قمـة عربيـة، تعرّفـت بغرهـارد، وهـو مديـر ألمانـي لفنـدق مـن الدرجـة الأولـى. قبل سـاعات من انعقـاد القمة، دخل رجل مـن الأجهـزة الأمنيـة، وسـأل غرهـارد إن كان يريـد الحصـول على 150 راية ثلاثية الألوان؟ «ظننت أنه يُفترض بي تعليقها في مكان ما»، روى غرهارد السكران. «ولكن، ظهرت فجأةً ثلاث عربات مقفَلة أمام الباب، وكان عليّ السماح لنحو 150 موظفاً بالخروج للتهليل للرئيس في أثناء مروره في الشـارع. كان الفندق مليئاً بضيوف حلّوا فيه بمناسـبة انعقاد القمة والذين تُركوا من دون أي شخص يقوم بخدمتهم طيلة الفترة التي استغرقها الترحيب بالرئيس».

الشراب يكتسب مزيداً من الفعالية، كنت أقول في نفسي في أغلب الأحيان، وظهرت فعاليتها عندما التقيت المهندس الهولندي رولند، من شـركة المـاء القائمـة فـي واحـة الفيّـوم، في حفلة شـراب أقامتها الجالية الهولندية في القاهرة. كان قد أخبرني في وقت سابق بأن وزاراتَي الرّي والأشغال خرّبت المشروع.

بعد تناول عدد منعش من عبوات شراب الشعير، أضاف: «تكمن المشـكلة فـي الكلمـات. نحـن نقـول وزارة لأن النظـام يسـتخدم تلـك الكلمة، ولكنه أمر مختلف تماماً في الواقع. فليس من مهام الوزارة جعل مشاريع الرّي أكثر فعالية وأقل فساداً، بل يتعيّن الحصول على دعم آلاف المزارعين من خلال عرض الأرض والماء والأسمدة عليهم. في مقابل ذلك، يُخضع هؤلاء المزارعون مزارعين آخرين للمراقبة، ويخرج الجميع إلى الشـوارع للتهليل عندما يأتي الرئيس أو أحد الوزراء في زيارة. في

الوقت نفسه، تُبقي وزارة مماثلة آلاف وآلاف من العاملين في أعمالهم في المدن. في هذه الحالة، يكون أداء الوزارات أفضل إذا أرسلت ثمانية موظفين مدنيين إلى منازلهم واحتفظت باثنين منهم ليعملا براتب عشرة موظفين. فهذان الإثنان سيكسبان مالاً كافياً لعائلاتهما. ولكن عندها، يكون هناك ثمانية أشخاص بلا عمل. ما الذي سيفعلونه؟ هذا صحيح، النظام فاسد. ولكن الأمر يتعدّى ذلك - النظام هو الفساد بعينه. لديك عشرة أشخاص لا يقدّمون الكثير لقاء راتب منخفض جداً - منخفض لدرجة أنهم لا يستطيعون تأمين متطلبات الحياة بواسطته، ولكنه كبير جداً بحيث أنه لا يخوّلهم التذمّر. بهذه الطريقة، أنتم تجعلونهم متواطئين وعُرضة للأذى، مما يعني أن عليكم إبقاءهم تحت السيطرة».

لقد وضعتني هذه القصة على المسار الصحيح: الأنظمة غير الديمقراطية هي أنظمة مختلفة بشكل جوهري، ولكن هذه الحقيقة غير معروفة لأن وسائل الإعلام الغربية والمتخصصين الغربيين يكتبون عنها كما لو أنها ديمقراطيات. فبالرغم من إجراء انتخابات لا يمكن دعوة هذه العملية انتخابات حيث لا يُسمح لك بتأسيس حزب، ولا يمكنك القيام بحملة مفتوحة، ولا يمكنك الاستفادة من الصحافة الحكومية، ويتعيّن عليك الاقتراع في ظل رقابة مشدَّدة؛ يسود الغش بعد ذلك عملية فرز نتائج الانتخابات.

بفضل صدام حسين، أصبحت الأنظمة غير الديمقراطية مفهومة بالشكل الصحيح. في بلده، لم أشاهد أفعال هذه الأنظمة فحسب بل شعرت بها أيضاً، وقارنتها بالجنس: يمكنك قراءة كل ما تريد عن الجنس، ولكنك لن تحصل في الواقع على أي إلماعة حول سبب استمرار الناس بممارسته إلا عندما تمارسه بنفسك.

كان العراق في ظل حكم صدام الدكتاتورية المعزولة كلّياً إلى حد ما على الصعيد الدولي، لأن البلد خضع منذ العام 1990 للعقوبات

التجارية الأشـدّ في التاريخ. ولم يهتم صدام بصورته - لم يكن يُسـمح للسـياح والمسـتثمرين بدخول العراق - ولـم يكن للمراسـلين الغربيين وضـعٌ خـاص. والنتيجـة هـي أن العـراق كان البلـد العربي الوحيد الذي يعامَل فيه صحفي غربي كأي شخص آخر.

بـدأ الأمـر مـع تأشـيرة الدخـول. كنـت قد وجهت رسـائل فاكس، وأجريت اتصالات هاتفية طوال أشـهر، وجمعت معلومات رئيسـية من نشرات إعلانية دورية، وقمت برحلات جوية غير ذات جدوى بين القاهرة وعمّـان. وفـي المـرة الوحيـدة التـي تمكنت فيها من دخول بغداد، قالوا: «لقد أرسلنا الموافقة منذ زمن طويل، يا رفيق. اذهب إلى عمّان». فقيل لي هناك: «غداً، ربما». أخيراً، ساعدني صحفيون آخرون على الاستعانة بخدمات مصري ذي صِلات ليؤمّن لي تأشيرة دخول مقابل ألف دولار جديدة سدّدتها فولكسكرانت. «لقد حصلنا عليها»، قال لي بعد أسبوعين. «لـم أسـتلم الموافقـة إلا بعـد أسـابيع؛ لقـد تطلّبني الأمـر فترة من الزمن لأعرف من يجب أن أرشو».

كانت تأشيرة الدخول جاهزة، ولكن يتعيّن عليّ دفع رشوة؛ كلمة أخرى لم يسـبق لي أن اسـتخدمتها قبل وجودي في الشـرق الأوسـط، وإذ بي أحصل على مقرّر دراسي سريع: تضع ورقة مالية من المصرف المركـزي الفدرالـي الأميركـي (فـي هذه الحالة، مئة دولار) داخل مغلف مع طلب تأشيرة الدخول. فيومئ الموظف برأسه دلالةً على رؤيته الورقة النقدية الخضراء، ويكون هذا الأمر بمثابة إيصال لك.

كان هناك أمر شخصي مرتبط بعمليات الرشوة، وقد حصلت على كفايتي من هذا الأمر. «اختبار الآيدز»، قال موظف الجمارك عند الحدود الإيرانية-العراقية «يحتاج العراق إلى حماية نفسه من الأمراض الغربية». لكن مقابل خمسين دولاراً، يمكنهم أن يغضّوا الطَّرف عن الأمر. «انتظر

هنا حتى ننهي العمل المكتبي»، قال لنا موظّف جمارك آخر يجلس تحت لوحة كُتب عليها **صدام حسين، قائد رائع لشعب رائع**. فأومأ سائقي برأسه؛ لقد حان الوقت لإعطاء الموظف دولاراته الخمسة والعشرين ليقوم بختم الأوراق في الحال وليس بعد نصف ساعة. «هاتف يعمل عبر الإرسال الفضائي»، قال موظف آخر أثناء قيامه بتفتيش أمتعتي: كنا بحاجة إلى كدسة من المال. للحصول على إذن من وزارة الإعلام للتمكن من إدخال هذا الهاتف فمنحنا الموظفَ مزيداً من السجائر، والمشروبات الفوّارة، والمال. ولكل عقبة سعرها، والطريقة التي يشير فيها موظفو الجمارك إلى أنهم يريدون مالاً هي بقول التالي: «نريد ارتشاف الشاي».

أخيراً، فُتحت الطريق إلى بغداد، وشققنا طريقنا عبر الصحراء التي لا بد من أن تكون كلمة مهجورة قد ابتُكرت لأجلها. وبعد خمس ساعات، لاحت في الأفق مدينة ألف ليلة وليلة. فمررنا بسوق الحرامية حيث بيعت غنائم سُرقت من الكويت، ومن ثم تحت قوس النصر الذي كان يريد صدام في البدء تزيينه بجماجم الجنود الإيرانيين القتلى بدلاً من خوذاتهم. ومررنا بوزارة الدفاع أيضاً؛ كنت قد أجريت بحثي، لذلك عرفت أنه المكان حيث تمدد فيه الرئيس قاسم ذات يوم من العام 1963 عندما تعرّض للقصف من قِبَل قوّته الجوية الخاصة، واعتقله جنوده، وأعدموه. كانت رويترز قد أرسلت برقية تعرض فيها مبلغ أربعين ألف دولار لقاء صور للجثث، ولكن منظِّمي الانقلاب رفضوا ذلك.

وصلنا إلى فندق الرشيد حيث بدأت أشعر في الواقع بما يكون عليه الحال عندما تخضع لنظام لا حقوق لك فيه. فعامل مقسِّم الهاتف لا يجري اتصالات لصالحك إلا إذا دفعت له بعض المال؛ وكذلك للحارس المسؤول عن الخزائن الفولاذية لاحتفظ بتجهيزاتي أيضاً. فرمق البوّاب بنظرة محزونٍ ورقة الدولار الواحد التي أسلّمه إياها، ومن ثم

نظر إلى وجهي المتعرّق: «هل لديك المزيد؟» سأل. كان يعلم أنني أعلم بوجود مفتاح معه للغرفة، وأن باستطاعته سرقة كل شيء عندما أخرج. لهذا السبب، هم يملكون خزائن معدنية، ولكن لم يكن بإمكاني وضع حذائي، وفرشاة أسناني، ومؤونتي من الماء هناك. لذلك، كان عليّ رَشو الخادمات، ورجال الأمن، والمنظِّفين، وكل من يمكنه دخول غرفتي.

في صباح اليوم التالي، قمت بزيارتي الإلزامية لوزارة الإعلام، وتعرّفت بمازجدي من البوليس السرّي. فكل صحفي أجنبي يحصل على أحد هؤلاء العملاء. نحن ندعوهم معتنون؛ بهذه الطريقة، يبدو واقع الأمور أفضل. وكنت هناك بعد فترة قصيرة مع جهاز الكمبيوتر المحمول، جالساً مع مديرة مركز صدام حسين الثقافي. كنت قد دخلت في شجار مع مازجدي لأنني لم أكن أريد الذهاب إلى المركز الثقافي. وعاينت بعد ذلك، وبتهذيب، خمسمئة صورة مرسومة للشخص نفسه من قِبَل عشرين فناناً مختلفاً. وجلسنا ثلاثتنا لارتشاف الشاي، وسألت المديرة عن سبب قيام الفنانين برسم صدام حسين فقط. كانت امرأة شاحبة الوجه في أواسط عقدها الخامس وتتكلّم لغة إنكليزية غير سليمة. «هل أنت مجنون؟» صاحت. «كيف تشك بحبنا لقائدنا سيادة الرئيس صدام حسين؟ هناك مؤامرة عالمية ضد العراق! هل هناك أفضل من قائدنا، حماه الله، ملهماً للفنانين؟»

أومأ مازجدي لي. كان يريد في الواقع الانتقال إلى ملجأ العامرية حيث قتلت قنبلة أميركية 403 عراقياً في أثناء حرب الخليج. «كل الصحفيين الغربيين يقصدون العامرية. إنها قصة هامة، أم أنك لا تريد إخبار الشعب الهولندي عن جرائم الحرب التي ارتكبها الأميركيون؟»

كنا قد تجادلنا في السيارة لأنني أردت الذهاب إلى مدرسة ابتدائية بدلاً من ذلك؛ فلا نافذة إلى القلب أفضل من رسوم الأطفال. ولكن

الحصـول علـى إذن للقيـام بهـذه الزيـارة بقـي أمـراً مسـتحيلاً، ولم يكن باستطاعة أحد شرح السبب.

استمر الوضع على هذه الحال لمدة ثلاثة عشر يوماً، وكنت شخصاً عاجزاً طوال هذه المدة. لقد غادرت بلداناً عربية أخرى مع شعور بالأسف باستمرار بسبب وجود المزيد مما يمكنني القيام به. أما العراق فغادرته قبل يوم من الموعد المحدَّد بالرغم من كل المشاحنات التي كنت قد مررت بها للحصول على تأشيرة دخول. كم كانت تلك الأيام الثلاثة عشرة حُلُماً مزعجاً بالنسبة لي إذ كنت أصادف أشخاصاً يتهرّبون من الأسئلة الأكثر بـراءة بتعليقـات مثـل، «لقـد أُنعـم على العراق بقائد قوي كسيادة الرئيس صدام حسين، حماه الله»، أو «أنا على ثقة تامة أن قائدنا يملك حلاً لهذا الأمر»، أو «لست مهتماً بالسياسة». وقضيت كل الأيام جالساً في السيارة مع عميل سرّي لا أحد سوى الله يعلم ما يُضمر، وكان عليّ تناول العشاء معه في الخارج كل مساء؛ على نفقة فولكسكرانت بالطبع.

«مـن المدهـش أن يكـون لديهـم هنـا شـراب صنـع فـي هولندا، يا مازجدي».

«بفضل صدام حسين، لدينا كل شيء».

فـي الفنـدق، شـعرت كمـا لـو أنني صرّاف آلـي على قدمين. فقد كان عليّ كل مساء الأخذ بعين الاعتبار إمكانية سرقة مياه الشرب الخاصة بي، وملابسي، وأوراقي النقدية. حيث يوجد ميكروفون سرّي داخل الهاتف في غرفتي، وكل شيء على التلفاز موضوعه صدام حسين، ومن الواضح وجود آلات تصوير مخبّأة وراء المرايا التي تغطي الجدار بكامله. «الرجل الحقيقي يتخلى عن سـرواله»، قال زملائي جازمين عندما كنا قد التقينا في مشـرب في عمّان لتناول بعض المشروبات المشجِّعة قبل مغادرتي إلى العراق.

طلبت سيارة تاكسي لصباح اليوم التالي لأن الطرقات المؤدية إلى الحدود تكون مراقَبة في المساء من قِبَل اللصوص الذين يتقاسمون غنائمهم مع رجال الشرطة. حزمت حقائبي، وقصدت وزارة الإعلام القريبة في وقت متأخر من ذلك المساء لتسديد تكلفة إقامتي في العراق: مئة دولار يومياً لقاء الإقامة في العراق، مئة دولار أخرى لقاء إدخال هاتف خلويّ، وخمسون دولاراً في اليوم لمازجدي. حتى إنهم أعطوني وصلاً مختوماً لأن المحاسبين الغربيين صارمون جداً... وبينما كنت أستأذن للانصراف، قال المدير: «لقد سدّدتَ الحساب، يمكنك المغادرة الآن».

«يصف العرب العاديون هذا الأمر بتعبير محدَّد»، قال لي السائق الأردني عندما غادرت العراق. «حاميها حراميها».

لقد أُرهقت أعصابي بعد تلك الرحلة. وعندما استعدتُ عافيتي في القاهرة، أدركت أن ما ترك أثراً في نفسي إلى هذا الحد ليس الخوف العادي؛ فقد كان عليّ التعاطي مع ذلك الخوف إذا أردت أن أطرح قدراً كافياً من الأسئلة في أي دولة عربية. فتعرّضي للأذى، والعجز المهين الذي اختبرته في السفارة في عمّان، وعند الحدود، وفي فندق الرشيد، وفي وزارة الإعلام الجشعة، هو ما ترك في نفسي هذا الأثر. كنت مُراقَباً على الدوام، وعانيت من إدراكي المستمر بأن لا حقوق لي إذا تعرّضت للسرقة. كان يمكن أن أختفي من دون ترك أي أثر ومن دون أن يرفّ لأحدٍ جفن.

إنها النقيض المجرَّد للديمقراطية، وكان عليّ اختبارها بشكل ملموس لأفهم الفارق الجوهري بين هذا النظام والديمقراطية. فإذا خرق أحدهم القانون في هولندا وألحق بي الأذى، أعلم أنه باستطاعته إبلاغ الشرطة بالأمر. وإذا لم يفعلوا شيئاً، يمكنه ممارسة الضغط على

مستويات أعلى أو الذهاب إلى المفوّض المدني. يمكنه الحصول على محام أو على تغطية صحافية، أو الذهاب إلى عضو برلمان أو إلى المحكّمة الأوروبية. هناك سلطات عديدة مختلفة يمكنه الاستعانة بها لدى ممارسة حقوقه المدنية، وتراقب هذه الهيئات المختلفة بعضها بعضاً وتصوّب مسارات بعضها بعضاً. فمن شأن هذا الأمر أن يجعل سوء استخدام السلطة وبلوغ حالة الفساد أكثر صعوبة، في حين أنك تملك على الأقل المنحى القانوني المؤكَّد؛ أساس الديمقراطية. وعندما ترى شرطياً في هولندا، تشعر بالاسترخاء لأن ذلك الرجل أو تلك المرأة موجود أو موجودة هناك لأجلك. ولكن عندما يرى عربيّ شرطياً، يبدأ بالركض. حاميها حراميها.

بالطبع، ليس الجميع في العراق فاسدين أو مروَّعين؛ فعلى غرار الديمقراطيات الغربية، لا تسير الأمور دائماً وفقاً لتوجيهات النظام. ولكل بلد عربي طريقته الخاصة المختلفة، ولا يقضي العرب اليوم بأكمله وهم يتعرّضون للسرقة، وتلقّي الاتهامات الموجَّهة إليهم، ومراقبتهم من قِبَل المُخبرين. ولكن إذا حدث لك أمر ما، فلا وجود لإجراءات متَّبَعة عالمياً لممارسة حقوقك، مما يجعلك عُرضة للأذى. لذلك، أُصيب مازجدي المعتني بي بنوبة هلَع عندما أردت الخروج عن السياق المحدد لبرنامج الزيارة. ولو حدث ذلك، لتعرّض للابتزاز - «أين اختفيت كل الوقت مع ذلك الجاسوس الغربي؟» وربما كان مازجدي يبتزّ مرؤوسيه أيضاً.

***

بعد مرور بعض الوقت على تلك الرحلة إلى العراق، عدت إلى هولندا لمدة وجيزة لقضاء ما ندعوه أيام المراسل، وهو حدث يجري كل عامَين إذ يعود المراسلون إلى الوطن لمدة أسبوع. بدأ اللقاء على نحوٍ ممتع لأن المراسلين أشخاص ممتعون، وشعرت باسترخاء أكبر

عندما اكتشفت أن العديد من الأشخاص يشاطرونني عدم ارتياحي في شأن وكالات الأنباء. لقد شعر كل مراسلينا رجالاً ونساءً في مكاتبنا في لندن، وباريس، وبرلين، وواشنطن، بأن الأخبار غير الصحيحة تهيمن على الأنباء، وأننا نعتمد أخبار وكالات الأنباء من دون تفكير.

كان ذلك بلسَماً لروحي، ولكن هل كنا نتحدث عن حالات الإحباط نفسها؟ في ذلك المساء، وفي أثناء جلسة تناول المشروبات، سألتني زميلة تتخذ دولة غربية مركزاً لها عن نوع الشعوب الذي ينتمي إليه العرب. فأعددت إجابة معيارية لهذا السؤال: لقد تبنّيت الصوت الذي يُظهر مدى تخصصي في هذا الميدان، قائلاً إن العالم العربي متنوّع جداً وإن مصر هي البلد الوحيد الذي أعرفه جيداً. ونادراً ما كنت أتحدث إلى النساء، لذلك فإن انطباعاتي تشمل نصف الناس فقط؛ وإذا تعرفت بشخص واحد كل يوم، يصبح عدد هؤلاء الأشخاص حوالى الألف في ثلاث سنوات، أي ما نسبته 0.0004 بالمئة من مجموع الشعوب العربية البالغ 260 مليون نسمة.

أجل، أجل، قالت - قل الآن ما الذي تعتقده حقاً. وراودتني فكرة: لم أكن أعرف من يشبه العرب، لا لأنني لم أحاول بل لأنه لم يكن باستطاعتي أن أعرف.

«أنت تعملين في ديمقراطية»، قلت لزميلتي، «وفي ذلك النوع من الأنظمة تحصلين على كافة أنواع الوسائل التي يمكنك استخدامها لمضاعفة التحقق من انطباعاتك حيال نسبة الـ 0.0001 بالمئة من الأشخاص الذين تتحدثين إليهم. هناك سياق متّبَع. الناس في بلدك يجرؤون على التحدث إليك. هم يجرؤون على التحدث إلى بعضهم بعضاً، وهناك حرّية الصحافة. هناك استطلاعات الرأي، وتقديرات المحطات التلفزيونية والإذاعية، ونتائج الانتخابات. بمعنى آخر، في

وضعك أنت، يمكن لوكالات الأنباء أن تنوّر جزءاً أكبر بكثير من المجتمع، ويمكنك تقصّي الأمور لمصلحتك الخاصة. وقد تقوم وكالات الأنباء بوضع المقالات التي تكتبين جانباً، وهذا ما سئمتِ منه. ولكن المسألة تختلف في دول أخرى؛ لا يوجد هناك أي طريقة لتقديم اقتراحات خاصة. حيث أنت موجودة، باستطاعة أحزاب المعارضة، والمنظمات غير الحكومية، ومجموعات العمل، والصحافيين، الاتصال بالقائد لتوبيخه، ويتعيّن عليه الدفاع عن نفسه. وحيث أنا موجود، يرسل القائد زمرة من الأشرار. فاكتساب السلطة هي رأس الحكمة: يحاول الحكام الاستئثار بالسلطة بشكل كامل، مما يعني القيام بكل ما يحول دون حصول أتباعهم على أي معلومات. فكلما كان المجتمع غبياً سهلت عملية إفساد السلطة وساء استخدامها، وبات تشكيل معارضة أكثر صعوبة.

«إن واقع كَونك غير خائفة من الاستماع إلى ما أُخبرك، وكَوني غير خائف من قول ما أقول، هو الفرق بين الديمقراطية ونقيضها. تخيّلي لو أننا نعرف أن نصف الأشخاص الموجودين هنا حول هذه الطاولة - بالرغم من عدم معرفتنا بهم - يعملون لصالح أجهزة المخابرات. ماذا لو كان كل مدرائنا أعضاء حزبيين ينقلون أفكارنا لأجهزة المخابرات؟ ألا تظنين أنه يُستحسَن بنا التزام الصمت؟»

عندما ذهبت بوصفي مراسلاً، بدت الممارسة الصحافية مجموعة أدوات يمكنك إفراغها واستخدامها في مختلف أنحاء العالم. ولكن الأنظمة الدكتاتورية والديمقراطية ليست سيارتَين من طرازَين مختلفَين. فإذا كانت الديمقراطية سيارة تكون الدكتاتورية بقرة أو جواداً. فالشخص الذي يقتل بواسطة مِفك براغٍ أو مِكواة لِحام هو شخص عاجز.

الفصل الخامس

كل الأخبار الصالحة للنشر

لا عجب في أن يروي الناس الكثير من الدُعابات لبعضهم بعضاً: «نهنّئك يا فخامة الرئيس!» يقول المستشار. «99.98 بالمئة اقترعوا لصالحك في الاستفتاء العام. هذا يعني أن 0.02 بالمئة فقط كانوا ضدك. ما الذي تريده أكثر من ذلك؟» فزمجر القائد قائلاً: «أسماءهم».

اقتحم لصوص الخزانة الفولاذية في المصرف المركزي، فحصل ذُعر كبير حتى خرج الحاكم وقال بارتياح: «لم تُسرَق أشياء هامة؛ فقط نتائج انتخابات العام 2015».

عندما اندلعت أعمال شغب طلابية في إيران، وكان عليّ تغطيتها انطلاقاً من القاهرة لأن طهران كانت تُبقي بواباتها مُغلَقة، كان أمر تغطيتها من حيث أنا أمراً سوريالياً. فكم عدد القراء والمستمعين الذين سيعرفون أنني لم أتمكن من الاتصال بإيران بشكل مباشَر من مصر؟ ليسوا عديدين، كما أتوقع، ولم يكن أحد يعرف أنني أعرف في الواقع ست كلمات بالتحديد باللغة الفارسية.

بعد أقل من عام على وصولي إلى الشرق الأوسط، نظّم اتحاد

الصحافـة الأجنبيـة فـي القاهـرة رحلـة جماعية إلى العـراق مروراً بوزارة الإعـلام فـي بغـداد. كان جنونـاً تاماً. فالمعتنون بنا من جهاز المخابرات سيجلسـون فـي أحضاننـا عمليـاً، ويحملوننـا بانتظـام علـى الانتظـار في الردهـات طيلـة سـاعات متواصلـة مـن دون تقديم أي تفسـير، ويضعوننا بعد ذلك داخل سـيارات أجرة للقيام برحلة سـياحية. الانسـلال خارج المجموعة مسـتحيل لأنك تعرّض حينئذٍ أشـخاصاً آخرين للخطر. فإذا رأى عراقـي جـاره (يكـنّ لـه الكره منذ سـنوات) يتبادل أطراف الحديث مع غربيّ، قد يجري اتصالاً بصديق له في أجهزة المخابرات: «لقد جُنِّد جاري من قِبَل جاسـوس». هل يسـتطيع الجار إثبات براءته؟ وأمام أي سـلطات؟ ربمـا كان ذلـك الصحافـي الماكـر من هولندا مُخبراً أو عميلاً محرِّضـاً؟ تسـمع فـي الواقـع هـذا النوع من الأمـور المُضحكة؛ فإذا كان مثيراً للقلاقل ولم تبلّغ عنه على الفور، فهو قد يبلّغ عنك.

كان التوجـه إلـى الجنـوب جـزءاً مـن الرحلة فـي حافلة تضم نحو ثلاثين شخصاً أُطلقت خلالها دُعابات عن الرحلات المدرسية. وسرعان ما بدأ الجميع يلاحظون أعداداً كبيرة للوحات جدارية للقائد. كانت هناك صـورة لصـدام يرتـدي رداءً فضفاضـاً أسـود. وبعد ذلك، كان أمام فندق من الدرجة الأولى يرتدي قميصاً هاوايّياً ويدخّن سيجاراً كوبياً.

في كربلاء، توقف المرح. وفي مسجد العباس الذي يتمتع بشهرة عالمية، تم اقتيادنا في جولة على متحف صغير، كان النظام قد أقامه إحياءً لذكرى ضحايا ثورة العام 1991. كان الشيعة قد حاولوا الإطاحة بنظام صـدام فقُمعـوا بسـرعة ومـن دون رحمة. والأمـوات المكرَّمون مؤيّدون للنظام قام الثوار بتقطيعهم إِرَباً في بداية الثورة. لقد رأينا أنوفاً حقيقية، وبقـع دم جـاف معروضـة وراء الزجـاج، وصـور لـرؤوس أطفـال اجتثّها «عمـلاء مـن الجانـب الآخـر مـن الحدود»، وفقـاً للمرافقين؛ إيران. كان

المتحف مُدرَجاً ضمن كل رحلة مدرسية.

وها نحن حراس حرّية الكلمة نستمع إلى القيّم على مسجد «السيد ماضي» فاضل الغُرابي بعد أن دوّنا اسمه بعناية. وتنحنح الغُرابي وقال بعربية تقليدية قام بترجمتها أحد المرافقين: «قائدنا، السيد صدام حسين، حفظه الله، وضع جانباً خمسين كيلوغراماً من الذهب، و150 كيلوغراماً من الفضة، لأعمال الترميم بالرغم من العدوان المستمر على العراق من قِبَل إيران والغرب». كان هناك على الجدار صورة لصدام يصلّي، وشجرة عائلة تثبت أن القائد هو سليل النبي محمد ص. ونظر الغُرابي إلى المرافقين؛ هل كان أداؤه جيداً؟

لقد قيل لنا إنه باستطاعتنا طرح أسئلة، وظن البعض أن الأمر جدير بالمحاولة. هل صحيح أنه لدى إخماد الثورة، تم ربط مدنيين إلى الدبابات كي لا يطلق الثوار عليهم النار؟ وأن خُطبة الجمعة لم تُلقَ طيلة سنوات لأن النظام كان يخشى التجمعات؟ وبدأ الغُرابي بالتعرّق تحت ظل علاّقة اللحم، فسارع المرافقون إلى إنهاء الحديث.

اقتادونا إلى مستشفى صدام حسين؛ لم تكن بحاجة إلى مفكّرة لتتذكر أسماء المؤسسات في العراق. وعرف مصوّر فوتوغرافي في مجموعتنا أحد الأطباء الذي التقاه في أثناء الزيارات السابقة التي كان يقوم بها إلى العراق كل ستة أشهر.

«يسعدني رؤيتك! كيف حال المستشفى؟»

«الحمد لله».

كانت كل تجهيزات الجناح تقريباً متوقفة عن العمل، ولم يكن بالإمكان الحصول على قِطع غيار بسبب العقوبات. على الأقل، هذا ما قاله النظام. وشرح طبيب آخر أنه يتعيّن إرسال كل مرضى السرطان إلى منازلهم بسبب عدم توافر المال لشراء الدواء. وبعد إلقاء نظرة خاطفة

على المرافقين الذين بدأوا يشعرون بالسأم ويومئون برؤوسهم تعبيراً عن سعادتهم، أكمل بغضب قائلاً إن العقوبات حوّلت العراق إلى مخيّم للاّجئين. «ولماذا؟ لأنه يُزعم أن العراق يمتلك أسلحة دمار شامل منذ مدة طويلة، أن أميركا تريد تدمير العراق فحسب، أليس كذلك؟»

قرر صحفي ألماني من مجموعتنا التصرف كما لو أننا في ضيافة نظام كالنظم السائدة في أوروبا. فأشار إلى أنه رأى بركة سباحة، وسيارات مرسيدس، وأطباق لالتقاط الإرسال الفضائي... في المنطقة التي يقيم فيها قادة الحزب. النظام يملك مالاً ينفقه على تلك الأشياء، أليس كذلك؟ فتلعثم الطبيب بلكنته الأوكسفوردية. «أنا على ثقة تامة بأن لدى رئيسنا القيّم خطة لإنهاء الأزمة»، قال، ومضى. «هل حصلتم على اقتباساتكم؟» قال رئيس المرافقين. فأومأنا برؤوسنا، ومضينا بدَورنا.

لقد ظهرت طبيعة النظام للعيان مرة أخرى. وبواسطة المعلومات المتوافرة لديّ، وضعت على الفور قصة بعنوان: «القلق يسود كربلاء». ولكن، هل هذا ما كان يحدث؟ وإذا تطلّبني الأمر كل تلك المدة لفهم طبيعة النظام، كيف يكون عليه حال القراء المقيمين في هولندا الآمنة؟ على كل حال، لقد أثنى عليّ المدير بسبب مقالة أخرى.

تمكّن وزير الشؤون الخارجية، طارق عزيز، من تخصيص وقت لنا لأننا مجموعة. كان عرضاً مسرحياً مع إجابات معيارية عن أسئلة معيارية؛ العقوبات، القرارات الصادرة عن الأمم المتحدة، المناورات الدبلوماسية... لأن كل من يتابع وكالات الأنباء لا يجد جديداً في ما يقال. ومع ذلك، فقد حققتُ نجاحاً لأن طارق عزيز اسم شهير. ولكنني لا أزال أتذكّر ردَّي فعل، أحدهما صادر عن شخص من المقر الرئيسي سألني عن سبب عدم تمكّني من الحصول على تأشيرة الدخول بسرعة

أكبر، والآخر صادر عن أحد المحررين الذي شعر بالانزعاج لأنني لم أُجب على رسالته الطارئه التي وجّهها عبر البريد الإلكتروني. «ألم تكن تعلم أنني في العراق؟» أجبت.

«أجل، و...؟»

اضطُررت أن أوضح له مجدداً واقع أنك لا تستطيع توجيه رسائل عبر البريد الإلكتروني في بلد يسوده الخوف. كان الأمر مُحرِجاً، ولكن لم أتمكن من تأنيب زملائي كثيراً لأنهم بنوا أفكارهم جزئياً على الأنباء التي كانت ترِدهم منّي. وفي خلال عامَين، احتلّت مقالاتي الصفحة الأولى عشر مرات، ووضعت مئات المقالات، وتمّت استضافتي على أثير الإذاعة مئتَي مرة على الأقل، ولكن واقع النظام وطبيعته لم ينكشفا بشكل واضح إلا في مقالاتي المتمِّمة. ولأجل الوضوح، واصلت استخدام كلمة رئيس بدلاً من صفة أخرى؛ وبرلمان بدلاً من آلة تصفيق؛ ومعلِّق بدلاً من محرِّض، أو مِهماز.

بعد ذلك، وذات يوم، تصدّرت مصر الأنباء. ووفَد رؤساء الدول الأوروبية والأفريقية إلى القاهرة لعقد أول قمة أوروبية-أفريقية في محاولة من النظام المصري للتصرف كجسر بين القارات. ورزحت المدينة تحت ثِقل التدابير الأمنية، وكنت سعيداً بذلك لأن منطقتي كانت خارج التغطية الإخبارية لفترة من الزمن. ولكن هذه السعادة لم تدُم طويلاً.

فقبل الافتتاح مباشَرةً، جُمع كل الصحفيين في غرفة في مركز المؤتمرات في القاهرة. وصودرت أجهزتنا النقّالة، وقيل لنا إنه لن يكون باستطاعتنا المغادرة حتى إلقاء كلمة الاختتام. وكان الصحفيون القادمون من أوروبا الأكثر شعوراً بالغضب، ولكن الاعتراض لم يُجدِ نَفعاً.

فجلسنا هناك، وشعرت بالرغبة في الصراخ: «ما الذي نفعله هنا؟» في وقت لاحق من ذلك اليوم، زوّدنا القادة الأوروبيون والأفارقة باقتباسات ملائمة نسيناها قبل نشرها. تخيّل حدوث انتفاضة شعبية خارج الباب مباشَرةً. لو حدث ذلك، لقال المراسلون معاً: «لم يتوقع أحد ذلك». ولكن لماذا لم يتوقع أحد ذلك؟ لأننا نملك أفكاراً أخرى، أم لأننا نتابع ما توره وكالات الأنباء وتعتبره «القصة الحدث»؟

كنت قد تخلّيت عن الفكرة القائلة إنك تعرف ما يجري في العالم إذا تابعت الأخبار. ولكن الآن، وفي مركز المؤتمرات في القاهرة، أدركت أن العنصر الأكثر أهمية مفقود من الأخبار التي تتناول الشرق الأوسط. فالنظام المتكتم ليس عائقاً أمام الصحافة الجيدة كما هو حال عدم الكفاءة الروتينية لوكالات السفر، مثلاً، التي تقودك إلى الجنون. والتعتيم هو الأمر الأكثر أهمية في العالم العربي لوضع تقارير عنه. وفي بعض البلدان، من الأصعب رؤية سوء الوضع عبر السُحب الكثيفة للدعاية والتضليل، ولكن الشرق أوسطية قامت في الأساس بالطريقة نفسها. والكتابة عن الوضع القائم هو أشبه بوضع تقارير عن فرنسا أو هولندا كما كانتا عام 1943 من دون ذكر الاحتلال. ففي التقارير الإخبارية، والتحليلات، والأحاديث المتداخلة، يُفترض بك أولاً التركيز على الأنظمة وإنجازاتها والتحدث من ثمّ عن الأحداث الاستثنائية أي الأخبار.

باحتجازي داخل مركز المؤتمرات في القاهرة، قررت تبديل المسار وتغطية الحياة اليومية في ظل حكم كهذا الحكم كجزء أساسي من عملي. واكتشفت في الأشهر التالية مدى صعوبة ذلك.

تكمن المشكلة في المبادئ الأساسية للصحافة النوعية. فالناس يشاهدون الأخبار، ويستمعون إلى الإذاعة، ويقرأون الصحف لأنهم يريدون أن يفهموا المزيد عن العالم. وما يقرأونه ويرونه يجب أن يكون

صحيحاً. لذلك، تحتاج إلى اسم أول، واسم أخير، ووجهَي القصة، وتحقق مناسب، وتحقق مضاعَف، تحتاج إلى معلومات يمكن التحقق منها كما تتفاخر ذي نيويورك تايمز على صفحتها الأمامية: «كل الأخبار الصالحة للنشر». إنه مبدأ جيد ومفيد للغاية في ظل حكم ديمقراطي. ولكن جزءاً صغيراً جداً من الواقع يمكن التحقق منه في الشرق الأوسط ويكون صالحاً للنشر؛ وتمكث البقيّة في أربع مصافٍ كبيرة.

فالمصفاة الأولى تتمثل بخشية السكان المقيمين، وهي تحول دون قيام المراسلين بكشف النقاب عن كثير من الأمور. وكما قالت فتاة عراقية للبي بي سي بعد سنوات من سقوط بغداد، كانت حياتها في ظل حكم صدام «كوجود شخص ما في رأسك يتحقق على الدوام من أنك لا تريد قول أي شيء سواءً كان محفوفاً بالمخاطر أم لا».

يختلف الخوف بين بلد وآخر؛ لم يكن باستطاعتي التقدم خطوات إضافية في استقصاءاتي بسبب عدم قدرتي على التحقق من أي أمر يخبرني به أشخاص شجعان لا يواجهون سِتاراً دُخانياً. لم يكن يوجد في الواقع أي أرقام أو إحصائيات تمكّنني من النظر إلى هذه الحالات من منظور أشمل؛ إنها المصفاة الثانية.

لكن للصحف أيضاً أبواباً خاصة يمكن للمراسلين الإعراب عن آرائهم فيها، أليس كذلك؟ صحيح أنه باستطاعتي إزاحة بعض الأمور عن صدري، ولكن هناك حدود لذلك، ولا نبلغ بأفضل القصص إلى الهدف المنشود. فعندما قررت كتابة مقالة عن عجز الناس العاديين وتعرضهم للأذى، أدركت أن الأمر جدير بالمحاولة إذا كان باستطاعتي إرفاقها بمثال يحرّك مشاعر القراء. لذلك، بحثت في إحدى المراحل في ملفاتي وعثرت على اسم امرأة هولندية تقيم في بغداد، وباستطاعتها حمل القراء على الشعور بماهية الحكم الذي تعيش في ظله.

كانت من الهولنديين القلائل الذي لا يزالون في بغداد، وكنت قد التقيتها في أثناء رحلتي الأولى إلى العراق. ونظراً للعقوبات، لم يكن هناك سفارة هولندية في بغداد، لذلك قام القنصل في عمّان بتزويدي برقم هاتفها، وقال لي إنها امرأة مسنّة كانت قد تزوّجت بعراقي مسيحي في أوائل الخمسينيات، ولم تغادر العراق طيلة عقود من الزمن، ولاتزال تتكلّم الهولندية على غرار الملكة. في بادئ الأمر، رفضتْ لقائي. «لا نؤازر الكاثوليك»، قالت بحدّة عبر الهاتف، ومن الواضح أنها لم تصدّقني تماماً عندما أخبرتها أن دي فولكسكرانت استبدلت توجهاتها الكاثوليكية بوجهات نظر أكثر تقدّمية قبل أن أولَد. ووافقت في النهاية، وبعد ساعات قليلة كنا واقفَين خارج منزلها تحت المطر. ففُتح مصراع إحدى النوافذ وخطوت إلى الأمام، ولكن الباب بقي مقفَلاً. ونظر مرافقي مازجدي إليّ، ونظرت إليه. كانت هذه المنطقة في ما مضى مرموقة ولعلية القوم كما يبدو من خلال بنائها التشابكي وحديقتها المنبسطة والفارغة.

أخيراً، فُتح الباب، وتلى ذلك ترحيب غير صادق؛ لم تجرؤ ربما على رفض طلبي. وقُدّم لنا كوب ليموناضة، وقام مازجدي بتقليب صفحات بعض المجلات. كنت قد أبلغته أنني أنقل أفضل تمنّيات السفارة، فلم يمانع قيامنا بالتحدث بالهولندية. وبدأت السيدة المسنّة بإخباري أنه لم يكن باستطاعتها مغادرة البلد لأن النظام طلب منها عشرين ألف دولار للحصول على تأشيرة خروج. فزوجها مريض والدواء الضروري غير متوافر، وهي تواجه حُكماً بالموت لأنه يسهل معالجة ما تعانيه من مشاكل في القلب في هولندا وليس في العراق.

بسبب رفض صدام حسين التعاون مع مفتشي الأسلحة، لم يكن يُسمَح للعراق بالقيام بأعمال تجارية مع الخارج. وبهدف الحؤول دون بلوغ البلد حد التضوّر جوعاً، سُمح له بتصدير النفط على أن تقوم

الأمم المتحدة بمراقبة العائدات؛ ما دُعي برنامج النفط مقابل الغذاء. هل تملك ما يكفيها من الطعام؟ فشرحت السيدة من دون إظهار أي انفعال أن كل سكان الحيّ يحصلون على حصصهم الغذائية بشكل صحيح، أقلّه حتى مغادرة موظف الأمم المتحدة - إذا حضر - وإذا لم يكن موجوداً، يعيد الجميع ما حصلوا عليه، وتكون الأولوية لمكاتب النظام. ويذهب ما تبقى من الشحنة الغذائية للعائلات الأكثر ولاءً، ويكون على الجيران الآخرين استجداء الغذاء منها. تحدثت قليلاً عن هولندا، ولكن من الواضح أنها كانت تريد التخلص منا. أمر واحد أخير: لماذا بقي الباب الأمامي مغلَقاً لمدة طويلة؟ فأومأت برأسها، وبفتور، في اتجاه مازجدي. «لم تقُل إنك ستصطحبه معك. لقد ظهر على شاشة التلفاز مؤخراً. إنه يحتل منصباً في جهاز المخابرات. حفيدتي البالغة من العمر سبعة عشر عاماً تقيم معنا. إذا رآها عاد في وقت لاحق... أنت تفهم؟ أولاً، كان عليّ أن أدعها تفرّ من الباب الخلفي».

هذه هي طبيعة النظام. والله كم أردت استخدام هذه القصة، وأردت التحقق من وقائعها، ولكن مازجدي سلّمني لمرافق آخر لمدة يوم واحد. كان سفيراً سابقاً عاد إلى وزارة الإعلام ويعمل منذ سنوات لصالح مراسل ياباني. هما يثقان ببعضهما، والمراسل الياباني يثق بي، وهكذا كان باستطاعتنا التحدث. لقد تحدثت إلى السيدة الهولندية بعبارات مُبهَمة. «لم تبالغ بالتأكيد»، قالت بشكل حاسم. «لهذا السبب، يصبح العديد من الأشخاص مُخبرين، ويرسل كل والد أحد أبنائه إلى الجيش. هكذا تبني علاقاتك كي تستفيد منها عندما تواجه مشكلة ما».

لم يكن هناك أي سبب للارتياب بالسفير السابق، ولكن المرأة المُسنّة لم تكن جزءاً من مقالتي. لقد شعرت بوجود مخاطرة كبيرة إذا اكتشف مازجدي من خلال أحد العراقيين الهولنديين أم من خلال

السفارة الحديث الذي دار بيني وبين السيدة الهولندية. علمت قبل كتابة هذه السطور أن السيدة غادرت هذه الدار إلى دار البقاء.

كان جاي أحد شركائي في تناول الشراب في القاهرة، وهو فلمنكي يدير مصنع حلوى لصالح شـركة متعددة الجنسـيات. قال لي ذات مرة: «أردت اسـتيراد ثمانيـة أطنـان مـن الزيـت من نوعية خاصة يسـتعمل في اعـداد الحلـوى، ولـم أتمكـن مـن معرفة متطلبات اسـتيراد حاوية الزيت هذه. لقد روت وزارات البيئة، والنقل، والشؤون الاقتصادية، والصحة، قصصـاً مختلفـة، ولـم يُجـب أحد على اتصالاتي الهاتفية. ولكن مصنعي لم يكن قادراً على الاستمرار بالإنتاج من دون هذا الزيت، لذلك قمت باستيراده. ما إن بلغت الحاوية المرفأ حتى تمّ الاستيلاء عليها؛ كان يتعيّن إتلاف الزيت أو إعادته إلى بلد المصدر، أو سيكلّفني ستين ألف دولار إذا أردت إدخالـه. فاتصلـت بمحامـيّ الـذي أجـرى اتصـالاً هاتفياً بأحد صِلاته، واتصل هذا الأخير بأحد معارفه. وانتهى بي الأمر إلى دفع ستة آلاف دولار للمستشار لقاء استشارة قانونية، وسُمح لشحنتي من الزيت بعبـور الجمـارك. أي شـركة غربيـة تقـول إنها لا تزاول عملها من خلال الرشوة تكون كاذبة، وإلا لأعلنت إفلاسها منذ زمن بعيد».

لقد أظهرت المشـاكل التي يواجهها جاي كيف أن الفسـاد وسـوء الإدارة يدمّران اقتصاد البلد. ولكن القصة لم تجد طريقها إلى الملحق الاقتصادي لأنني لم أشأ تعريض مهنة جاي للخطر؛ فالسفارة المصرية في لاهاي تقرأ كل شـيء؛ لهذا السـبب، يملك جاي اسـماً مختلفاً في الواقـع وهـو ليـس فلمنكيـاً. إن تعريـض مصـادر المعلومات للخطر هي المصفـاة الثالثـة التـي تُبقـي وقائـع الحيـاة اليومية في ظل حكم مثل هذا خارج الأخبار.

هناك مصفاة رابعة. أحياناً يبلغ أمر ما مسامعي، فأتحقق منه وأحصل على مصادر مع أسماء أولى وأخيرة... ولكن يتبيّن لي أنه لم يعُد خبراً. وأحد الأمثلة على ذلك معدل الوفيات في الشرق الأوسط الناجمة عن حوادث السَّير. فبسبب حالة الطرقات الرديئة في المنطقة، والسيارات المتهالكة، والشرطة الفاسدة، والمستشفيات التي لا طائل منها في هذه الظروف، يزيد احتمال وفاة العربي عن الأوروبي في حادث سَير بخمسين مرة. إنه حمّام دم مستمر في العالم العربي. في هذه الحالة، تكون العوائق العادية للحصول على قصة جيدة غير موجودة: هناك أرقام متوافرة، ويمكنك الحصول على اقتباسات جيدة من الصحفيين التابعين للأمم المتحدة، وعلى أسمائهم الكاملة، ولا يكون أنسباؤهم ذوي أهمية كبيرة من الجانب الإنساني. لذلك أنتظر وقوع حدث استثنائي كبير على الطريق السريع بين القاهرة والإسكندرية لأبني قصتي عليه.

هكذا، أحصل على مقالتي الفريدة... ولكن - بقدر ما تُفضي إليه هذه المقالة - كيف يمكن لأكبر حمّام دم في العالم العربي أن يكون صالحاً لمقالة واحدة فقط؟

تكمن الإجابة مرة أخرى في أن البلدان العربية لا تتّبع أنظمة ديمقراطية؛ مقارنة بهولندا. عندما كنت في الشرق الأوسط، كان العدد المتزايد من مواطنيّ يستنتجون أن تكلفة الهجرة الجماعية أكبر من عائداتها. لقد أبدى أحدهم هذا الرأي وحصل على تغطية إعلامية. وعندما وصلت رسالته، كان يُدعى للتحدث عن الأمر في غالب الأحيان. فأوحى هذا الأمر للمؤيدين بمتابعة الموضوع مع المراجع الرسمية، وإقامة تظاهرات، وتنظيم ندوات؛ بهذه الطريقة، وجدت عملية مقاومة حدوث مزيد من الهجرة طريقها إلى الأجندة السياسية. إن الأمر يتطلب وقتاً وإن في ظل حكم ديمقراطي، لأنه يمكن للنخبة الحاكمة

إبقـاء بعـض المواضيـع خـارج الأجندة. لكن هـذه المواضيع تظهر على السطح عاجلاً أم آجلاً، وهنا يكمن الفرق بالتحديد بين أنظمتنا وأنظمة الشـرق الأوسـط. فوسـائل إعـلام الاتجـاه السـائد فـي الـدول العربية لا تورد ما يلي: «اليوم، ملأ آلاف المواطنين الشـوارع احتجاجاً على قيام الرئيس بتعيين شقيقه شبه الأمي مستشاراً حكومياً». ولا يوردون كذلك: «اليـوم، تقـدّم وزيـر سـلامة المرور إلـى الرئيس بالتماس يحتوي على 3 ملاييـن توقيـع، وطلـب منـه اتخاذ إجـراءات ضد أبناء وبنات الجنرالات والسياسيين المسؤولين عن حوادث اصطدام وفرار بسبب قيادتهم بسرعة 200 كيلومتر في الساعة».

إذا طـرأ أي جديـد علـى الحيـاة اليومية، وتوافرت معلومات يمكن التحقق منها، يصبح لدينا خبر. ولكن يجب أن يكون للموضوع ساقان ليبقى خبراً؛ عليه أن يكون متحركاً. «نتابع هذه القصة عن كثب»، قالوا على السي أن أن؛ لكن من دون تطورات لا يوجد شيء يمكن متابعته. لذلـك، لـم يكـن الجـوع في واو في السـودان قصـة للمحررين: «أه، لا، ليس نزاعاً آخر لا نهاية له في الأفق».

***

ذات مـرة، سـألت أحـد الإعلاميـين العامليـن فـي التلفزيـون فـي اسـتوديوهات الوطـن عـن رأيـه بالأخبـار. فأطلق ابتسـامة عريضة تعبيراً عـن إحراجـه: «إذا كانـت تُدمـي القلـب فقد حققت هدفها. نفضّل افتتاح الأخبـار بأنبـاء عـن هجمـات، وعمليـات اختطاف وقتل، وحوادث سـير كبيرة ودامية، لأنها تأسـر انتباه الناس. يجب عليك أيضاً أن تقسـم عدد الأموات على عدد الكيلومترات التي تفصل بين الاستوديوهات والمنزل. خبر موت البيض أكثر فعالية من خبر موت السود أو الآسيويين، وخبر موت المسيحيين أكثر فعالية من خبر موت أشخاص من ديانات أخرى؛

باستثناء ما جاء على لسان أحد الزملاء الأميركيين: اليهود هم الخبر. لذلك، يمكن لهجوم في القدس أن يشكل عنواناً رئيسياً، ولكن متفجرة صغيرة في الجزائر أو دلهي لا تُعتبَر خبراً رئيسياً».

كانت الدُعابات تهكمية على نحو ممتع وغدت أشبه بإجراءات ذاتية متكررة لتقييد حرّية إبداء الرأي. لكن وظيفتها تمثلت بصفة خاصة كما يبدو بالتلميح تكراراً إلى أن أحداً لا يعرف بالتحديد سبب غدوّ حدث ما خبراً. يمكنك تعداد متطلبات حدث ما ليصبح خبراً، ولكن لماذا يتم إدراجه في البرامج الإخبارية... إن الأمر المؤكَّد الوحيد بالنسبة إلى الصحفيين في الغرب هو أنه إذا حدث أمر هام، سيرغب الأشخاص العاديون في إبداء آرائهم عاجلاً أم آجلاً.

هذا في الغرب، ولكن الناس يُقمَعون في ظل حكومات الشرق الأوسط. فالاحتجاج أمر مستحيل، ولا تتم تغطية ما يقوم به العديدون؛ ليس في إطار الحياة اليومية فحسب، بل في ما يتعلق بالأمور التي لها تأثير كبير في حياة الناس. في مصر، يعيش 75 مليون شخص في منطقة سكنية بحجم هولندا، ويزداد عدد السكان كل عام 1.5 مليون نسمة. وبهدف التعاطي مع هذه الطفرة السكانية، تحتاج السلطات إلى إيجاد خمسمئة ألف وظيفة جديدة كل عام، وبناء مئة ألف منزل جديد، وعشرة آلاف مدرسة جديدة، وألف مركز جديد للتعليم العالي، ومئة مستشفى جديدة، وعدد من الجامعات الجديدة... هذا هو الضغط الكبير الذي ينجم عن النموّ السكاني؛ ليس في مصر فحسب، بل في اليمن كذلك، وسوريا، وبلدان عربية أخرى. هذا يعني ولادة 6 ملايين شخص إضافي كل عام، وعندما لا يكون هناك ماء أو عمل لهم، فإنهم قد يقررون المجيء إلى أوروبا. ولكن الطفرة السكانية لا تكون خبراً حتى يهاجروا بأعداد كبيرة:

ستون ألف عربي إضافي وُلدوا اليوم

من مراسلنا

القاهرة - اليوم، يزداد عدد السكان في الدول العربية ستة عشر ألف نسمة كما كان الحال أمس وما قبل أمس...

لم تكن الوفيات الناجمة عن حوادث السَّير أو النموّ السكاني خبراً، ولكن هناك إحصائيات عنها على الأقل. بخلاف ذلك، لا يعرفُ أحدٌ عدد الفتيات المصريات اللواتي يتم ختانهنّ سنوياً. كما أننا لا نعرف عدد الأشخاص في العالم العربي الذين يُسجنون من دون أن يحصلوا على محاكمة عادلة (أو محاكمة من أي نوع)؛ ولا مقدار بلايين الدولارات التي تمكّن جنرالات من دول مختلفة من إخفائها في حسابات أجنبية؛ ولا إمكانية لمعرفة عدد العرب الذين يُقتلون أو يُصابون بإعاقات كل عام بسبب سوء الإدارة الإجرامية هذه. لا أحد يعرف، ولا أحد يجرؤ على الاحتجاج.

لقد أخبرني طبيب عربي صديق عن حالة الفوضى والفساد التي تعمّ المستشفيات. فالأطباء يرتكبون أخطاءً مميتة لأنهم لم يكتسبوا كفاءاتهم من خلال الامتحانات بل من خلال الرشاوى؛ يتعيّن على المرضى رشوة الأطباء لتلقّي العلاج؛ يشتري الباعة الفاسدون أدوية مرتفعة الثمن أو أدوية منتهية الصلاحية في مقابل عمولة كبيرة. هذا ما سأكتب عنه، قلت في نفسي بحماسة. ولكن لم يكن هناك أرقام عن الأضرار، والهدر، والرشوة، وكان بالإمكان فقط، وكحد أقصى، نشر اقتباسات لأطباء في الصحيفة من دون ذكر أسمائهم. في الغرب، يُنشئ ضحايا نظام مماثل رابطة للمرضى. ولكن كما قالت زوجة ذلك الطبيب: «إن المرة الوحيدة في حياتي التي اقترعت فيها بحرّية كانت لأشخاص هم محط إعجاب

شـديد. وأقسـم لك أن جهاز الأمن الموالي للنظام سـيلاحقني باسـتمرار حتى وإن أنشأت نادياً للمعجَبين بهؤلاء الأشخاص».

هذه هي الصحافة في ظل حكام الشرق الأوسط، ولكن كيف تكون مختلفة عن سـواها؟ لا يمكنك ملء برنامج إخباري إذاعي أو صحيفة بانطباعـات شـخصية ودُعابـات لا تعـرف مـدى صحتهـا أو تأثيرها. لهذا السبب، فإن أولئك الزملاء الذين يتكلمون العربية بطلاقة ولا خبرة لديهم أو صِـلات - بخلافـي - يعتمـدون كلّيـاً علـى فَيض الأخبار في وكالات الأنبـاء. ولهـذا السـبب أيضـاً لا يُبعـد الحـكام وكالات الأنبـاء تلك عن بلدانهم. فهم ليسـوا بحاجة إلى ذلك لأن الوكالات تضع قيوداً لنفسـها لتقييد حرّية إبداء الرأي.

الأمـر بهـذه البسـاطة، ولذلـك يبقـى الكثيـر خـارج إطـار التغطيـة الإعلاميـة ويتعيّـن عليـك البـدء مـن لا شـيء عندما يرغـب الناس فجأةً فـي معرفـة المزيـد عـن العـرب، كما كان الحال بعد 11 أيلول/ سـبتمبر 2001.

الفَصْـلُ السَّـادس

11 أيلول/ سبتمبر والأمور المجهولة

يصعب عليّ تخيّل ذلك الآن، ولكن قبل تعييني عام 1998، كانت فولكسكرانت قد أجرت مشاورات جدّية حول ما إذا كان من الضروري وجـود مراسـل لهـا فـي العالـم العربـي. ألا يمكن تغطيته من إسـرائيل؟ في نهاية التسعينيات، قليلون هم الذين كانوا يهتمون بالإسلام، وبدا أن عملية السـلام بين إسـرائيل والفلسـطينيين تميل إلى الحل. وعندما يحل السلام أخيراً، ينضم العرب إلى رَكب الديمقراطية الغربية مع بقية العالم. نهايـة التاريـخ، هكـذا دُعـي الأمر في ذلك الوقت، وشـكا أحد المعلّقين الصحافيين من أن الجميع بدأوا يشبهون بعضهم بعضاً: «سيغدو العالم متجراً ضخماً واحداً لماكرونالد».

إنه جزء لا يتجزأ من قواعد اللعبة، ولكن في ذلك المناخ، كانت ملاحظاتي التي أبديتها لمدرائي حول تحريفنا لحقائق العرب ذات تأثير محدود. فبالنسبة إليهم، يقف العالم العربي على قدم المساواة مع أميركا اللاتينية: مقالة واحدة بين حين وآخر بحجم صفحة كاملة تُعتبر كافية.

لـم يكـن بالإمـكان تغييـر الواقـع لأن الأنظمة المغلقة هي كخارطة تحتوي على مناطق غير مستكشَفة تماماً. في أثناء فترات الهدوء، يمكن

للمراسلين التطرق إلى هذه المواضيع المجهولة، وذلك بجعل تقاريرهم وتحقيقاتهـم تقتصـر علـى الأحـداث التي تحتوي علـى معلومات يمكن التحقق منها: القمم، اختراقات دبلوماسية، تفجيرات. ولكن عندما يحدث أمـر هـام، يصبـح الجمهـور راغبـاً فـي معرفـة أمور لا يمكن للمراسـلين اكتشافها. ماذا تفعل حينذاك؟ هناك منافسة في صناعة الأخبار أيضاً، ليس بين الأخبار المحلية والأجنبية فحسـب، بل بين مراسـلين أيضاً يريدون الحصـول علـى أماكـن خاصـة بهم فـي الصفحة الأمامية، أويتمنون عمل شـخص آخر أو ميزانية سـفر. وعندما تُسـأل عما يحدث في منطقتك، فليس جيداً أن تكون إجابتك، «يصعب معرفة ما يحدث»، لأنك تعرّض نفسـك لإمكانية قيام رئيس التحرير بتخفيض مهامك. لماذا يُفترض بنا الاستثمار بواسطتك إذا لم تكن تعرف أي شيء باستمرار؟

لقـد وجـدت هـذه المعضلـة حلاً لها عندما توفّي الرئيس السـوري حافظ الأسـد. فجأةً، تصدّرت سـوريا العناوين الرئيسـية، وفُتحت أبواب دمشق واسعاً. وتحركت قافلات الأخبار العالمية، ولـم أكد أغادر قاعات الوافدين إلى المطار حتى شـرعت بالعمل. «وصل مراسـلنا إلى دمشـق. ما هو الجو هناك؟» وكأنني أعرف ما يجري، لذلك اختبأت وراء جدار من الوقائع التافهة كما يفعل الصحفيون الآخرون: سيسلك الموكب هذا الاتجاه، وستتم الجنازة في ذلك اليوم، سيحضر الرئيس أ ولكن القائد ب لـن يحضـر، وسـيكون هنـاك حـداد وطنـي لمـدة ج مـن الأيام... قد يكـون هـذا الأسـلوب صالحـاً لمرات قليلـة، ولكنه مُملّ ويمكنك القيام به من داخل الاستوديو بالسهولة عينها. فعندما يموت قائد حكم طوال هذه المدة، يكون المحررون راغبين في معرفة المزيد؛ كما في السؤال التالي، «ماذا سيحدث الآن في سوريا؟»

لقـد كان أحـد المواضيـع المجهولـة. فالابـن سـيخلف والـده؛ إنه أمـر مؤكّـد، ولكـن مـاذا بعـد ذلـك؟ لقـد بدا لي أن النظام لن يسـتعجل مشـاطرة الحكـم مـع معارضـة قُمعـت طيلة عقود. فاتُخـذت تدابير أمنية للمحافظة على الاستقرار في دمشق، وكانت مكبّرات الصوت تذيع طوال اليـوم، عبـارات الدعـم والتأييـد. وزُيّنت لوحـات الإعلانات في ممرات وزارة الإعلام بأوراق كتب عليها التالي: «تجمّع عام غداً عند السـابعة صباحاً أمام المدخل الرئيسي. في أثناء تشييع قائدنا إلى الأبد». لم يكن ذلك صوت ريح تغيير وشيكة تهبّ على البلد، ولكن العدد القليل من السـوريين الذين تحدثت إليهم كانوا يخافون دخول البلد في حالة من الاضطـراب، ويفضّلـون رؤيـة رجـل قـوي آخر يتسـلّم السـلطة بدلاً من المرور بأي اختبارات محفوفة بالمخاطر، كما قالوا.

ما الذي كان سيحدث في سوريا؟ أظن أنه كان يمكن للمراسلين أن يقولوا: «لا نعرف ما الذي يريده القائد الجديد أو الشعب. لا يمكننا أن نعرف، لأنه نظام مخالف لنظامنا». وبعد ذلك، كان بإمكاننا أن نفسّر لهم ماهية نظامهم.

لكن المراسلين الأعلى شأناً المعتمَدين من قِبل السي أن أن والبي بـي سـي بصفـة خاصـة قالـوا أمـراً آخر - على غراري - لقد استشـهدنا باقتباسـات لمتحدثيـن باسـم النظـام بلغـة إنكليزية مثاليـة مُقنعة اعتمدوا كلمات مثل: «انفتاح»، «سـعي إلى التغيير»، و«ربيع دمشـق». وجاء في تقاريرنـا أن القائـد الجديـد وعـد بالعصرنـة، وبمقاهي الإنترنت، وأطباق التقاط الإرسال الفضائي، وهواتف خلوية.

إنه الاتجاه التي ستسلكه سوريا، كما اقترحنا، واضعين قصة مماثلة على نحو ملحوظ لقصص مأتمَي الحسن ملك الغرب، والحسين ملك الأردن، في السنوات السابقة. جرى المأتم «الذي شهد قدوم عدد كبير

من المشيِّعين لإلقاء النظرة الأخيرة على الرئيس» دون وقوع أي حادث. وفي اليوم التالي، عادت سوريا لتحتل موقعها في نشرات الأخبار على قدم المساواة مع كولومبيا.

بعد ذلك حلّ 11 أيلول/ سبتمبر. وفجأةً، «أصبح العرب طبق اليوم»، كما قال أحد المعلّقين السعوديين، وكانت الهجمات بالنسبة إلى المراسلين الموجودين على أرض الحدث مناسبة للاحتفال. ولكن هذا لا يعني أننا قفزنا فرَحاً وعبّرنا عن هذا الفرح أحدنا للآخر. فلكل مهنة محرّماتها وليس عليك أن تكون عالم إنتروبولوجيا لتفهم أننا لا نحتفل بوقوع حرب أو حدوث انفجار - بالرغم من أننا نبقى بلا عمل كمراسلين إذا لم تكن هناك أي انفجارات أو حروب -. فالهجمات تعني أنني سأحصل على آلاف اليوروات الإضافية من قسم الأخبار في أن أو أس، وهي محطة الإرسال الرسمية الهولندية. وقد منحتني الصحيفة ميزانية كبيرة للقيام برحلتي دون تحديد مدة إقامتي، كما أمّنت لي مواقع ممتازة لتغطية الحدث ومصوّرين فوتوغرافيين رائعين. كنت أُهَمهم إلى حدٍّ ما شكراً لك يا بن لادن.

لكن سرعان ما أفسحت الحماسة الطريق للإحباط، لأن المراسلين بدأوا يدفعون ثمن تقاريرهم غير الملائمة التي كانوا يضعونها عن العالم في العقود السابقة. كيف يكون باستطاعة جمهوري أن يعرف ماهية الأنظمة العربية وأن كل شيء مختلف في هذا النوع من الأنظمة؟ كانت وسائل الإعلام الغربية قد «غطت» الأنظمة في الحقيقة ولكن في الملاحق والأفلام الوثائقية فقط. وتمثّل الاقتراح بأن يكون هذا النوع من المعلومات خيارياً ويكون باستطاعتك فهم العالم العربي إذا تابعت الأخبار. لكن الأخبار كانت تتناول الجامعة العربية باستمرار،

وأحداث العنف، والتقاط صور تذكارية في مناسبات كالقمة الأوروبية - الأفريقية.

تناول السؤال الرئيسي المطروح في 12 أيلول/ سبتمبر عن مدى الدعم الذي تتلقاه القاعدة؟ ما هو حجم العدوّ وإلى أي مدى يُفترض بالغرب أن يخشاه؟ لقد شن بن لادن الهجمات باسم الإسلام. فإذا أيّد 100 مليون عربي إسلامي هذا الأمر، باستطاعة الغرب أن يتوقع نزاعاً كبيراً.

حسناً، أجل. في البلدان الغربية، يمكنك الكف عن متابعة الأعمال البرلمانية، والتركيز على استطلاعات الرأي وصفحات الرأي في الصحف. لكن البرلمانات العربية والصحف لا تستحق هذه التسميات، واستطلاعات الرأي غير موجودة ولا يعوَّل عليها؛ في ظل نوع الحكم السائد، من سيكشف بصدق عما يجول في خاطره متجاوباً مع صوت مجهول الهوية عبر الهاتف؟

لم يكن بالإمكان الإجابة على السؤال الذي يتناول عدد المسلمين الذين يتكلم بن لادن باسمهم، ولكن كان يصعب على المراسلين الإقرار بذلك. وهكذا، وعلى غرار زملائي المراسلين، قمت بالمحاولة ببساطة. فقلت إن برامج المقابلات على الجزيرة متعاطفة مع القاعدة، وإن مشاهير العرب في ميدان صناعة التسلية غالباً ما ينتقدون أميركا من دون أن يؤثّر ذلك في شعبيّتهم، كما يبدو. كانت هناك إنتاجات مسرحية منتقدة للولايات المتحدة عُرضت لمدة طويلة من الزمن، وأغاني احتجاجية ضد الأميركيين احتلت المراتب الأولى، وأفلام سينمائية تصف الغرب على نحو سلبي حققت نجاحات على شبابيك التذاكر.

كان أمراً تخمينياً. فكلما سؤلت عن شعبية بن لادن مِلتُ أكثر فأكثر إلى إعطاء جواب صادق. كنت أريد إعلان إجابتي هذه بصَيحة

عبـر أثيـر الإذاعـة، أو كتابتهـا فـي الصحيفـة بحروف كبيرة: «لا أعلم. لا يمكنني أن أعلم».

لم أقم بذلك. ولكن ما الفائدة التي يمكن جنيها بتحقيق مزيد من الانفتـاح؟ فلـم يعـد يتعيّـن على المراسـلين التصـرف كأنهم يعرفون كل شيء عن العرب، ويراوغون في شأن الأمور التي لا يعرفونها. سيكون بإمكانهـم القـول ببسـاطة إن الأمـور مختلفـة فـي النظـام الذي نعمل في ظله، وإنه يُفترض بك التذكر أن راتب الناشط في ميدان حقوق الإنسان تدفعه منظمات غربية عندما تسـمعهم يَدعون إلى «التضامن بين الشـرق والغرب»، وأن الباحث العربي الذي يعتبر الأصولية العدوّ الرئيسي يراقبه البوليس السري؛ هذا إذا لم يكن يعمل لحسابهم.

لـو أعطـى المراسـلون مزيـداً مـن الشـروحات وكانوا أكثـر انفتاحاً على الأنظمة لتمكنوا ربما من «حلّ شيفرة» الاقتباسات الحُبلى بالمعاني الصادرة عن العالم العربي بعد 11/ 9. وينسحب الأمر نفسه على صور - علـى سـبيل المثـال - النـاس الغاضبيـن الذيـن يُضرمون النار في راية ويصيحون، «أميركا، شـيطان!» مما لا شـك فيه أن هذه المشـاهد كانت تخيـف الغربييـن بعـد 11/ 9، ومـا كانـوا يخشـونه أكثر من ذلك هو عدم وضعهم في الجوّ السائد: يا رجال، تعتقدون ربما أن التظاهرة هي أمر ينفذّه المواطنون بحرّية للتعبير عما يؤيّدونه أم يعارضونه، ولكن «فورات الغضب» هذه يتم تنفيذها فحسب في ظل نظام موجّه أم أن هذا النظام قام بتنظيمها على الأقل. فالعديد من المتظاهرين يعملون لصالح أجهزة المخابـرات، أم أقلّـه يكونـون مراقَبيـن مـن قِبَلهـم. ضع نُصب عينَيك أن باستطاعة الأنظمة العربية إصابة عصفورين بحجر واحد من خلال فورات الغضب هذه ذات الجاذبية الإعلامية. إنها توحي لأتباعها أنهم يتصرفون

بحرّية ويجرؤون على الوقوف في وجه أميركا القوية. وفي الوقت نفسه، تلوّح هذه الأنظمة للحكومات الغربية بالحشد المجروح الذي قد يكون أيضاً بمثابة المدير الغاضب المنتظِر، هل تفضّلون التفاهم معهم؟

لـو كان المراسـلون فـي العالـم العربي مدركين لرؤيتهم المحدودة لتمكنّا من الحصول على نوع مختلف من التقارير والتحقيقات الصحافية. لـكان بالإمـكان وضـع مقالـة تقـول، لا أسـتطيع إثبات ذلـك وقد يكون الأمـر هـراءً، ولكـن يبـدو أن للدعايـة التـي يُطلقها الحـكام داخل النظام التربوي ووسائل الإعلام الرسمية تأثيراً كبيراً في العرب العاديين الذين يبـدو أن خوفهـم مـن الغـرب أكبـر من خوف قادتهم. فإذا أخذت مصرياً ما وسألته عن منزلة بلده في العالم، سيقول لي في الغالب أمراً مماثلاً، نحـن مهـد الحضـارة، جنودنـا هـم مـن أفضـل الجنود فـي العالم، وقناة السـويس هي القناة الأكثر أهمية في العالم. دولتنا تضم مسـجد الأزهر وتشـكل جسـراً بين أفريقيا وآسـيا، بين الجزأين الشـرقي والغربي للعالم العربي والإسلام. ومن يتحكم بمصير مصر يتحكم بمصير العالم، لذلك تحـاول القـوى العالميـة علـى الـدوام الهيمنة علينا. وفـي العراق، يروي النـاس القصـة التاليـة: لدينـا أقـدم حضـارة، والأرض الأكثر خصوبة في الشـرق الأوسـط، والكثير من الغاز والنفط. نحن المفصلة بين الأتراك والفرس والعرب. من يسيطر علينا يمسك العالم بين يدَيه، ولهذا السبب تعمل القوى الكبرى ضدنا. وعندما أذهب إلى سـوريا، فهذا ما أسـمعه في غالب الأحيان.

فالكلمـات مختلفـة، ولكـن هنـاك لازمـة واحـدة فـي كل الأنظمـة العربية: **الجميع ضدنا**. وتُحدث هذه اللازمة أثراً كبيراً في نفوس العرب العاديين من خلال وسـائل الإعلام ونظامهم التربوي منذ صغرهم، فلا تتوقعوا منهم أن يكونوا موالين للغرب. قد يكونون راغبين في التخلص

من أنظمتهم، ولكن كل ما سمعوه على مرّ الزمن هو وجود تهديد أكبر وراء حدودهم - الغرب.

هنـاك فائـدة أخـرى للشـفافية الأكبـر. فإذا قلـتَ إن معرفتك ناقصة وهناك مواضيع تجهلها، يمكنك حينذاك أن تشرح كيفية قيامك بتجنّبها؛ ما هو نوع البوصلة التي استخدمت للإبحار في يمّ هذه الأنظمة. كنت أودّ أن أكون صادقاً بافتراضاتي، أو بالأحرى بوجهة نظري التي تشكلت في العام الذي قضيته كطالب في مصر عندما كنت أسأل نظرائي مصادَفةً عما إذا كان الإسلام متوافقاً مع الديمقراطية وحقوق الإنسان. وكانت إجاباتهم متنوعة إلى حد كبير: ليسـا متوافقَين لأن الإسـلام شـرقي والديمقراطية غربية؛ ليسا متوافقين لأنك تملك حقوقك كإنسان ونملك حقوقنا؛ ليسا متوافقين لأن الإسلام هو كلمة أخرى للديمقراطية وحقوق الإنسان.

فللجميـع تفسـيراتهم، وباسـتطاعتهم دعمهـا بمزيـج خـاص مـن الآيـات القرآنيـة، والأحاديـث النبويـة، وأمثلـة تاريخية. مَـن المُحِق؟ في ذلـك الوقـت، كنـت تحصـل علـى علامات عالية فـي الأنتروبولوجيا إذا أجبت «لا أحد».

***

من السـهل أن يكون المرء حكيماً بعد 11/9، ولكن بالعودة إلى الوراء، لا أظن أن وسائل الإعلام الغربية الكبيرة قامت بعمل جيد غداة الهجمـات. فنحـن لـم نفشـل فحسـب فـي أن نكون صادقين مع أنفسـنا حيال عدم معرفتنا الأكيدة بما إذا كان بن لادن يحظى بتأييد المسلمين العادييـن، بـل إننـا لم نسـعَ أيضاً للحصـول بالطريقة الملائمة على إجابة عن السؤال الثاني الكبير بعد الهجمات: لماذا يكرهوننا؟

لقد كانت المشكلة في كلمة «كره». ففي وسائل الإعلام الغربية، كانت المعركة مع القاعدة معركة ضد القاعدة على غرار فيلم سينمائي هوليودي فيه بطل وشرير. ويمكنك اعتبار نفسك البطل لأنك تعرف من يكون، وما الذي يحلم به، وما الذي يخشاه. أما الشرير فهو شر مطلَق، وكل ما عليك أن تعرف عنه هو ما الذي يريده: النفوذ، الانتقام، المال. ولكن لماذا يريد ذلك؟.. فالشرير هو عقبة دائمة، ولهذا السبب تحصل على نهاية سعيدة إذا قتله البطل. ولا يملك الشرير أي حوافز، أو أحلام، أو شكوك، إنه ليس إنساناً في الواقع. هذا هو الدور الذي تسنده وسائل الإعلام الغربية الكبيرة إلى الأصولية: هم يكرهوننا وعلينا التخلص منهم. وكيف سنقوم بذلك بالتحديد؟ شاهد هذا المساء داخل الشرق الأوسط على السي أن أن.

كانت التقارير الغربية عن القاعدة بعد 11/ 9 متحيّزة، ويسهل اكتشاف السبب بالعودة إلى الوراء. من كان باستطاعته أن يشرح دوافع الشرير؟ لطالما شرح الفلسطينيون والجزائريون، مثلاً، الأعمال التي ارتكبوها ضد الغربيين؛ لا بل نعرف أيضاً أن بعض الفلسطينيين حاولوا القيام بهجماتهم وبأعمال اختطاف الطائرات قبل أخبار المساء في أميركا من خلال احتلالها العناوين الرئيسية. ولهذه المنظمات أيضاً مؤيّدون غربيون وجناح سياسي يشرح مطالبهم في وسائل الإعلام، ويزيل أي إساءة فهم، ويشاركون في المحادثات.

لكن بن لادن كان يسجّل رسائله الفيديوية باللغة العربية، ويستخدم أمثلة من التاريخ الإسلامي غير مفهومة من قِبَل الغربيين، ويمطر خُطبه بوابل من الأفكار عن «الصليبيين الصهاينة». فالقاعدة لا تملك جناحاً سياسياً، ولكن ما كان ليُسمح لها بالتعبير عن رأيها بأي حال في جوّ الغضب والخوف بعد 11 أيلول/ سبتمبر. كما أنه تم سجن مؤيّدي

القاعـدة فـي معظـم الـدول الغربيـة بعـد إقرار قوانيـن مناهضة للإرهاب مباشَرةً.

فالأمـر منطقـي تمامـاً: مـن الصعـب منـح إرهابييـن منبـراً حـراً. وكانـت النتيجـة عـدم تمكـن القاعـدة من الرد على الـرأي العام الغربي، وقيـام مناوئـي بـن لادن بالتعبيـر حصرياً عن آرائه كما يرونها، وتحليلها؛ محللون غربيون وإسـرائيليون، وعرب ومسـلمون مناهضون للأصولية. ووجّه هؤلاء انتباههم لأمرين: بن لادن الشكل الإسلامي الآخر لهتلر، وبـن لادن المتطـرف الـذي يقـول، على غرار بعض الناشـطين في ميدان حقوق الحيوان والمشاركين في الحملات المناهضة للإجهاض: «الحقيقة التي أنادي بها هي الحقيقة الوحيدة، وأنا مُحِق في الدفاع عنها بقوة».

لكـن هنـاك بُعـد ثالـث لقصـة بـن لادن تـكاد لا تظهـر في وسـائل الإعـلام الغربيـة. لقـد دعمـت الحكومات الغربيـة الأنظمة العربية الأكثر أهميـة بالمـال والسـلاح والمخابـرات طيلـة عقود من الزمن. ويشـير بن لادن إلى هذا التدخل العملي في كل فيلم فيديو، ويمكن إيجاز رسالته بكلمتين: اخرجوا من بلادنا.

وهناك أيضاً نسخة أطول تقول: المسلمون مساكين وضعفاء لأنهم مقموعـون ومسـتغَلّون مـن قِبـل حكامهم. أنتـم الغربيون تدعمون هؤلاء الحـكام. فـإذا قمنـا بمهاجمتكـم وضعنا إسـفيناً بينكم وبينهم. بأي حال، سـنلفت انتبـاه المسـلمين العادييـن إلـى الدعـم الذي يلقـاه قامعوهم من الغـرب. بعـد ذلـك يسـقط الحـكام الذيـن تدعمونهـم ونتمكن من إعادة بناء بلادنا.

غالبـاً مـا ينعت سـكان الغرب البـارزون هجمات 11/ 9 بـ«الهجوم المباشَـر على الحضارة الغربية». ولكن كل من ينظر إلى قصة بن لادن يرى أنه يعرض لبرنامجه من منطلَق الدفاع عن النفس. ربما يكون الغرب

– وأميركا بصفة خاصة – قد تلقى ضربة، ولكن أسلحة القاعدة موجّهةٌ نحـو الحـكام العـرب. ووفقـاً لبن لادن، إن العالم الإسـلامي متورط في حرب أهلية تلعب فيها أميركا دور الداعم لخصومه، ولهذا السبب وجّه ضربة لأميركا. ولا تريد القاعدة التحكم بمصير نيويورك أو لندن، أقلّه بشكل أساسي. فالمدينة التي تريدها لا تقع في الغرب.

لقـد بقـي هـذا الجـزء مـن رسـالة بن لادن خارج الأخبـار الغربية، أي أن عدداً قليلاً من سكان الغرب هم على عِلم بدوافع عدوّهم. ولم تجـرِ فـي الواقـع أي نقاشـات فـي الغـرب حول قيام أنظمته بدعم أولئك الحكام، وتستمر شخصيات رائدة بدعوة المسلمين في العالم الإسلامي إلى الدخول في «نقاش حول إيمانهم».

***

الآن، وبعـد الحـادث، يمكنني القـول بتحديـد أكبـر ما الذي كنت أودّ القيام به بشكل مختلف. يتم تصوير القاعدة بطريقة منحازة، ولكن وسائل الإعلام الغربية لا تشير بعد 11/9 إلى مجموعة أخرى: الفصيل اللاعنفي للإسلام السياسي، أولئك المسلمون الذين يقولون إنهم يريدون التعبير عن تفسيراتهم المحافظة أو الأصولية للإسلام، والترويج لها، دون اللجوء إلى العنف. فهؤلاء الأصوليون اللاعنفيون غير معروفين من قِبل الغرب. ولا يمكن لأحد التكهّن بعددهم فحسب، بل إننا لا نعرف أيضاً من هم في الواقع وما هو برنامج عملهم.

كما في حالة الشيوعيين أو الصهاينة أو الكاثوليك، هناك نزاعات أساسـية، ومجموعة واسـعة من الآراء والتفسـيرات، وفوارق كبيرة بين الأصولييـن الإسـلاميين. ويكمـن الفـارق في أن الأصوليين الإسـلاميين لا يملكون حرّية التعبير عن آرائهم علناً. فكتبهم محظَّرة، ومواقع الوِب التابعة لهم مُقفَلة، وقادتهم يخضعون للمحاكمة أو تعرّضوا للقتل. ولا

وجـود لأي تحالـف دولـي أو منبـر للأصوليين على غرار منابر الفاتيكان والمؤتمـر الصهيونـي العالمـي حيـث يتـم اتخاذ قـرارات أو التوصل إلى اتفاقات مُلزِمة. مع من يُفترض بي التحدث لأكتشف ما يريده الأصوليون اللاعنفيون في الواقع؟

إذا أجريـتَ مقابلـة مـع قائـد فـي الغرب، يمكنـك وضع تصوّر لما يفكّر فيه أتباعه. وإذا ناقض القائد ذاته في وقت لاحق أو حاد عن خطه السابق، فإنه يتعرض للمحاسبة. على سبيل المثال، كيف يمكنه الإفلات مـن إخبـار وسـائل الإعـلام بـأن 11 أيلول/ سـبتمبر هـو عقاب للتدخل الأميركي في المنطقة إذا قال أثناء مؤتمر الحزب إن 11 أيلول/ سبتمبر هـو هجـوم علـى الإنسـانية؟ فـإذا قـام قائـد بهذا الأمر، عليـه الدفاع عن نفسـه أو الاسـتقالة. هذا هو تأثير النفوذ في النظام الديمقراطي، ولذلك يمكنك تكوين فكرة منطقية عن آراء المجموعات بعد إجراء عدد قليل من المقابلات مع قادتها الذين يمثّلونها. أما في الأنظمة غير الديمقراطية، فمجموعة القيادة تمثّل نفسها فقط.

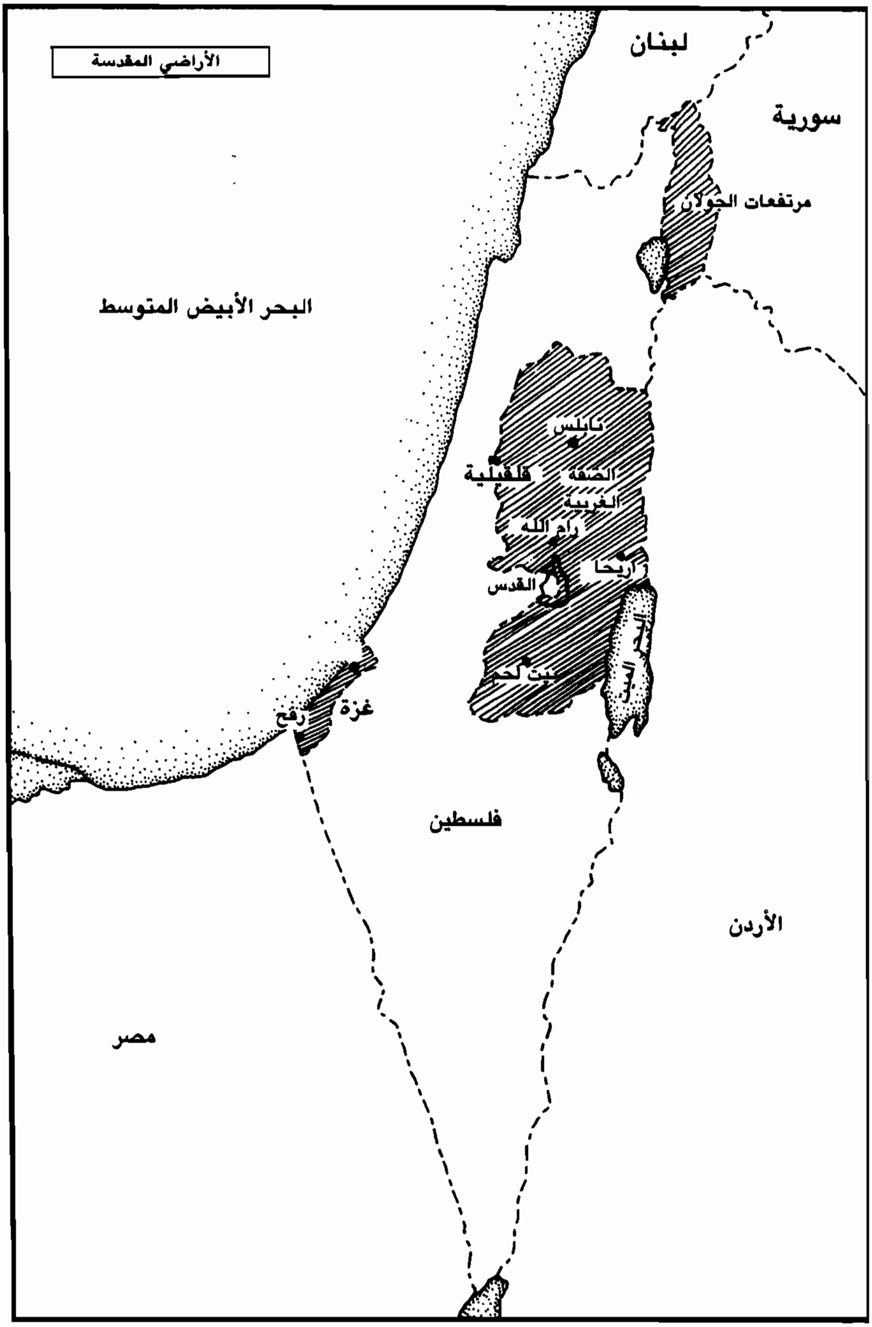
ما الذي يمكنك القيام به؟ أظن أن الطريقة الفضلى تتمثل باعتراف المراسـلين بجهلهـم، إذا عدنـا إلـى الـوراء. وكان بإمكانـي وزملائـي أن نقول شـيئاً مثل، «تسـتحيل معرفة ما الذي يخطط له حقاً فرع الإسـلام السياسـي اللاعنفي، ولم أتمكن سـوى من التحدث إلى بضع عشـرات منهم بالشكل الملائم. ولكن يبدو أنهم أشخاص محترَمون؛ يقولون إنهم يريـدون تحقيـق مُثُلهـم العليـا دون اسـتخدام العنف، فـي الكلّية المحلية حيث يتدربون، في المستشفى، أو في العيادة القانونية. ربما يخدعني كل هؤلاء الأصوليين اللاعنفيين، ولكنني لا أظن أن هؤلاء الأشخاص يبقون مسـتيقظين في السـرير أثناء الليل متسـائلين عن كيفية تدمير الغرب. من الأرجح أنهم يبقون مستيقظين وهم يتساءلون عن كيفية الحؤول دون قيام

الغرب بتدميرهم. فما نراه نحن في الغرب معونات تطويرية ورفع مستوى الوعي يرونه قوة أجنبية تستخدم أحباء المانحين والضغط السياسي وراء الكواليس في محاولة لتغييرهم، وتغيير معتقداتهم وعلاقاتهم الاجتماعية بين الذكر والأنثى، والعلاقة بين الشاذين جنسياً والسلوكيات المستقيمة، وبين المُسنّ والصغير. ويشعر مؤيّدو الإسلام السياسي أنهم مهدَّدون من هذا النوع من التدخل. يريدون أن يصنعوا مستقبلهم الخاص، ولكن ذلك الأمر لا يجعلهم إرهابيين مباشَرين».

ربما كان يُفترض بنا نحن المراسلين أن نحاول تعريف الناس بالأصوليين اللاعنفيين، ولكن الأمر لن ينجح لأننا لا نعرف ما الذي ننظر إليه.

إن الحقيقة غير موجودة في الأنظمة غير الديمقراطية؛ هذا ما يطيل أمد النظام إلى هذا الحد. ولكن هناك المزيد من الأمور التي تجعل الشرق الأوسط غامضاً، لذلك كان عليّ الذهاب إلى لبنان والأراضي المقدسة.

القسم الثاني


الأراضي المقدسة
لبنان
سورية
مرتفعات الجولان
البحر الأبيض المتوسط
نابلس
قلقيلية
الضفة
الغربية
رام الله
أريحا
القدس
بيت لحم
غزة
رفح
فلسطين
الأردن
مصر

الفَصْل السَّابع

عالم جديد

البحر الأبيض المتوسط، لبنان، سوريا، مرتفعات الجولان، نابلس، قلقيليا، الضفة الغربية، رام الله، أريحا، القدس، الخليل، البحر الميت، قطاع غزة، غزة، رفَح، فلسطين المحتلة، الأردن، مصر.

في الكتاب، يمكنك إخبار القصص الهامة واحدة تِلو الأخرى، ولكنها كثيراً ما تتداخل في الحياة. لهذا السبب، عليّ العودة عاماً إلى الوراء عندما حوّلت هجمات 11/9 عملي كمراسل بشكل جَذري.

كنت قد انتقلت إلى صحيفة هولندية كبيرة أخرى هي أن أر سي هاندلسبلاد حيث يمكنني التركيز أكثر فأكثر على المقالات المتمِّمة. وذهبت أيضاً للعمل لصالح البرنامج الإخباري التلفزيوني أن أو أس جورنال لأتمكّن من دراسة العمل التلفزيوني من الداخل. قررت الانتقال؛ لقد نلت ما يكفيني من التلوث وفوضى العالم الثالث في القاهرة، وكان قد حدث لي أمران غير سارَّين.

كنت قد دخلت سجناً مصرياً لزيارة نزيل هولندي وخرجت مع شعور بالاشمئزاز. لقد شاهدت عشرين رجلاً يتعرّضون لحرّ شديد في زنزانة تبلغ مساحتها خمسة عشر متراً مربّعاً، وقد أُصيبت أقدامهم

بالتقوّس بسبب الوقوف الإلزامي، وأخذت منهم الالتهابات والقروح كل مأخذ بسبب وجود المرحاض في الزنزانة... وشعرت فجأةً أنني اكتفيت من مشاهدة المعاملة القاسية التي يلقاها بعض المصريين من مواطنيهم؛ لقد أغضبني رفض سائق سيارة أجرة إفساح الطريق لسيارة إسعاف تطلق العنان لبوقها. وتيقّنت بعد أسابيع قليلة في حديقة الحيوانات من أنني أريد الابتعاد عن القاهرة؛ كانت الحديقة مليئة بالحيوانات المريضة في أقفاص صدِئة، وبشجيرات كريهة الرائحة، ونفايات تملأ المكان. والأسوأ من كل ذلك أن قامَ بعض الزائرين بالصراخ بشكل هستيري، فأُصيب أحد السعادين بالذُّعر وشن هجوماً بالفاكهة والحجارة على الفيلة، ونالت الزرافات نصيبها من المواد البلاستيكية. كنت مع صديقة هولندية في حديقة الحيوانات، واستمر الفتيان برمي الحجارة علينا؛ من الواضح أننا اعتُبرنا من فئة الحيوانات نفسها. في أثناء حدوث هذه الأمور، كان الفتيان يتدافعون، وتجرّأ أحدهم على التوجه نحونا، وقال: «تباً لك يا امرأة!» عندها، استشطتُ غضباً. وعندما عادوا، أوقعتُ الفتى أرضاً. فهرع المتفرّجون نحونا وبدأت بالاعتذار، ولكن الجميع تصرّفوا بتفهّم كامل، وقدّم الفتى اعتذاراته. كنت أحتفظ على الدوام برباطة جأشي، في الماضي، لدى مواجهة أوغاد صغار السن كهؤلاء، ولكنني لم أحظَ بهذا الاحترام أبداً إلا عندما أُصبت بفورة غضب متخطياً حدود اللياقة. عليّ الخروج من هنا، قررت في ذلك المكان والزمان.

فنظرت إلى خارطة وقلت في نفسي، هل هناك مكان أفضل من لبنان للذهاب إليه في هذه الحالة؟ ووفقاً للتعابير المستخدَمة من قِبَل المرشدين السياحيين، إنه سويسرا الشرق الأوسط بجباله التي تكسو الثلوجُ قممَها وسكانه المثقّفين والعالميين. إلى لبنان إذاً... ولكنني لم

أكد أصل حتى حدث مزيد من التغيّرات. لقد دخلت عملية السلام بين إسرائيل والفلسطينيين في نزاع جديد يشوبه العنف؛ ما بات يُعرف بالانتفاضة الثانية. وكان زملائي في تل أبيب والقدس قد غطّوا في السابق إسرائيل والفلسطينيين، لذلك تم استدعائي عندما ازدادت حدة العنف.

هكذا، وبالإضافة إلى تغطية العالم العربي، ذهبت بحثاً عن قصة كبيرة أخرى، ويا لها من قصة. فبعد هجمات 11 أيلول/ سبتمبر، أصبح العالم العربي «أكثر قُرباً» من الأوروبيين؛ ومع ذلك، وكما شرح أحد الدبلوماسيين: «العرب والفلسطينيون هم سياسة خارجية؛ إسرائيل هي خبر محلّي».

لقد تحدثت إلى ذلك الدبلوماسي في أثناء حفل استقبال حضرته للمرة الأولى في السفارة الهولندية في تل أبيب. ودُعيت في القاهرة وبيروت إلى أربعة استقبالات؛ وفي كل مرة، كان الجميع يقفون لدى عزف النشيد الوطني الهولندي وهم يضحكون وفقاً للطريقة الهولندية النموذجية. وحدث الأمر نفسه في تل أبيب؛ ولكن النشيد الوطني الإسرائيلي عُزف آنذاك، وفجأةً، أنشده بحماسة عدد كبير من الحاضرين. كان أمراً جديداً؛ هولنديون رزينون ينشدون نشيداً وطنياً والدموع في أعينهم، وسفارة هولندية تعزف النشيد الوطني للبلد المضيف. بعد فترة قصيرة، أخبرني أحد الضيوف أنه يبيع شقفاً في تل أبيب ليهود هولنديين لم يعودوا يشعرون بالأمان في أمستردام بسبب زُمَر الشبان المغربيين. وقال شخص آخر إنه يبيع شقفاً في أمستردام ليهود هولنديين لم يعودوا يشعرون بالأمان في تل أبيب بسبب هجمات الفلسطينيين.

أظهرت ردود الفعل من أمستردام أيضاً أن مواطنيّ يستثمرون رؤوس أموال عاطفية في إسرائيل والمناطق الفلسطينية أكثر منه في العالم العربي. وتلقيت عدداً قليلاً من الرسائل رداً على مقالاتي التي تتناول العالم العربي. ففي إحدى الرسائل، انتقد شخص يحمل اسم عائلة عربية التشويه الذي طال صورة المنطقة التي يقع فيها وطنه، وحاولت سفارة عربية ذات مرة تعليل انتهاك حقوق الإنسان. عدا عن ذلك، كان الأمر هادئاً والرسائل هزلية. وكنت قد سافرت مؤخراً في رحلة شاقة عبر صحراء سيناء على غرار الإسرائيليين كما جاء في التوراة، في حالتي، لغاية تتعلق بملحق عن السفر. لقد طافوا المكان طيلة سنوات، أما أنا فلثلاثة أيام فقط من دون أن أتمكن من الاغتسال أكثر مما اغتسلوا. وعلّقت على الموضوع لدرجة أنني تلقيت من مطّلع على التوراة رسالة يُعلمني فيها أنه لا يمكن لشعب إسرائيل أن يكون قد أنتن لأنه قيل في التوراة إنهم شديدو النظافة. وعلّقت هذا النوع من الرسائل على الجدار داخل إطار، كما أنني تخلّصت من الطلبات الوجيزة لإلغاء الاشتراك ضاحكاً: «أنتم تخبرونني أموراً لا أريد معرفتها! لقد اكتفيت من صحيفتكم!».

يتوقف الضحك عندما يتعلق الأمر بإسرائيل والفلسطينيين. فبعد عدد قليل من المقالات والأحاديث التداخلية، وصلني فَيض من رسائل الفاكس التي تحمل صلباناً، وتهديدات، واتهامات. وإذا ارتكبت خطأً مرتبطاً بالوقائع المحيطة بالعالم العربي، يتلقى طابق الأخبار من حين لآخر رسالة تقول، «لقد ارتكب مراسلكم خطأً مرتبطاً بالوقائع». وإذا ارتكبت خطأً مرتبطاً بالوقائع المحيطة بإسرائيل، تصل خمس رسائل تقول، «مراسلكم مناهض للساميّة». ذات مرة، رفعت سمّاعة الهاتف وسمعت، «سوف تموت». حتى إن زميلي في تل أبيب هوجم من قِبَل

إسرائيلي يجيد اللغة الهولندية: «سوف تقع في مشاكل إذا واصل لويندبك ذاك كتابة تلك المقالات».

كان عالماً جديداً، ولا يعود سبب ذلك فقط إلى أن قرائي ومشاهديّ متورّطون عاطفياً. لقد استخدمت ذات مرة عبارة الحرب \الإعلامية في إحدى مقالاتي، ولكنني لم أفهم معناها إلا بعد أن بدأت بتغطية إسرائيل والمناطق الفلسطينية. ففي الحرب الإعلامية كل شيء مختلف كما اتضح في رحلتي الأولى.

كانت الانتفاضة قد اندلعت قبل أسابيع قليلة. في البدء، كانت تقع إصابات من الجانب الفلسطيني بصفة رئيسية، ولكن حشداً في رام الله قام بعد ذلك بإعدام جنديَّي احتياط إسرائيليَّين أمام فريق تصوير صودف وجوده في المدينة. في ذلك المساء نفسه، قصفت إسرائيل مدناً فلسطينية للمرة الأولى منذ العام 1967؛ لقد كانت إشارة للصحافة العالمية للتجمّع في الأراضي المقدسة، ولصحيفة أن أر سي ومحطة الإرسال أن أو أس لاستخدامي.

فجلتُ بعينين مفتوحتين مركز الصحافة الذي أُعدّ بسرعة مذهلة وجُهِّز بشكل ممتاز في فندق الدرجة الأولى إسروتل القائم في الجزء اليهودي من القدس. كنت قد شاهدت مراكز صحافة تابعة لحزب الله وأنظمة عربية، ولكن هذا المركز مختلف. وبينما كنت أتردد بالاختيار بين القهوة المجانية، والشاي بنكهاته الثماني المختلفة، وثلاثة أنواع من عصير الفاكهة، وكومات من الشطائر الملفوفة، كان رجال ونساء إسرائيليون يجوبون المكان بلباسهم العسكري الموحَّد باللون الزيتوني ويوزعون أوراقاً تحتوي على اقتباسات ملائمة. وأطلعونا بإنكليزية جيدة، ودودة، وطليقة، على المؤتمر الصحافي الوشيك، على أن يقوم متخصص

في الدفاع بإيجاز مضمونه في وقت لاحق من ذلك اليوم.

كان الأمر على درجة عالية من الاحترافية: صور عن الإعدام، أوصاف للطريق المؤدية إلى المقبرة حيث دُفن جنديّا الاحتياط... لقد زُوّدت الصحافة العالمية بكل ما تحتاج إليه بمهارة متمرّسة، لا بل أكثر من ذلك: محفوظات برسم الاستخدام من دون شروط مُسبَقة لجنود إسرائيليين يقدّمون الإسعافات الأولية لفلسطينيين؛ أرقام هواتف الناطقين بلسان الحكومة الذين يمكنهم شرح وجهة نظرها بكافة اللغات الرئيسية وبالعدد المطلوب من الكلمات؛ ملفات مليئة بالمعلومات؛ نسخات مطبوعة عن مواقع الإنترنت وأكداس من النشرات الإعلامية تحمل العنوان «إرهاب أم احتلال - أي منهما في المقام الأول؟»

التقيت عدداً لا يُحصى ولا يُعَدّ من الصحفيين الذين بدا أنهم يجدون الأمر طبيعياً بالكامل وهم يتنقلون على السجاد ذهاباً وإياباً ويناقشون عبر أجهزتهم الخلوية أدق تفاصيل ما سينقلونه لغرف الأخبار في الوطن، وكيفية نقلها والوقت المحدَّد لذلك. وكانت استوديوهات القدس التي يتوافر لديها اتصال عبر الأقمار الاصطناعية تقع بجانب إسروتل لإجراء مداخلاتهم مع البرامج الإخبارية. إنه مكان ملائم لأن العديد من المراسلين يرتقبون نقل وقائع أحداث متوقَّعة في ذلك المساء، علماً أن المراسلين كانوا قد وصلوا للتوّ إلى الأراضي الإسرائيلية والفلسطينية.

أي نوع من العالم هو هذا العالم؟ لقد تفاقمت الانتفاضة، وتنقلتُ بين لبنان والأراضي المقدسة، وكان اندهاشي يزداد مع كل رحلة. ووُضعت مجموعة كاملة من «القصص التي تدعو للتفاؤل»: أطفال يهود ومسيحيون ومسلمون معاً في مدرسة واحدة؛ أغصان زيتون مُرسَلة من الإسرائيليين والفلسطينيين؛ حفلات موسيقية مشترَكة. لم يكن عليك

سوى إجراء اتصال هاتفي بالمنظمين الفلسطينيين والإسرائيليين لهذه المشاريع الواعدة... فتُقدَّم لك على طبَق التقارير الملائمة، والمعلومات التي يمكن التحقق منها، والتفاصيل المُلفتة والمثيرة للصور الذهنية.

اتصل بي مكتب الصحافة الإسرائيلي الحكومي. «لدينا لك تغطية حصرية: امرأة يهودية ناطقة بالهولندية انضمت طَوعاً إلى القوات المسلحة لأنها أدركت أن إسرائيل في خطر؛ خبير في شؤون الإرهاب ناطق بالإنكليزية يمكنه شرح مكامن الخطر؛ ومستوطن قُتل ابنه في أحد الهجمات». لقد أخبرتني مراسلة أميركية أن محطتها التلفزيونية أرسلت كل مراسليها إلى الخارج لمدة أسبوعين. «يريدون تحقيق سبق صحافي. وعندما يعرض عليهم أحدهم خبراً جاهزاً يتقبّلونه بلهفة». عندما رأيت في المرة التالية مستوطناً يبكي ابنَه على شاشة التلفاز، لم أتمكن من الكف عن التساؤل عن عدد فِرق التصوير التي اصطحبته إلى مقبرة ابنه. وكيف يحدث أمر مماثل؟ «مكتب الصحافة الحكومي يتحدث إليك. تعازينا الحارة لفقدان ولدك. لديّ ثلاثة صحفيين هنا، ومن واجبك الوطني التحدث إليهم عن حزنك؟»

لقد زرت مجمّعاً سكنياً من ستة طوابق في غزة كان قد تعرّض لقصف إسرائيلي. وتحدثت إلى بعض الجيران والأنسباء الناجين، وبحثت عن مكامن اليأس والحَيرة لديهم. وأخبرتني امرأة أن فكرة إصلاح الغسالة لا تزال تراودها. «ولكنني أدركت أنها لا تزال تحت الرُّكام، كزوجي تماماً».

كنت أختبر أمراً مماثلاً كل بضعة أيام، وما شهده العمل الإعلامي في إسرائيل من انفتاح، هو الأمر الأكثر لفتاً للانتباه. فبعد التعرّض لهجوم تسبب بسقوط عدد كبير من الضحايا المدنيين، انتظرت الحكومة الإسرائيلية أربعاً وعشرين ساعة كالمعتاد قبل توجيه ضربة

انتقامية. ومُنحت الصحافة العالمية وقتاً للراحة والتفكير مليّاً في المعاناة الإسرائيلية، لأنه حالما يبدأ الهجوم الانتقامي فإنه سيهيمن على العناوين الرئيسية. وسمح مستشفى هاسادا في القدس لفِرق التصوير بزيارة ضحايا الهجوم لإظهار «أكبر قدْر ممكن من الدماء، والألم، والدموع»، واعتماد أقوال ناطق إسرائيلي. وبعد هجوم فلسطيني كبير على نحو استثنائي، لم تتم إزالة جثث الضحايا على الفور لأن رئيس الوزراء أراد تسجيل تصريحه أمام ستارة خلفية من ثمانية عشر كيساً للجثث وحافلة محترقة. ومن الأمثلة الأخرى عن الوضوح الذي اعتمده الإسرائيليون لمناقشة كيفية التأثير بوسائل الإعلام، قيام أحد وزراء الحكومة الإسرائيلية بالثناء بحماسة على فريق تصوير أظهر ما يكفي من الذكاء لتصوير عدد قليل من الفلسطينيين وهم يحتفلون بوقوع هجمات 11 أيلول/ سبتمبر؛ لقطات مأخوذة عن قُرب وبدا الأمر كما لو أن عددهم كبير، وتكرر عرض الشريط المصوَّر على التلفزيون الأميركي؛ وإعلان مكتب الصحافة التابع للحكومة الإسرائيلية بفخر أنه أجبر السي أن أن على إعداد سلسلة وثائقية عن ضحايا الإرهاب للتعويض عن المقابلة التي أجرتها مع أنسباء مرتكب الهجوم؛ وتباهي رجل أعمال يهودي-أميركي أمام وسائل الإعلام الإسرائيلية بأنه تمكن من التخلص من المراسل الانتقادي لميامي هيرالد من خلال التهديد بسحب إعلانات منها.

***

قبل أن أصبح مراسلاً، كنت أنظر إلى الصحفي كما لو أنه ذبابة على الجدار - ميكروفون غير مرئي يسجل الأحداث - ومعلِّق رياضي على مباريات كرة القدم يجلس في مكان ما من الإستاد ويتابع الأهداف من دون أن يراه اللاعبون؛ في المكان الذي لا تكترث له إسرائيل والفلسطينيون. وكان يتم التلاعب بوسائل الإعلام باستمرار والتأثير

فيها من قِبَل الأحزاب المعنية.

كان عالماً جديداً، وقد شرح لي زملائي الصحفيون ما الذي يكمن وراءه. كنت أعتقد أن حرباً إعلامية هي حرب تلقى اهتماماً كبيراً من وسائل الإعلام، ولكنها أكثر من ذلك. قارن الانتفاضة الثانية مع النزاع الحدودي الذي جرى في الوقت نفسه بين أثيوبيا وإرتريا، قال الزملاء. إنها حرب تقليدية: فريقان يتقاتلان بكامل طاقتهما العسكرية، وينتصر الأقوى، وتنقل وسائل الإعلام ما يجري على الأرض. ولكن النزاع بين إسرائيل والفلسطينيين يدور بشكل مختلف. فإذا استخدم الجانبان كل طاقاتهما في النزاع، يُحسم الأمر على الفور، وتسيطر إسرائيل على الوضع بأسلحتها النووية، وقنابلها الذكية، ودباباتها الأكثر تطوراً، ومقاتلاتها، وطوافاتها، وسفنها الحربية، والمراقبة عبر الأقمار الاصطناعية، والغواصات. باستطاعتها تحقيق انتصار على الفلسطينيين في غضون أربع وعشرين ساعة، وعلى كل جيرانها أيضاً إذا أرادت ذلك. هو أمر تؤيّده بعض وسائل الإعلام الإسرائيلية والسياسيون الإسرائيليون بانتظام. ولكنه لن يحدث، ولا يمكنك فصل هذا الأمر عن الاهتمام الكبير الذي توليه وسائل الإعلام لهذه المنطقة وعن الرأي العام العالمي. يتشكل هذا الرأي العام إلى حدٍّ كبير مما يراه الناس في وسائل الإعلام.

مرحباً جميعاً! وكما قال مدير علاقات عامة إسرائيلي: «لا يتعلق الأمر بما يحدث بل بكيفية عرضه على السي أن أن». في الأراضي المقدسة، لم تكن صفحات الصحف وشاشات التلفزيونات نوافذ على النزاع فحسب، بل مرحلة من مراحل النزاع أيضاً.

الفصل الثامن

قانون المقصّ

كان توقفي التالي في رام الله، وقد شعرت بالخوف. كان حشد فلسطيني قد أعدم جنديَّي احتياط إسرائيليَّين مما أدى إلى حملة القصف الإسرائيلية الأولى لمدن فلسطينية لم تتعرض للقصف منذ العام 1967، وشاهدتُ الصور على كافة القنوات! أولاً، فلسطينيون مبتهجون يحملون جزءاً من جثة إسرائيلي، ويبدأ القصف بعد ذلك؛ الناس يسيرون بسعادة في الشارع، فينظرون إلى الأعلى متفاجئين، ويلي ذلك دويّ انفجار كبير وسُحُب من الدخان، فيركض الناس في كافة الاتجاهات.

لكن الحياة اليومية كانت عادية عندما وصلت إلى رام الله. كانت السوق مكتظة بالمتسوّقين، وسيارات الأجرة تطلق أبواقها للزبائن، وإذا نظرت إلى آخر الشارع وإلى السياج الخشبي الذي يحمل دعاية مسحوق الغسيل برسيل، تجد مركز الشرطة الوحيد الذي قامت إسرائيل بقصفه بدقة... هل تعلم؟ سأقوم بمرافقتك. هكذا كانت الأجواء في اليوم التالي لعملية الإعدام والقصف؛ ولكن عندما أنتقل إلى قنوات تلفزيونية عربية أو غربية، أجد المراسلين يتحدثون بحماسة عن «التوتر الذي يشوب شوارع رام الله»، و«الغضب الشديد»، و«القلق الكبير»، يلي ذلك مشاهد

عن عمليّتَي الإعدام والقصف.

ففي رام الله، لاحظت للمرة الأولى كيف تقوم المحطات التلفزيونية بتحديد نظرتك إلى الواقع: لا تعرف الوقائع التي تُحجَب عنك، وما تراه يترك في نفسك أثراً أكبر مما تتركه مقالات الصحف أو البرامج الإذاعية. لقد أوجز أحد زملائي الأمر بإتقان: الكلمات تستهدف عقلك، والصور تصيبك في الصميم. وذات مرة، رويت في أثناء أحد الأحاديث البيْنيّة مع فريق الأخبار التلفزيوني كيف توقف الحَيض لدى الشابات في غزة بعد عمليات القصف الإسرائيلي؛ لقد اتخذت مظاهر سنّ البلوغ منحىً معاكساً بسبب الضيق والكرْب. كنت أملك معلومات عن هذا الأمر لأنني كتبت قصتَين كبيرتين عن الآثار السيكولوجية للعنف الإسرائيلي على طلاب المدارس الفلسطينيين، وتم التركيز على هاتين القصتين في أن أر سي وخُصّص لهما مكانان بارزان. ولكن مجموعة منوّعة من المحررين اتصلوا بي بعد أيام من البرنامج الإخباري ليسألوني عما إذا لم يكن باستطاعتي كتابة قصة عن الآثار السيكولوجية للعنف الإسرائيلي على طلاب المدارس الفلسطينيين. ألم تقرأوا مقالاتي، سألت. وكان الجواب في غالب الأحيان: «حسناً، أما وقد ذكرت الأمر الآن...»

كان التلفزيون مَلِكاً في الحرب الإعلامية الدائرة في الأراضي المقدسة، ولكن ثبت في النهاية أن لديه نقاط ضعف. فقبل أن أشاهد فِرقاً تلفزيونية تؤدي عملها، كنت أتابع الأخبار واثقاً من صحة ما أرى وأسمع. لم أكن أملك أي فكرة عن المشاهد التي تبقى خارج عدسات الكاميرات؛ عندما تقف امرأة فلسطينية أمام أنقاض منزلها المقصوف، وترفع يدَيها نحو السماء، وتصرخ: «أطفالي!» ربما كان التأثر حقيقياً، ولكن عندما رأيت مشهداً مماثلاً ملتقَطاً في غزة، أدركت أن المشاهدين يرون أمراً لا يمتّ إلى الجيشان العاطفي بصلة. كانت المرأة تصرخ

«أطفالـي!» فـي حيـن أن رجـلاً مفتـول العضلات يحاول على بُعد أقدام منهـا التقـاط صـورة قريبـة لوجههـا دون إظهـار يدَيهـا المرفوعتَين. كان هنـاك ميكروفـون متـدلٍ فـوق رأس المـرأة المنتحبة على بعد قدمين منه، ويوجـد حولهـا مُجـري مقابلات ومترجمـه، وتجمّع من الناس، يجتذب فريـق التصويـر النـاس كمـا يجتـذب الخبـز البط. كيف عثـر الفريق على المرأة؟ بالطبع، ربما رآها المصوّر والتقط لها صوراً من دون استئذانها. ولكن من الأرجح أن مُجري المقابلات كان قد اختار امرأة من مجموعة صغيـرة، وتبـادلا أطـراف الحديـث في أثناء الإعداد لالتقاط مشـاهد لها، ووُضعت في مكان محدَّد لتجنّب أي سوء إضاءة يتسبب به نور الشمس؛ ولم يكن الرُّكام مرئياً بطريقة معبِّرة. وتم إقناع مثيري الضجيج في الحي بالتزام الهدوء، وطرح مُجري المقابلات بعد إيماءة من مهندس الصوت السؤال التالي: «ماذا حدث لأطفالك؟»

في الجامعة، كنت قد حفظت أموراً عن الرسـائل - تحدد الفكرة المطروحة محتوى الرسالة التلفزيونية - ولكن مدى تأثير الظروف على ما تقوم به أو لا تُظهره على الشاشة هو أمر لم أفهمه حقاً حتى قصدت لبنان لالتقاط مشاهد بنفسي.

كان من المُفترض أن يكون التحقيق عن ردود فعل الفلسطينيين على عودة الجنرال الأسـبق أرييل شـارون إلى المعترك السياسـي الإسـرائيلي. كان شـارون الرأس المخطِّط للاجتياح الإسـرائيلي للبنان قبل عشـرين عاماً، وسـيطرة الجنود الإسـرائيليين على مخيّمَي اللاجئين الفلسـطينيين في صبرا وشاتيلا، وتسهيل قيام ميليشيا لبنانية بالمجزرة الشهيرة. كانت الميليشيا مسلّحة ومدرَّبة وممولَّة من قِبل إسرائيل، وسُمح لها بارتكاب ما ارتكبته لمدة نهارَين وليلتين على ضوء أنوار القنابل المضيئة الإسرائيلية.

إن حمّام الدم الذي تعرضت له صبرا وشاتيلا أكسبهما شهرة عالمية وكلّف شارون مكانته على الساحة السياسية، ولكنه عاد. ووفقاً لبائع مثلجات فلسطيني: «في يوغوسلافيا السابقة، يُسجن مجرمو الحرب؛ في إسرائيل، يُسنَد إليهم منصب رئيس الوزراء».

أرسلت أستوديوهات هيلفرسام زميلاً من أن أو أس لمساعدتي في الإجراءات المتّبَعة. فاستأجرنا فريق تصوير محلي، وقصدنا المخيّمَين، وعندها ارتكبت خطأ لا أزال أشعر بالخجل منه. فلدى التحدث إلى سكان المخيّم، ذكرت عن طريق الخطأ بعض «المعلومات غير الملائمة» - معلومات لا تلائم قصتي - وفقاً لعلماء الأنتروبولوجيا. وقال لي الفلسطينيون إن ما دُعي حرباً ضد المخيّمات بعد سنوات قليلة كانت أسوأ من حمّام الدم الذي ارتُكب في مخيّم اللاجئين. «كانت المجزرة أمراً رهيباً»، قالوا، «ولكنها لم تدُم سوى يومين». من جهة ثانية، لقد دامت حرب السيطرة على المخيّمات بعد سنوات أشهراً: تحدثوا عن التضوّر جوعاً، ووصفوا أعمالاً وحشية مثيرة للاشمئزاز.

واصلنا البحث عن أشخاص فقدوا أفراداً من عائلاتهم في أثناء حمّام الدم. فعثر مهندس الصوت على شاب قُتل ابنا شقيقته. هل كان ذلك كافياً؟ وبعد محادثة صعبة، اكتشفنا أنه لم يكن موجوداً هناك في أثناء المجزرة. إن العثور على شاهد عيان سيكون أفضل بكثير، ولكن كيف نطلب ذلك بصورة لائقة؟ فشجّعنا سهى، وهي شابة في أواسط عقدها الثالث، على إطلاعنا على ما حدث. كانت قد ذهبت لإلقاء نظرة على الجنود الإسرائيليين: «كان الجميع يقولون إن لليهود قروناً، وأردت رؤية ذلك». لم تقع أيدي رجال الميليشيا على سهى لأنها كانت خارج المخيّم، ولكن عائلتها كانت أقل حظاً. «أطفئوا أجهزة الهاتف الخلوي، كاميرا، بدأ التصوير!» وشرعت سهى بالبكاء، وروت القصة من خلال

دموعهـا، فأطفأنـا الكاميـرا واسـتعادت سـهى هدوءهـا. «هـل أمثّل كيف اختبأت من الميليشيا؟» فادّعت أنها تحدّق من وراء جدار وهمي بوجه طفولي. «هذا ما قمت به لأجل التلفزيون الفرنسي».

مرحباً جميعاً! لهذا السبب كان المصوّر يتبادل أطراف الحديث مع سهى من حين لآخر؛ كان يعرفها منذ تصوير مشاهد سابقة. وواصلنا بحثنـا، آمليـن فـي الحصـول على بعـض المقابلات الجيدة. بعد ذلك، كان علينـا الذهـاب إلـى مـكان التوليـف حيـث اتضح الفـرق حقاً بين العمـل التلفزيونـي والعمـل لصالـح الصحف. ووضعت أيضاً مقالة للـ أن أر سـي عن اللاجئين الفلسـطينيين في صبرا وشـاتيلا بدأت على النحو التالي:

> لا تزال مريم تحتفظ بجهاز الراديو الثقيل الوزن الذي حَمَله والدها عندما فرّ مع عائلته المؤلفة من أحد عشر فرداً من المنزل القائم في ما يُدعى الآن شـمال إسـرائيل. ففي العام 1948، وبعد إنشـاء دولة إسـرائيل، اندلعت الحرب وسـرت شائعات عن مجازر ارتكبهـا الجنـود اليهـود. «ظننّـا أن الأمـر لـن يطـول أكثر من أيام قليلـة»، قالـت لـي مريـم مـن منزلها في شـاتيلا. «فاصطحبت معي جهـاز الراديـو وبطاريـة لأننـا لـم نكن نعرف متى نسـتطيع العودة. ولكن اليهود لم يسمحوا لنا بالعودة». وبعد أكثر من خمسين عاماً، لا تزال مريم، وهي والدة لثمانية أبناء وبنات، تنتظر العودة.

كانت حالة مريم الأكثر اسـترعاءً للانتباه في المخيّم، وكان جهاز الراديـو القديـم ذاك صالحـاً لافتتاحيـة جيـدة. إنـه مثـال يومـي عن عدم إدراك الفلسـطينيين لما يدور حولهم؛ والتمسـك بذلك الراديو يرمز إلى مثابرتهم.

لكـن مريـم لـم تكـن صالحـة للظهـور فـي النشـرات الأخباريـة التلفزيونية. كان جهاز الراديو في منزل صديق لها لم يكن موجوداً في منزله آنذاك. أرادت إخبار قصة شـقيقاتها المقتولات، ولكنها اسـتمرت بالاستطراد وضاعت في التفاصيل. كان هناك أزيز صادر عن المتجر في الطابق السـفلي، ومنزلها مُعتِم جداً وتجهيزاتنا غير مؤهَّلة لتوفير الإنارة المناسبة. وعندما فهمتْ أنه لن يكون باستطاعتنا تصويرها إلا إذا تمكنّا من نقل الخزانة، والكراسي، والتلفاز، والأريكة، من مكانها، طلبت منا بتهذيب العثور على شخص آخر.

هكذا جرى الإعداد لتحقيق إخباري تلفزيوني. ولكن قصتها ورقم هاتف الصديق الذي يملك جهاز الراديو كانا كافيين بالنسبة إليّ للتمكن مـن وضـع مقالـة - باسـتطاعتي التحقـق من الوقائـع لاحقاً - ولكن من الضـروري أن يظهـر جهـاز الراديـو علـى التلفاز. فـي الصحيفة، يمكنني استخدام الاقتباس الرائع لبائع المثلجات عن الفرق بين مجرمي الحرب اليوغوسـلافيين والإسـرائيليين. ولكن في الأخبار التلفزيونية، كان عليه تكرار تعليقه أمام الكاميرا، ولكننا لم نعثر عليه.

لم تكن طريقة حديث مريم الفوضوية مشكلة بحد ذاتها بالنسبة إلى أن أر سي لأنه يمكنني إلغاء بعض الجُمل، وإيجازها، واستخراج أفكار مما قالته. كان باستطاعتي وضع قصة بواسطة كلمات، وقد مكّنني برنامج معالجة النصوص من القيام بالأمر بسـهولة. ولكن بالنسـبة إلى التوليف التلفزيوني، عليك التعاطي مع المشاهد المصوَّرة المتوافرة لديك لأنك تروي قصة مُرفَقة بمشاهد؛ فمن المنطقي إذاً ألا تتوافر لديك قصة إذا لم تكن تملك مشاهد. «ألا يمكنني شرح الأمر بالكلام إذا لم نكن نملك مشاهد مصوَّرة؟» سألت زميلي (الذي قدّم لي يد العون في الإجراءات المتّبَعة). ولكنه أمر مستحيل على التلفاز بسبب قانون المقصّ.

كان على زميلي أن يشـرح لي هذا القانون لأنني لم أتعلم سـوى تحليـل النصـوص، وليـس المشـاهد المصـوَّرة، فـي المدرسـة الثانويـة. فقانون المقصّ يصف الأثر الذي تتركه تلك المشاهد في نفوس الناس. وللمشـاهد المصـوَّرة الأولويـة وليـس للصوت، فـإذا كان النص المرافق لتقرير أو تحقيق مصوَّر غير مطابق للمشاهد المعروضة، يتابع المشاهدون المشاهد المصوَّرة فقط. وإذا قرأتَ التالي، «تردنا معلومات إضافية عن طريقة تعرّض الفلسـطينيين للتطهير العِرقي خلال إنشـاء دولة إسـرائيل» في حين تُعرَض مشاهد عن الأهداف التي سجّلها فريق أف سي ماكابي تل أبيب، فإن محتوى النص المرافق لا يكون مطابقاً للمشاهد المصوَّرة. «يكون المقصّ مفتوحاً»، يقول المنتجون التلفزيونيون. إذا بدّلت مشاهد الأهداف بمشـاهد عن فرار الفلسـطينيين، ينغلق المقصّ وتغدو شـفرتاه ملتصقتَين ببعضهما بعضاً. فالصورة والصوت يدعمان أحدهما الآخر. إنه التقرير أو التحقيق التلفزيوني في أفضل حالاته، وهو أكثر فعالية من أي مقالة صحفية. لكن المشكلة تكمن بالطبع في أن العديد من الأمور في العالم لا يمكن تصويرها، وعدم عرض أي مشاهد على الشاشة وقراءة النص ليس خياراً بالنسبة إلى العمل التلفزيوني، ولكن أي مشهد مصوّر تضعه وراء النص المقروء يجعل الأولوية لهذا المشهد وليس للنص.

على شاشة التلفاز، يجعل قانون المقصّ الواقع على مستوى الحدث الـذي يمكـن التقـاط مشـاهد عنـه، وتظهـر نتائج هـذا الأمر بجلاء عندما تنشب معركة إعلامية حول التفجيرات الاستشهادية أو الانتحارية. كانت هناك قصتان مختلفتان تماماً عن الأشخاص الذين قاموا بالهجمات. فقد تقول إن هؤلاء المقاتلين في سبيل الحرية فقدوا الأمل في الحياة لدرجة أنهم مسـتعدّون للموت من أجل قضيتهم؛ لا بد من أن العيش في ظل

الاحتلال أمر رهيب. وقد تقول أيضاً إن هؤلاء يكرهون الإسرائيليين أكثر مما يحبون حياتهم؛ إذاً، لا بد من أن الفلسطينيين شعب يوقع الرهبة في النفوس.

روّجت ماكينة العلاقات العامة الإسرائيلية للتفسير الأخير، بالطبع، وقد ساعدها إلى حدٍّ كبير أهالي مرتكبي التفجيرات. فحالما يفجّر أحد نفسه، تُسرع فِرق التصوير التابعة لوكالات الأنباء إلى منازل الأهالي الذين غالباً ما يُعربون عن فخرهم ويقولون إنهم سيدعمون كل من يقوم بالمِثل.

لقد زرت عائلة مماثلة: عائلة في غزة. كان الابن، عرفات، البالغ من العمر واحداً وعشرين عاماً، طالباً في السنة الأخيرة في الجامعة الإسلامية في غزة، عندما استهدف بعض الجنود الإسرائيليين بعد أن حزّم جسده بالمتفجرات. كان أفراد عائلته جالسين أمام كوخهم المصنوع من الإسمنت في مخيّم الشاطئ للاّجئين يتقبّلون التهاني من جيرانهم.

فأخبرنا الوالد أن عرفات ودّعه. «كنت نائماً جزئياً. مدّ رأسه من وراء الزاوية وودّعني بسرعة». وتوقف قليلاً. «لو كنت أعرف ذلك، لضممته». واقترب أحد الجيران منه، فقال الوالد: «ابني لم يمت؛ الشهداء يذهبون إلى الجنة مباشَرةً، وكم أتمنى الانضمام إليهم. الموت لكل اليهود!» وروى أنه كان ذاهباً إلى المسجد ليهبه العشرة آلاف دولار التي منحها صدام حسين لكل عائلة شهيد. «لو كان ابني يريد المال لأصبح متعاوناً»، قال للجميع. «ابني بطل وهو في الجنة». وأنزل مسؤول في حماس صورة الشهيد التي كان يتناقلها المعزّون. وتقبّل الوالد الأمر بتهذيب؛ في لحظة يكون لديك ابن؛ في اللحظة التالية يصبح شهيداً. ومُرِّر التّمْر، والكوكا كولا، ونسخات عن رسالة ولده الوداعية، والشاي؛ مع سكّر لأن وفاته مريرة ومؤلمة.

بعد أن أعاد سرد مدى إبداع وتقوى واجتهاد ابنه، قادني الوالد في جولة على الأنقاض التي يدعوها منزله. وسار معه ولده، ياسر الذي أصبح الابن البكر في العائلة، وهي مسؤولية كبيرة في عائلة كبيرة مماثلة. «أريد أن أُريكم شيئاً»، قال لي هامساً، «ولكن ليس بحضور والدي». فاتجه نحو غرفته، وهمّ والده باللحاق به، ولكن ياسر أومأ بما معناه «لا». لم يسبق لي أن رأيت ابناً فلسطينياً يقوم بذلك. وأقفل ياسر الباب بإحكام، والتقط كيساً بلاستيكياً كبيراً للقمامة وبدأ بإخراج بعض الملابس منه. «حصلت على هذه من حماس»، قال شارحاً. كانت ملابس شقيقه التي ارتداها في الهجوم، وملأت رائحة كريهة الغرفة. وأشار ياسر بإصبعه إلى الثقوب العديدة التي أحدثها عدد كبير من الطلقات النارية في السروال. وكان الجزء الأعلى من السترة مفقوداً بسبب تمزّق جسد عرفات برُمّانة يدوية قبل أن يتمكن من الاقتراب من الجنود الإسرائيليين. «لم تتبادر أي فكرة إلى ذهني حول ما يتعيّن عليّ فعله بهذه الأشياء»، همس ياسر. «كان قرار شقيقي الخاص». ووقفنا هناك بخدَر، وحدّقت إلى ملصقاته التي يظهر فيها فريق كرة قدم مصري ومغنٍّ لبناني. ووضع ياسر الكيس جانباً، وكنا على وشك المغادرة عندما سألته عن سبب عدم تمكن والده من القدوم معنا. فطرَف ياسر بعينيه. «يكاد والدي يكون متماسكاً. إذا رأى هذه الملابس، والرصاصة والثقوب وتلك السترة الممزّقة... فإنه قد يقتل نفسه».

مرحباً جميعاً! من الإنترنت، حصلت على اسم أحد الأطباء النفسيين القلائل في غزة، وهو الناشط الشهير في ميدان حقوق الإنسان، أياد سراج. كان قد تعرّض منذ فترة قصيرة للضرب على أيدي مقاتلين غير نظاميين تابعين للسلطة الفلسطينية لأنه انتقد القائد، ولكنه كان لا يزال يريد رؤيتي.

***

إن العمـل لصالـح المحطـات التلفزيونيـة هـي ممارسـة مسـتهلكة للوقت، ولـم أكن أجيد القيام بهذا الأمر بشـكل ممتاز. وشـعرت أيضاً أننـي مقيَّـد لأن الظـروف تتحكـم بمـا أسـتطيع الكشـف عنـه أم لا. مـن الواضـح أن الفلسـطينيين لـم يكونـوا معتادين علـى المقابلات المتلفَزة: يعطون إجابات لمدة خمس دقائق عن كل سؤال مطروح، في حين أن المدة الزمنية للتحقيق هي ثلاث دقائق واثنتي عشرة ثانية. «يمكننا حذف جزء من المقابلة، أليس كذلك؟» سـألت للمرة الأولى. ولكن من شـأن ذلك أن يُحدث قفزة في الصورة بين حذف وآخر، وهو أمر مُلِهٍ جداً لأنك تُفقد المشاهد انتباهه. أحياناً، يجرؤ الفلسطينيون على التكلم عن الأمور المثيرة للاهتمام فقط - فسـاد السـلطات، مثلاً - بعد إطفاء الكاميرات. وكان باستطاعتي تخطي هذه المشكلة من خلال الإشارة إلى الأمر بنفسي (ندعـو ذلـك باللغـة الاصطلاحية مشـهداً لمتحدث واحـد إلى الكاميرا) ولكـن كان باسـتطاعتي التحـدث إلـى الكاميـرا لمرة واحدة فقط لأن أثر ذلك في نفوس المشاهدين يكون أقل مما لو قام فلسطيني بالتحدث إلى الكاميـرا. ومـا الـذي يمكنـك القيام بـه إذا أردت العرض لثلاث حالات أخرى لا يتحدث فيها الناس إلى الكاميرا؟ لا صور، لا قصة.

لقد كان الأمر كافياً ليقودك ذلك إلى الجنون، ويتضح أكثر فأكثر سـبب تعثّـر عملهـم مـع مـن يسـاعدهم في البحث عـن مواضيع صالحة للنشر. فقد يقوم المراسلون برحلة لمدة يوم كامل من منزلهم في إسرائيل إلى فلسـطين لالتقاء أحد هؤلاء المعاونين الذي أعدّ لهم قائمة: «هناك متعـاون فـي جنـاح المحكوميـن بالإعـدام، والـدة قُتـل ابنهـا بطلق ناري بسـبب رمـي الحجـارة، امـرأة أجهضـت عنـد أحد الحواجـز، مُزارع فقد أرضـه، مُعتقَـل تعـرّض للتعذيـب، أربع شـقيقات افتتحنَ معملاً للخياطة بعد تدمير منزلهنّ...»

يتقاضى المعاونون مئة دولار على الأقل في اليوم، ومن المحتمل أن يحصـل الأشـخاص الموجـودون علـى قوائمهـم علـى جـزء من هذا المبلـغ. فـي هـذه الحالـة، مـن يضمن أنهم لن يقولوا سـوى الأمور التي لقيـت قبـولاً مـن قِبـل فِـرق التصوير الغربية السـابقة؟ ومعظم المعاونين يعملـون لصالـح السـلطة الفلسـطينية فـي حياتهـم اليومية بحيث إنهم لن يكونوا متوافرين للمراسلين عندما يكونون بأمسّ الحاجة إليهم. فهؤلاء يشبهون مسؤولين ذوي مناصب رفيعة في الوزارات الهولندية تستضيفهم السي أن أن في وقت متأخر من الليل بعد وقوع كارثة محلية.

عندما عرفت في بادئ الأمر بوجود معاونين، اعتبرت الأمر مُخزياً. ولكن بعد محاولتي الاهتمام بكافة الأمور بمفردي لمرات قليلة، بدّلت نظرتي إلى الأمور. ففي العمل التلفزيوني، عليك التكيُّف مع كافة الظروف بأفضل طريقة ممكنة، وإن لسبب واحد وهو أن الجهات المتحاربة تقوم بذلـك أيضـاً. وأولئـك الذيـن يديرون شـؤون وسـائل الإعـلام على عِلم بقانـون المقـصّ ويدركـون أننـي أقـوم بمهمتي على أفضل وجه ما دمت أملك المواد المصوَّرة التي تعزز موقعهم في الميدان الإعلامي.

تزداد قدرتنا على التعاطي مع واقع الحال بسهولة أكبر مع ازدياد الضغوط علينا، وهو الأمر الذي خبرته على أرض الواقع عندما اضطررت للذهاب إلى رام الله مرة أخرى. كانت إسـرائيل قد قتلت قائد جماعة فلسـطينية، فثـأر أفـراد مـن تلـك المجموعـة لمقتـل قائدهـم بقتـل وزير إسـرائيلي. وطلبت إسـرائيل من القتلة الاستسـلام ولكن رئيس السـلطة الفلسـطينية آنـذاك، عرفـات، رفـض ذلـك. وهكـذا حاصـرت الدبابـات الإسـرائيلية مقـر قيـادة عرفـات، وكان لا يـزال باسـتطاعة فِـرق التصوير دخول المقر المحاصَر. فصرّح عرفات على ضوء الشموع قائلاً إنه لن يتراجـع فـي ظـل أي ضغـط وإنـه مسـتعد ليكون شـهيداً لو اضطُره الأمر

لذلك؛ صور معبّرة عرضتها باستمرار محطات إرسال تلفزيونية عربية.

استمر المأزق حتى بلوغ إسرائيل وعرفات تسوية يتم بموجبها سجن قادة المجموعة ولكن في سجن فلسطيني تحت رقابة بريطانية. فانسحبت الدبابات، وتباهى الناطقون الرسميون الفلسطينيون بالانتصار المحقَّق. «انتهى الحصار المُذلّ، وعرفات بطل قومي». بات هذا الشعار مادة في تقارير وكالات الأنباء لدرجة أن المعارضة في إسرائيل قالت: «انظروا كم أن حكومتنا غبية لقد جعلت من عرفات بطلاً قومياً».

وُضعت ردود الفعل هذه في تقارير وزّعتها وكالات الأنباء أيضاً على غرار الخبر الذي تناول جولة الانتصار عبر شوارع رام الله في ذلك الصباح حيث كان الفلسطينيون الظافرون على جوانب الطرقات وأطفال ينشدون: «بالروح بالدم نفديك يا عرفات». وأوردت السي أن أن والبي بي سي هذه المشاهد المصوَّرة متمَّمة بتصاريح الظفَر للناطقين الرسميين الفلسطينيين. كان محررِيّ في هيلفرسام قد رأوا هذه المشاهد وأعدّوا موضوعاً إخبارياً للمعالجة: فك الحصار- عرفات ينجو مرة أخرى. لقد بدت قصة صريحة، واستعجلتُ الذهاب إلى رام الله. لقد تمثلت الخطة بالحصول على بضع اقتباسات لفلسطينيين عاديين، والعودة من ثم إلى الاستوديو في القدس الغربية للتوليف.

ولكن أحداً في رام الله لم يشأ التحدث إلى الكاميرا، ولم أرَ أي احتفالات أو تظاهرات عفوية، وكان الجوّ هادئاً. فأجريت بضع اتصالات هاتفية، وتخليت عن عصيري المعتاد، وصحيفتي، والشيش كباب، وكل ما سمعته أوحى أن سكان رام الله العاديين لم يكونوا سعداء بأجمعهم أو فخورين بما حدث. كانوا خائبي الآمال لأنهم شعروا أن قائدهم رضخ مجدداً للمطالب الإسرائيلية. كانت جولة عرفات المعبّرة عن الانتصار كل ما التقطته الكاميرات إضافةً – ربما – إلى المئات من موظفي السلطة

الفلسطينية الذين لبّوا الدعوة في هذه المناسبة.

كوني مراسلاً لصحيفة، كان باستطاعتي تغطية القصة الأخرى في أوقات مماثلة، ولكن أين أجد الصور لأخبر تلك القصة على شاشات التلفزة؟ كان قد تم حجز مكان لبثّ تقريري المباشَر عبر الأقمار الاصطناعية في ذلك المساء، وأُنفقت آلاف اليوروات على فريق التصوير، وعلى ساعات من التوليف، والاتصال اللاسلكي. كنت في منافسة مع مراسلين آخرين، وكان باستطاعتي تخيّلهم يقولون: «لا يستطيع لوينديك ذاك التعاطي مع العمل الحقيقي، وهو يقول الآن إن السي أن أن أوردت خبراً غير صحيح». في النهاية، وضعتُ تقريراً محايداً قدر الإمكان على غرار سياسيٍّ لا يكذب بإخبار أمور غير صادقة، بل يلتزم الصمت حيال جزء بالغ الأهمية من الحقيقة.

الفَصْلُ التَاسِع

إنهم يقتلون يهوداً أبرياء

كانت الأراضي المقدسة عالماً جديداً، فقررت أن أكون شديد الحذر وموضوعياً على الدوام. كنت أعرف مدى تركيز مختلف أفراد المجتمع الهولندي على هذا الجانب أو ذاك، ومدى توق الجانبين المتقاتلين إلى التأثير في وسائل الإعلام، ومدى سرعة تأثر الإعلام التلفزيوني بصفة خاصة في هذا المجال.

لكن هل يمكن للمرء أن يكون موضوعياً؟ لم أقلق حيال الأمر مُسبَقاً للأسباب التالية: ألا تقول ثاني أكبر محطة إخبارية، فوكس نيوز، «نحن ننقل الخبر وأنتم تقررون»؟ ألم تروّج الجزيرة لاستراتيجيتها بالرأي والرأي الآخر؟ ألم تَعِد صحيفتي، أن أر سي، بـ «التفريق الواضح بين الوقائع والآراء»؟ أليس ذلك جوهر الصحافة النوعية، نقل الوقائع كما هي والعرض للخلاف كما يراه الفريقان المتنازعان لدى نقل آراء الناس؟ هكذا تَعرض لصورة موضوعية عن النزاع، كما أعتقد.

لكن سرعان ما ظهرت الشكوك التي نمت وازدادت في السنوات التالية. لقد بدأ الأمر مع اختياري للكلمات. ففي العالم العربي، كنت قد خبرت أسلوب المُوالين: المسلمون الذين يبنون توجّههم السياسي

على إيمانهم، هم أصوليون، في حين أن المرشح الرئاسي الأميركي المتمتع بالقناعات الدينية نفسها يوصف في معظم تقارير وسائل الإعلام الغربية بأنه إنجيلي أو شديد التديّن. وإذا فاز هذا الأميركي في الانتخابات، لا أحد يقول إن المسيحية تحقق خطوات إلى الأمام؛ ولكن عندما يشغل مسلمون يستلهمون تعاليم القرآن لممارسة سياساتهم أعلى مناصب الحكم، يعتبر العديد من المعلّقين الغربيين أن الإسلام يزحف. وإذا اصطدم قائد عربي بحكومة غربية، يُعتبر معادياً للغرب؛ لم تكن الحكومات الغربية أبداً معادية للعرب.

لقد جمعت بعض الأمثلة في القاهرة، ونمت القائمة بسرعة في الأراضي المقدسة: حماس معادية لإسرائيل؛ المستوطنون اليهود ليسوا معادين للفلسطينيين. والفلسطينيون الذين استخدموا العنف ضد المدنيين الإسرائيليين هم إرهابيون؛ والإسرائيليون الذين استخدموا العنف ضد الفلسطينيين هم صقور أو متشددون. والسياسيون الإسرائيليون الذين يسعون إلى حل سلمي هم حمائم؛ ونظراؤهم الفلسطينيون معتدلون، مما يعني في العمق أن كل الفلسطينيين متعصبون. ويمكنك ملاحظة ازدواجية المعايير بوضوح أكبر إذا قلبت الأمور: «أدت كلمة اليهودي المعتدل شيمون بيريز المناهضة للإسلاميين إلى اضطراب كبير بين الحمائم الفلسطينيين».

بهذه الطريقة، يمكن معاملتك بطريقة متحيّزة، وذلك من خلال نعت حالات مشابهة في المعسكرين المتنازعين بطريقة مختلفة. ولكن الأمر لا يتوقف في الأراضي المقدسة عند هذا النوع من «الاستخدام اللاتماثلي للكلمات».

ففي الأنظمة العربية، تكون هناك - عادةً - كلمة واحدة فقط لكل شيء لتبسيط الأمور. فالكل يدعون مصر بمصر، ولكن يمكن لإسرائيل

أن تدعى أيضاً الكيان الصهيوني أو فلسطين المحتلة. فهل المناطق موضع النـزاع أم الضفة الغربية لنهر الأردن، أو يهودا والسامرة، أو الأراضي الفلسطينية، هي محتلة، متنازَع عليها، أو محرَّرة؟ هل هي قرى يهودية، مستوطنات يهودية، أو مستوطنات يهودية غير قانونية؟ هل يُفترض بي التحدث عن اليهود، أو الصهاينة، أو الإسرائيليين؟ فليس كل الصهاينة يهوداً، أو كل اليهود إسرائيليين، أو كل الإسرائيليين يهوداً. هل هم عرب، فلسطينيون، أم مسلمون؟ فليس كل العرب فلسطينيين، أو كل الفلسطينيين مسلمين، أو كل المسلمين فلسطينيين.

لقد تمثلت المشكلة الأولى في الأراضي المقدسة بما يلي: إذا أردتَ أن تكون موضوعياً، عليك استخدام تعابير محايدة. فلا يمكنك تعداد كل التعابير: «اليوم في رام الله، في الأراضي المحتلة أو المتنازَع عليها أو المحرّرة من الضفة الغربية من نهر الأردن أو السامرة، قُتل أو ذُبح فلسطينيان أو مسلمان أو عربيان وافدان جديدان أو إرهابيان أو مقاتلان في سبيل الحرية على أيدي جنود إسرائيليين أو قوات الدفاع الإسرائيلية أو جنود احتلال صهاينة...»

عندما كنت أغطي العالم العربي فقط وأتابع الأراضي المقدسة من خلال وسائل الإعلام، لاحظت وجود أكثر من كلمة واحدة لكل معنى. لقد اعتبرته تقليداً محلياً، موضوعاً جيداً لقسم الثقافة: هل يتناقشون حتى في شأن هذا الأمر؟ ولكنني أدركت بعد أن علقت وسط كل ذلك أنه الأمر الذي يتناقشون حوله بالتحديد. فهذه الكلمات تشكل وجهة نظر إذا ما استُخدمت معاً، وهناك عدة كلمات بسبب وجود وجهات نظر عديدة.

كان هناك أمر آخر يجعل من الأراضي المقدسة عالماً جديداً؛

يمكنك العمل هناك كمراسل ومراقبة كل وجهات النظر. فإسرائيل دولة ديمقراطية تتمتع بكامل حرية التعبير. أنا لا أتكلم العبرية ولكن هناك صحف إنكليزية، وبعض البرامج التلفزيونية الإسرائيلية مترجمة إلى العربية أحياناً، في نهاية اليوم، إنه بلد اللغة الثانية. بدَورهم، يعيش الفلسطينيون في كنف مزيج ملحوظ من الاحتلال الإسرائيلي غير المباشَر والقمعية الجزئية للسلطة الفلسطينية. فللسلطة وزراء، وشرطة، وقوى أمنية، وتتمتع بسلطة محدودة في عدد قليل من الجيوب. إن الأمر بالنسبة إلى الفلسطينيين هو مزيج لنوعين من القمع يختلف بين جَيب وآخر، ولكن هناك فسحة كبيرة من الحرية تمكّن الفلسطينيين من التعبير عن آرائهم، ولقد استفدتُ من ذلك لأنني كنت أملك وقتاً كافياً من دون الحاجة إلى مترجم.

بهذه الطريقة، تمكنت من اختيار وجهات نظر مختلفة وقارنت في ما بينها، وسرعان ما أُصبت بالإحراج بسبب فكرتي السابقة عن النزاع بين إسرائيل والفلسطينيين المتمثلة بوجود مؤيدين للسلام ومناوئين للسلام؛ وكان السؤال الأكثر إثارة، من سيفوز؟

بعد تحدثي إلى مناوئي السلام أولئك، لم يقل أحد منهم: «السلام؟ هل أنت مجنون؟ نحن لا نريده». فهؤلاء الأشخاص يحلمون أيضاً بنهاية للنزاع؛ لديهم أفكار مختلفة فحسب حول طريقة إحلال السلام، ولكنهم يعتقدون أنه من غير الممكن التوصل إلى اتفاق سلام.

«يمكن للسلام أن يستمر إذا كان هناك سلام عادل»، قال أشخاص من حماس والجهاد الإسلامي. تعني كلمة عادل أن يكون باستطاعة كل اللاجئين الفلسطينيين العودة إلى منازلهم التي فرّوا أو طُردوا منها عندما تأسست دولة إسرائيل. وتقول حماس إن إسرائيل ليست دولة بل مؤسسة زائفة؛ إنها كيان صهيوني، وستؤدي عملية السلام إلى قيام

محمية عاجزة، وبعد ذلك، ينسى الفلسطينيون قضيتهم وتتولى إسرائيل مهمة القضاء عليهم بتكتم. لذلك، لا تتحدث حماس عن عملية للسلام بل عن عملية للاستسلام.

عندما تستخدم حماس والجهاد عبارة عملية السلام، فهما تضعانها بين علامتَي اقتباس. إنه ميل تتشاطرانه مع الإسرائيليين اليمينيين؛ بالرغم من أنه تشبيه مرفوض من قِبَل هؤلاء. ووفقاً لليكود، إن عملية السلام خطأ مميت يرتكبه الإسرائيليون. فالعرب سيستمرون بالقتال حتى تدمير الدولة اليهودية. ويتحدث بعض المنتمين إلى الليكود عن عملية التجزئة بدلاً من عملية السلام: ستنتقل إسرائيل جزءاً تِلو الآخر إلى أعدائها.

قد يكون المستوطنون اليهود الأصوليون المناوئون هم الأكثر ضراوة في مناهضة عملية السلام. هم يعتقدون أن الله منحهم أرض الميعاد وليس إسرائيل فقط بل غزة أيضاً، والقدس الشرقية، ويهودا والسامرة - الضفة الغربية لنهر الأردن. فهذه الأماكن ليست محتلَّة بل محرَّرة، ووفقاً للمستوطنين اليهود الأصوليين، إن عملية سلام تحوّل متراً مربعاً واحداً من الأرض للوافدين العرب الجدد لن تحمل السلام بل غضب الله. فكل شيء مُباح بهدف الحؤول دون ذلك؛ وحتى رفع شعار الموت لرئيس الوزراء، كما أثبت المستوطن إيغار عمير عام 1995 عندما اغتال إسحق رابين.

إنه الواقع المُربك الكامن وراء المفهوم المبسَّط لمناوئي السلام. وكلما أطلت العمل على ذلك، صادفتُ المزيد من وجهات النظر. فالمسيحيون الأصوليون الذين يبلغ عددهم 30 مليون شخص في أميركا يعتقدون أن نهاية الزمن ستحلّ عندما تغدو الضفة الغربية مقطونةً من قِبل اليهود بشكل حصري. ويناضل الجناح الملحد في عملية السلام الفلسطينية-الإسرائيلية في سبيل الحصول على دولة واحدة لليهود

والمسـلمين والمسـيحيين. ويريـد القوميـون العـرب دولـة عربيـة متحدة واحـدة للمسـلمين العـرب والمسـيحيين واليهود تغطـي المنطقة الممتدة بين العراق والمغرب. ويحلم مؤيّدو إسرائيل الكبرى بدولة يهودية تمتد مـن دِجلـة فـي العـراق حتـى النيل في مصر. وهناك يهود شـاس المُغالي فـي المنـاداة بصحـة معتقَـده، وهـو ثالث أكبر حـزب في البلاد، ويرفض الخدمة العسكرية معتبِراً الهولوكوست عقاباً إلهياً بسبب استيعاب اليهود الأوروبيين.

فـي العالـم العربـي، كان يتعيّـن علـيّ التحـرّز باسـتمرار فـي شـأن معتقـدات وآراء النـاس والأحـزاب السياسـية - الأمـور المجهولـة علـى برنامج عمل أي نظام من هذه الطينة. وفي حالة إسرائيل والفلسطينيين، وقعتُ على سبعة أو ثمانية برامج عمل على الأقل متمَّمة بلوائح تفسيرية، وتـراوح عملـي بيـن التحـرّز والغـرق في يمّ مـن المعلومات. فبعد وقوع إحـدى الهجمـات، أو الإعـلان عـن إقامـة مسـتوطنة جديدة، أو حدوث اختـراق دبلوماسـي، كيـف يكـون باسـتطاعتك وضـع لائحـة بردود فعل اليهود، والمسـيحيين، والأصوليين الإسـلاميين، والحكومة الإسـرائيلية، والسـلطة الفلسـطينية، واليهـود المُغاليـن فـي المنـاداة بصحـة معتقَدهم، والجناح الملحد في عملية السلام؟

كان أمـراً مسـتحيلاً، ولـم يتوقـف الأمـر عنـد هـذا الحـد، هـو أمر لاحظتـه بعـد أن قضيـت بضـع أمسـيات أتنقّـل بين القنـوات التلفزيونية. فهناك مواضيع استفاضت بعض المحطات التلفزيونية في العرض لها، في حين أنها لم تُذكر في قنوات أخرى أم أنه تم العرض لها بطريقة مختلفة كلّياً. فقد يكون لهجوم وقع في إسرائيل العنوان الرئيسي التالي، «البلد برمّته مصدوم بسبب مجازر قتلت ثمانية أشخاص»، تليه مشاهد مروِّعة

لأنسباء مذهولين وناطق رسمي غاضب بحكم وظيفته: «إنهم يقتلون يهوداً أبرياء!» ولكن يمكنك أيضاً ذِكر هذا الحادث في موجز نشرة الأخبار: «اليوم، انفجرت معارضة الاحتلال الإسرائيلي مما أدى إلى مقتل ثمانية إسرائيليين في تل أبيب». وعندما تعلن الحكومة الإسرائيلية عن بناء مستوطنات جديدة، يمكن تغطية الخبر بشكل عملي من خلال العرض لخارطة للمنطقة تُظهر الموقع بخطوط متوازية ومتقاطعة، وعلى الأكثر، من خلال العرض لتصريح مثل، «اعتبرت السلطةُ الفلسطينية التوسّعَ هجوماً جديداً على عملية السلام». يمكنك أيضاً الاستفاضة في هذا الموضوع من خلال إجراء مقابلات مع فلسطينيين مذهولين تم الاستيلاء على أرضهم، وناطق رسمي غاضب بحكم وظيفته يقول: «كيف يمكن لإسرائيل مبادلة الأرض بالسلام إذا كانت ستملأ تلك الأرض بالمستوطنين وحيث يمكن لليهود فقط أن يُقيموا؟»

في الأساس، يمكن رواية قصص مختلفة عن الأحداث نفسها. وكان على وسائل الإعلام الغربية الاختيار بينها، مفضّلةً الآراء والمواضيع المتعلقة بالجانبين المتفاوضين اللذين هيمنا على الأخبار ووُضعت مواقفهما أحدها إزاء الآخر: «وفقاً للحكومة الإسرائيلية، يُثبت الهجوم مرة أخرى أن الفلسطينيين لا يريدون السلام. وتقول السلطة إن الاحتلال هو المشكلة».

هكذا فهمت وسائل الإعلام الدولية كل ذلك، وأفهمت المشاهدين والقراء والمستمعين. لكن هذه النظرة الضيّقة تسببت بمشكلة جديدة؛ مشكلة الموضوعية. باستطاعتك قطع وعد بتقديم «الوقائع ليس إلا»، ولكن أي وقائع؟ يمكنك السعي للفت الانتباه إلى وجهَي القصة، لكن ماذا لو كان هناك أكثر من وجهَين لتلك القصة؟ بعد ذلك، تبقى لديك مشكلة اختيار المفردات المناسبة حتى وإن وضعت فريقَين فقط تحت

المجهر. كانت القصة الحدث آنذاك إخراج عملية السلام عن مسارها، فقال الناطقون الرسميون بلسان السلطة الفلسطينية: «تقضي عملية السلام بمبادلة الأرض بالسلام. لذلك، نحن نطالب بتفكيك المستوطنات اليهودية غير القانونية وإعادة المناطق المحتلة. كيف يمكن لإسرائيل التفاوض على أرض لا تملكها؟»

قال الناطقون الرسميون الإسرائيليون: «تقضي عملية السلام بمبادلة الأرض بالسلام. هذا ما نتفاوض لأجله أي مقابل تنازلات فلسطينية، تتنازل إسرائيل عن جزء من الأراضي المتنازَع عليها، في حين تبقى مستوطنات يهودية أخرى في عهدتنا. تتطلب المفاوضات على الدوام تنازلات متبادَلة». لقد بدا الموقفان منطقيَّين، ولكن هذا الجانب أو ذاك يخرج بنتيجة أفضل وفقاً للتعابير المستخدَمة من قِبَل وسائل الإعلام.

لو أردتَ وضع تقارير عن الوضع بطريقة موضوعية لواجهتَ مزيداً من المشاكل. وتتناول الحرب الإعلامية أيضاً الاقتراع القائم على التعاطف. فالجمهور يتعاطف عادةً مع القوة الأضعف، وهكذا يسعى الجانبان إلى الظهور بمظهر المستضعَف، ويحاولان الاستفادة قدر المستطاع على شاشة التلفاز من القتلى والجرحى الذين سقطوا في صفوفهما، مظهرَين الخصم بأسوأ صورة ممكنة. فالأمر منطقي، ولكنها مشكلة جديدة بالنسبة إلى المراسل الذي يريد إظهار أكبر قدر من الموضوعية. ماذا لو كان أحد الجانبين قادراً على إظهار معاناته بطريقة أفضل من الآخر؟ لقد واجهت هذه المشكلة على الفور في رحلتي الأولى إلى الأراضي المقدسة، ولم أدرك ما مررت به إلا لاحقاً.

حدث ذلك في أثناء وجودي في الأراضي المقدسة للمرة الأولى عندما جعلني الفلسطينيون الذين ارتكبوا عملية الإعدام في رام الله أهرع

إلى المكان مع مئات الزملاء من مختلف أنحاء العالم. وعندما وصلت، كان عليّ التوجه إلى مركز الصحافة المتطور في إسروتل للحصول على بطاقتي الصحافية. وكانت تنتظرني هناك نسخة مُعدّة سلَفاً عن الأحداث: تحوّل هؤلاء الشخصَين إلى أشلاء على أيدي عصابات مهتاجة. انظروا إلى ذلك النوع من الكره الأعمى الذي يتعيّن على إسرائيل الدفاع عن نفسها منه. كل شيء - الصور، الاقتباسات الملائمة، ملفات المعلومات - كان مُعَدّاً لإبلاغ الرسالة نفسها: «إنهم يقتلون يهوداً أبرياء؛ تتمثل المشكلة بالكره والإرهاب الفلسطينيّين».

بعد ذلك، توجهت إلى رام الله حيث لم يكن هناك أي مركز للصحافة، ولم يكن الصحفيون بحاجة إلى تأكيد حضورهم. وإذا اتصلتَ بوزارة الإعلام لا تتلقى أي إجابة أم أنَّك تحصل على إشارة خط هاتف مشغول بعد طول انتظار. كان الجنديان المعدومان من قوات الاحتياط. ماذا كان يفعل جنديان من أفضل الجيوش تدريباً في العالم في وسط المدينة التي تشهد انتفاضة؟ قد تظن أنه يُفترض بالصحفيين أخذ وقتهم لاكتشاف الأمر. ولكن الأنباء ترد بسرعة كبيرة، وإذا لم تكن تملك نسخة فلسطينية جاهزة عن الأحداث، فإن النسخة الإسرائيلية هي التي تهيمن.

كانت الحكومة الإسرائيلية أفضل تجهيزاً من السلطة الفلسطينية لخوض حرب إعلامية. وعندما رأيت كيفية قيام الحكومة الإسرائيلية بالتعاطي مع الكوارث من خلال علاقاتها العامة، فهمت كيفية تأثير ذلك الفارق في طريقة وضع التقارير.

في المقابل، كانت تظهر من حين لآخر مشاهد نساء وأطفال فلسطينيين قتلتهم رصاصات إسرائيلية. ووفقاً للفلسطينيين، تصف هذه

المشاهد جوهر النزاع: الاحتلال هو المشكلة، وانظروا إلى العنف الأعمى الذي يستخدمه الجيش الإسرائيلي ضد مدنيين فلسطينيين أبرياء لمواصلة الاحتلال.

مع ذلك، وبدلاً من انتظار هبوب عاصفة الدعاية القاسية (كما تقول السلطة الفلسطينية أحياناً)، تشن الحكومة الإسرائيلية هجوماً مضاداً. فيظهر إسرائيليون بارزون على الفور على القنوات التلفزيونية الغربية وعلى صفحات الرأي ليعلنوا أنهم يشعرون بالخجل من بلدهم، وأنه يجب البحث بالعمق في شأن هذه الوصمة على جبين الدولة اليهودية. يعبّر مسؤولو جهاز العلاقات العامة عن أسفهم، مشدّدين على أن إسرائيل لن تتعمّد أبداً قتل أطفال أو نساء أو مواطنين مسنّين أبرياء، فما الذي ستجنيه الدولة اليهودية من ذلك؟ وغالباً ما يتساءل الناطق الرسمي نفسه عما إذا مات الضحايا بسبب رصاصات إسرائيلية حقاً... فيتم التحقق من ذلك بعناية، مما يتطلب مزيداً من الوقت. بعد ذلك، يشرح الأشخاص أنفسهم مدى غرابة أعمال العنف هذه في «الأراضي المتنازَع عليها» وصِغَر المناطق التي حدثت فيها هذه المأساة. فالإرهابيون يختبئون عمداً في مناطق سكنية أملاً في أن تقوم إسرائيل بقتل مدنيين فلسطينيين بشكل عرَضي، وهكذا فإن تركيز وسائل الإعلام انتباهها على هذه المأساة يعود بالفائدة على الإرهابيين.

هكذا حاولت الحكومة الإسرائيلية التقليل من الأضرار: إبقاء الاحتلال بعيداً عن الأضواء، النأي بأنفسهم عن الأحداث، عزل هذه الأحداث من خلال وصفها أنها نادرة الحدوث، إثارة الشكوك حول الوقائع، وإلقاء اللوم على الجانب الآخر... كان عليّ رؤية هذا الأمر مرات قليلة قبل أن أدرك مدى ضعف الفلسطينيين في معالجة حادثة إعدام مجنّدَي الاحتياط الإسرائيليَّين من خلال العلاقات العامة. تخيّل

وجود ماكينة علاقات عامة فلسطينية احترافية كما هو الحال في إسرائيل، وسياسيين فلسطينيين يتمتعون بالشعبية في الغرب، وناشطين في ميدان حقوق الإنسان أو كتّاب يعبّرون على الفور عن مخاوفهم وتعاطفهم مع الأنسباء على السي أن أن أو على صفحات الرأي الأميركية. كان باستطاعة الناطقين الرسميين القيام على الفور بشرح ما حدث في الأيام الثلاثة الأخيرة - العثور في اليوم السابق لعملية الإعدام على جثة شاب فلسطيني مشوَّهة في مستوطنة يهودية مجاورة - كانت ضحية هذا الاحتلال الإسرائيلي قد حُملت على مناكب حشود غفيرة إلى مثواها الأخير (بعيداً عن الكاميرات في رام الله) عندما سرت شائعة عن قيام مغوارَين إسرائيليَّين بدفع المشيّعين إلى داخل المدينة لارتكاب مجزرة جديدة؛ وكان الناس ممتلئين غضباً لأن إسرائيل أقدمت في الأسابيع السابقة على قتل أكثر من خمسين مدنياً. كان باستطاعة الناطقين الرسميين التشديد على أن لا شيء يمكنه تبرير هذه الوحشية؛ ما الذي تجنيه السلطة الفلسطينية من عملية الإعدام هذه؟ ولم يكن الفلسطينيون يريدون الحصول سوى على ما خُوِّلوا الحصول عليه وفقاً للأمم المتحدة والقانون الدولي: دولتهم الخاصة، وإنهاء أكثر من ثلاثة عقود من الاحتلال الإسرائيلي.

كان باستطاعة الحكومات الإسرائيلية معالجة الموضوع على هذا النحو، لكن السلطة الفلسطينية لم تقم بذلك أبداً. فما قاموا به بعد ذلك هو مصادرة كل مشاهد الإعدام على الفور؛ وهو أمر استجابت له كل فِرق التصوير العربية. وتمكّن مراسل إيطالي من إرسال المشاهد إلى الخارج مما عرّضه لمضايقة السلطة وتهديداتها طوال أسابيع.

قبل انتقالي إلى الأراضي المقدسة، سمعت عن اللوبي الإسرائيلي.

وفهمت أن باستطاعة الحكومة الإسرائيلية تحمّل تكلفة أغلى المحامين ووكالات العلاقات العامة في أوروبا وأميركا أجراً، وباستطاعتها الاعتماد على آلاف المؤيّدين المثقفين جداً، وجماعات الضغط، والفروع المحلية لحزبَي الليكود والعمل، والمنظمات الصهيونية العالمية، والمؤسسات الصهيونية الأصغر حجماً. وهناك معابد يهودية ناشطة ومجموعة من الحركات المسيحية الأصولية التي تؤثّر إلى حد كبير في وسائل الإعلام المحافظة في أميركا.

بالرغم من ذلك، لم أدرك حينذاك مدى تقدّم السياسة الإعلامية الإسرائيلية. فقد كان السفراء الإسرائيليون وأعضاء جماعات الضغط يزورون أيضاً محررين ومنتجين في الشبكات التلفزيونية، ومحطات الأخبار التلفزيونية التي تنقل برامجها عبر الكابل، والصحف اليومية والأسبوعية الرئيسية في العديد من الدول الغربية، وكانت النوادي الأصولية التابعة ليهود ومسيحيين مؤيّدين لإسرائيل في أميركا تدعو مراسلين ومعلّقين جيّدين لإلقاء محاضرات لقاء أجور مرتفعة. في البلد نفسه، يقوم موظفو موساد سابقون بإنشاء مركز إعلامي يتهم الصحافة الفلسطينية والعربية بشن حملة إعلامية معادية للساميّة، ولأميركا، وللغرب. وتُنقل تقاريرهم حرفياً في الصحافة الهولندية بانتظام؛ في العواميد، والمقالات، والشؤون البرلمانية، دون ذكر المصدر أحياناً.

أخبرني مصنّع مشروبات غير كحولية ذات مرة أنه أجرى تحليلاً عن التفاوت في إسرائيل. لقد كانت طريقة تسويقية لقياس التفاوت بين قيمة منتَج ما بصورة عامة وسلعتك بصفة خاصة. أولاً: هل تحب المشروبات الغازِيَّة؟ ثانياً: هل تحب البيبسي؟ فكل من يُجيب بنعم عن السؤال الأول وبلا عن السؤال الثاني يكون سريع التأثر بحملة إعلانية. وأخبرني رجل الأعمال بأن لائحة زبائن الشركة التي تُعنى بالأبحاث التسويقية

تتضمن زبوناً حريصاً على البقاء مجهول الهوية. وبعد الإصرار، عرف من هو: كان جهاز العلاقات العامة الإسرائيلي قد كلّف مجموعته الخاصة ومجموعات معيّنة في الغرب بإجراء تحاليل عن التفاوت. كانت الأسئلة المطروحة، ما رأيك بدولة إسرائيل؟ ما رأيك بهذه الحكومة بالتحديد؟ واستُخدمت النتائج في الحملات - على سبيل المثال - لدعوة أعضاء مختارين من البرلمان، رؤساء تحرير، محررين، معلّقين، أعضاء في نقابة العمال، أو قادة طلابيين، لزيارة إسرائيل.

هكذا كانت تسير الأمور، وأعطى الاستثمار النتائج المرجوّة. وأعلنت وكالة الأنباء الفلسطينية، وفا - ووكالات أنباء أخرى - ذات مرة أن الطائرات الإسرائيلية تُلقي حلويات مسمَّمة من الجو. لم تقدّم الوكالة أي دليل، وانطلقت ماكينة العلاقات العامة الإسرائيلية بسرعة مذهلة. ولم ترسَل للمراسلين فحسب سجلات سوداء تُظهر أن هذا النوع من الدعاية بعيداً كل البعد عن المألوف، بل لأعضاء من البرلمان الهولندي أيضاً، ولمحررين ولصحفيين. وكانت هناك تحذيرات فلسطينية رسمية بقيام الجيش الإسرائيلي باستخدام يورانيوم مستنفَد، وغازات سامة، ومواد مُشعّة؛ وبثّ التلفزيون الفلسطيني خُطباً دينية قورن فيها اليهود بالسعادين والخنازير؛ وتضمنت الكتب المدرسية الفلسطينية فقرات معادية لإسرائيل.

كان يتعيّن على الحكومة الإسرائيلية جمع هذه المواد من قَبل وانتظار الوقت الملائم لاستخدامها. وكان الخبر الذي نشرته وفا عن الحلويات المسمَّمة مثالياً؛ لقد كان بالنسبة إلى الصحفيين، والمحررين، وأعضاء البرلمان، أساساً يستندون إليه لا لذكر هذا المثال عن التحريض فحسب، بل للاستنتاج منه أيضاً؛ كيفية تعليم الفلسطينيين الكره لإسرائيل.

كان عمـلاً احترافيـاً وشـديد الفعاليـة. ولكـن عدداً قليلاً من الكتب المدرسية الإسرائيلية يتجنب ذكر واقع أن الفلسطينيين يعيشون هناك قبل تأسيس دولة إسرائيل، ويريد بعض الحاخامات إحراق مسجد الأقصى، ووصف جنرالات إسـرائيليون الفلسـطينيين بأنهم ورم سـرطاني، ونادى الحزب اليهودي المُغالي بصحة معتقَده بإبادة العرب. كانت هناك مواد إخباريـة كافيـة لحملـة طويلـة الأمـد يمكـن من خلالهـا ربط ملاحظات تحريضيـة مماثلـة بأسـئلة مثـل، «ألهـذا السـبب قتل جنودهـم العديد من الفلسطينيين؟» و«هل تريد إسرائيل السلام حقاً؟»

لكـن السـلطة الفلسـطينية لـم تُصـدر أي لوائـح سـوداء. وقد يضع المراسلون بين حين وآخر تقارير عن الحملة الدعائية الإسرائيلية، ولكن هـذه التقاريـر تبقـى هامشـية. والحرب الإعلاميـة قائمة على القدرة على تسـويق الأفـكار؛ إن مـدى تمكّنـك مـن إيصال رسـالتك إلى المجموعة المعنيّة هو بأهمية الرسالة عينها.

كانت الحكومة الإسـرائيلية أفضل بكثير في ممارسـة اللعبة. ففي أثنـاء الانتفاضـة الثانيـة، كان هنـاك تنـاوب بيـن العنف وفتـرات الهدوء. وخرقـت حمـاس وقـف إطـلاق النـار لمـرات قليلة، ولكـن كانت هناك أسابيع من وقف إطلاق النار حتى قامت إسرائيل بتصفية فلسطيني على درجـة عاليـة مـن الأهميـة. وسـرعان ما يلـي عمليةَ قتل مماثلة فَيضٌ من النشرات الإعلامية حول الحذر المتزايد والتدابير الأمنية الإضافية. كان الأمر ينجح أحياناً، وتورد النشرات الإخبارية عبارة «خوف إسرائيل بعد عملية التصفية» بدلاً من «الاغتيال الإسـرائيلي يضع حداً لوقف إطلاق النار».

كان شمعون بيريز المتمتع بشعبية كبيرة يقوم أحياناً بجولة إعلامية.

فلم يكن يلتقي المراسلين الهولنديين الأحد عشر في إسرائيل بل ينتقل إلـى هولنـدا حيـث يُجـري محـررون محليون المقابلات معه من دون أن يكـون لديهـم الكثيـر مـن الأسـئلة الصعبـة لطرحها عليه. كانت الأسـئلة الاسـتطرادية التـي تحمـل طابعـاً انتقاديـاً مسـتحيلة بأي حـال لأنه يعطي عشر دقائق فقط لكل وسيلة إعلامية.

في بداية الانتفاضة الثانية، غالباً ما كان الجيش الإسـرائيلي يوجه أسلحته إلى قاذفي الحجارة مستهدفاً المنطقة الواقعة فوق الخصر. فقُتل عشرات الأطفال، وجُرح المئات. تمكن أحد العاملين في جهاز العلاقات العامة الإسرائيلية من الإجابة عن السؤال «بأي حق تستخدم إسرائيل هذا القدْر من العنف ضد قاذفي حجارة مراهقين يعبّرون عن احتجاجهم على الاحتلال؟» بسؤال آخر «لماذا يعرّض الأهالي الفلسطينيون أبناءهم لهذا الخطر؟» وكانت الإجابة موجودة في السجل الأسود: هم يكرهوننا؛ انظر إلى ما بلغوا إليه بسبب التحريض.

***

غالباً ما يتذمّر الفلسطينيون من وسائل الإعلام الغربية، وقد تمكنت من فهم السـبب في نهاية المطاف. ولكنني كنت أرى سـبباً مختلفاً عن السـبب الـذي يعتبرونـه صائبـاً فـي شـأن تحريـف الحقائـق. فالعديد من الفلسطينيين يشتبهون بمؤامرة يهودية؛ قوى إجرامية تسيطر على وسائل الإعلام وراء الكواليس. لقد دخلنا في نقاشات محمومة حول هذا الأمر من دون أن أتمكن على الدوام من الخروج منها بدُعابة على سبيل المثال، من خلال النظر إلى ساعتي والقول، «هل يمكنني إجراء اتصال هاتفي؟ إن مديري السري في إسرائيل سيُملي عليّ مقالة الغد».

لـم يكـن باسـتطاعتي رؤيـة أي مؤامـرة؛ كان الأمـر أشـبه بعدد من الأوراق الرابحـة التـي لعبتهـا الحكومـة الإسـرائيلية. فهـذه الأخيـرة لا

تملك مزيداً من الموارد فحسب، بل تستفيد أيضاً من واقع أن الغربي العادي، أيّاً تكن ميوله السياسية، يتعاطف مع إسرائيل أكثر من سواه. لم يكن هذا الأمر مرتبطاً بواقع أن إسرائيل هي دولة يهودية بل دولة غربية. فإسرائيل تنتج منشورات أدبية غربية وأفلام، ولديها موسيقيون كلاسيكيون شهيرون، وتشارك في مباريات دَوري أبطال أوروبا في كرة القدم، وتنضم إلى مباراة الأغنية التي تنظمها يوروفيجن. ويبدو الأوروبيون المحليون أقرب إلى الإسرائيليين منهم إلى الفلسطينيين، ولهذا السبب يسهل فهم المعاناة الإسرائيلية. وغالباً ما تُبرز صفحة الرأي في ذي نيويورك تايمز مقالات تتناول مستوطنين يهوداً يعيشون في ظل الإرهاب. «الجميع يتّبعون حِمية هنا لأن وزنهم هو الأمر الوحيد الذي يمكننا التحكم به»، كتب أحد المستوطنين. وهذا النوع من التلميحات يعرفه القراء الغربيون الذين يتّبعون حِمية أيضاً من وقت لآخر.

أظهر الفلسطينيون معاناتهم بطرق أخرى. لقد طلبت منظمة إغاثة في غزة من الفلسطينيين والمغتربين الغربيين أن يختاروا لها صوراً فوتوغرافية ترمز إلى الانتفاضة. فاختار الغربيون أمهات في ملابس حداد، وأطفالاً يبكون، وممتلكات مدمَّرة؛ واختار الفلسطينيون رجالاً في مسيرة مُطبقين قبضات أيديهم. غالباً ما كنت أغطي التظاهرات الفلسطينية التي كانت كارثية لجهة تناولها من قِبَل قسم العلاقات العامة: والد يصرخ بغضب، «هل هذا عدل؟ هل هذا عدل؟ كانت ابنتي في الحادية عشرة من عمرها! هل هذا عدل؟» - والجثة مرفوعة عالياً، وهناك طلقات نارية في الهواء، ويعلو الصياح...

أما الإسرائيليون اليهود فيدفنون موتاهم عادةً من خلال ممارسة شعائرهم الدينية بهدوء بمرافقة المشيّعين المنتحبين وقيام أحد أفراد العائلة بتأبين المتوفي برباطة جأش. فالغربيون يفهمون هذه المشاهد.

ولكن كيف يكون باستطاعة المراسلين إظهار الأسى الكامن وراء حالة الفوضى الهستيرية التي غالباً ما ترافق مآتم الفلسطينيين؟ فالعرب يعبّرون عن أساهم في منازلهم بعيداً عن الكاميرات.

تملك إسرائيل ورقة رابحة أخرى، وقد لاحظت الأمر عندما كنت عائداً إلى المنزل وأناقش الوضع مع الزملاء. كنت أريد على الدوام الدفاع عن إسرائيل في أثناء هذه المناقشات معتمداً كلمة واحدة: الهولوكوست. فيفهم معظم الاشخاص على الفور وإلا أضفت جملتَين تفسيريتَين، «طيلة أكثر من ألفَي عام، تعرّض اليهود للتمييز في المعاملة والاضطهاد، وارتكب غير اليهود المجازر في حقهم وانتهى بهم الأمر في غرف الغاز. من الواضح أنه لا يمكن للشعب اليهودي أن يكون بأمان إلا عندما تكون لهم دولتهم الخاصة بهم، وهل هناك مكان منطقي أكثر من المكان الذي كان بمثابة دولة يهودية منذ أكثر من ألفَي عام، وفقاً للتوراة؟»

كنت أحاول بعد ذلك شرح وجهة النظر الفلسطينية، ولكن عشر جُمل لم تكن كافية أبداً. لم يكن الهولوكوست أمراً أساسياً بالنسبة إليهم بل التدخل الغربي في منطقتهم منذ قرون طويلة. لقد بدأ الأمر مع الحروب الصليبية، وتلا الاستعمار ذلك، وتُمِّم بإنشاء دولة غربية وغريبة - إسرائيل - في قلب العالم العربي وعلى حساب الشعب الذي كان مقيماً هناك.

فالفلسطينيون يواجهون عقبة عدم حضور الحروب الصليبية والاستعمار - في الوعي الجماعي الغربي - كما هو حال الهولوكوست، وأدركت أنه ليس باستطاعتي نقل وجهة النظر الفلسطينية إلا بقلب الأمور. تخيّل أحمق يغدو رئيساً لأميركا فيجمع ويقتل المتحدرين من

أصـل فريـزي [فريزيـا هـي مقاطعة في هولنـدا تتمتع بحكم ذاتي جزئي، وتملك لغتها الخاصة]، فتقع مجزرة لا يمكن تخيّلها. بعد ذلك، وعندما يسقط أخيراً النظام المعادي للفريزيين، من الواضح أن يكون الفريزيون الناجون غير راغبين في العيش في أميركا. فتوضع خطة لمنح الفريزيين دولتهـم الخاصـة، وهـل هنـاك أفضـل، من الناحيـة المنطقية، من المكان الذي كان فريزياً في ما مضى وفقاً لوثائق قديمة. وبالرغم من المعارضة الهولندية، يقترع مجلس الأمن لصالح تنفيذ المخطط، ويتوافد الناس من أصل فريزي من مختلف أنحاء العالم إلى الدولة الفريزية الجديدة التي تُغدق عليها أميركا المساعدات المالية. فاعترض باقي الشعب الهولندي، قائلين إنه لم يكن لديهم أبداً أي مشكلة مع الفريزيين. ولم يكن الرأي العام العالمي يُظهر تعاطفاً وطيداً مع الفريزيين، لذلك تمّ التقدم باقتراح: سـيصبح نصف البلد فريزياً، وباسـتطاعة الهولنديين العيش في النصف الآخر.

فـلا يوافـق الهولنديـون علـى ذلـك، وتقع حرب يكـون النصر فيها للفريزيين بمسـاعدة أميركية ويسـقط القسـم الأكبر من هولندا في أيدي الفريزييـن. ويتدفـق مئـات آلاف اللاجئيـن غيـر الفريزييـن إلـى المـدن الهولنديـة الرئيسـية، وتـزداد حـدة التوتر بسـبب قيـام مجموعات صغيرة مـن الهولندييـن بشـن حـرب عصابات ضـد الفريزيين. ويصرخ الناطقون بلسان الفريزيين إرهاب على شاشة السي أن أن و«إنهم يقتلون فريزيين أبرياء!»

في غضون ذلك، يبدأ الشعب الهولندي بالتساؤل عن أي نوع من القادة هم قادتهم. ويلي ذلك انقلاب عسـكري، وعندما تحاول هولندا الحصول على أسلحة من الخارج، تقوم الدولة الفريزية الفتيّة بالسيطرة على ما تبقى من هولندا إضافةً إلى أجزاء من ألمانيا وبلجيكا في هجوم

وقائي. وتفرّ حشود من الشعب الهولندي غير الفريزي عبر الحدود إلى ألمانيا وبلجيكا حيث تتالت الضربات الموجَّهة إليهم: «علينا منع الفريزيين من احتلال بلدنا». في غضون ذلك، يُحكم الجيش الفريزي قبضته على المقاطعات الهولندية المحتلة، ويخنق الاقتصاد، ويصادر المناطق الأكثر جمالاً لإقامة المستوطنات عليها ويشّق طرقات خاصة بين المستوطنات وفريزيا. ويلي ذلك عملية سلام، ويُعرَض على هولندا ثلاث مقاطعات من أصل اثنتي عشرة مقاطعة هولندية: ليمبرغ، جزء من برابنت، وإحدى الجزر الزيلندية. ولا يمكن دعوة هذه الأجزاء المعزولة هولندا، ولا يُسمح لهولندا بامتلاك جيش، ويجب أن تتولى قوات فريزية مهمة مراقبة كل الحدود.

إن إحدى الصعوبات غير المتوقعة لعمل المراسل في الأراضي المقدسة هي أن يصبح تهكمياً، لذلك قمت بإلغاء عبارة «على صعيد العلاقات العامة، إن الهولوكوست هو كالذهب بالنسبة إلى إسرائيل» من مقالة تناولت وجهة النظر الفلسطينية من النزاع. لا يمكنك وضعها في الصحيفة بهذه الطريقة لأنك قد تجد نفسك في مواجهة أحد الناجين اليهود من حملة الاضطهاد إذا ما قُرئت وفُهمت بشكل غير صحيح. بالرغم من ذلك، إن رابط إسرائيل التاريخي مع الغرب منحها نقطة انطلاق لحملاتها، وكنت أرى أسبوعياً مثالاً على ذلك. فمن حين لآخر، تقوم دولة عربية بشراء صواريخ من الصين أو روسيا، فتُعقَد مؤتمرات صحافية مطوَّلة ومختصَرة في إسرائيل على الفور. «يمكن لهذه الصواريخ أن تطال تل أبيب!» - يشير المعنى الضمني إلى وجود تهديد بحدوث هولوكوست آخر. في غضون ذلك، تتلقى إسرائيل من أميركا بلايين الدولارات من «المساعدات العسكرية»، مانحةً إياها قوة تدميرية تفوق

قوة جيرانها مجتمعين أضعافاً مضاعَفة، دون أن تُعقَد في الجانب العربي أي مؤتمرات صحافية وإن مختصَرة.

لكن الإشارة المستمرة إلى المعاداة الماضية للساميّة قد تُظهر إسرائيل بمظهر المستضعَف، دولة معرّضة للخطر تريد السلام ولكنها مُحاطة بـ «جماهير عربية يريدون رمي كل اليهود في البحر». في هذه الصور، يبدو أن الفلسطينيين والعرب يكنّون الكره لليهود على غرار النازيين. فكل ما تريده إسرائيل هو «مكان تحت الشمس»، ويتعيّن على الجيران أن يثبتوا أنهم لا يكنّون الكره لليهود لأن هذا الكره يجعل الاقتباس «إنهم يقتلون يهوداً أبرياء» مؤثِّراً في النفوس. فـ «إنهم» تعني أن «كل الفلسطينيين مذنبون»؛ و«أبرياء» تعني أن «الحافز هو الكره»؛ و«يهود» تعني أن «الأمر غير مرتبط بالإسرائيليين أو الصهاينة؛ إنها مجزرة أخرى بحق اليهود».

كانت رسالة قوية إلى أقصى حد، وبإمكان المرء أن يسمع في العديد من التقارير المنقولة عبر وسائل الإعلام الغربية أصداء ما معناه أن إسرائيل دولة مُستضعَفة مُحبّة للسلام. ولكن السجلات تُظهر أن مجموعات يهودية ارتكبت هجمات إرهابية دموية في أثناء الاحتلال البريطاني الاستعماري في حرب العام 1948 وما بعدها. لقد قتلوا مبعوثاً للأمم المتحدة، وحاولوا تفجير وزارة الخارجية البريطانية، وطردوا فلسطينيين من قراهم على نطاق واسع باستخدام العنف أحياناً. وتصف وسائل الإعلام الغربية هذه المجموعات في الغالب بأنها «منظمات يهودية سرّية». وفي الأعوام 1956 و1967 و1982، هاجمت إسرائيل أحد جيرانها، ولكن هذه الاجتياحات توصَف أحياناً بأنها هجمات وقائية. ونشأ عن احتلال جنوب لبنان حزام أمني كانت تقيم فيه قوات الدفاع الإسرائيلية. فهذا الجيش لا يهاجم بل يتحرك،

أو يدخـل، أو يتدخـل. وتقـوم القـوى الأمنيـة بعمليات يتم التخلص فيها من بعض العناصر. والاغتيالات هي ضربات عسكرية وقائية، والخسائر في صفوف المدنيين هي أخطاء فادحة.

هنـاك الكثيـر مـن التأفـف في صفوف الصحفيين بسـبب اسـتغلال الحكومة الإسـرائيلية للهولوكوسـت، ولكن كيف يمكنك أن تطلب من إسرائيل تجاهل أكبر كارثة في تاريخ الشعب اليهودي؟ تخيّل حصولك على ورقة رابحة تمكّنك من التعريف بنفسك في تصريح فيديوي لمدة عشر ثوانٍ أنك مُستضعَف معرّض للخطر، ويمكنك بواسطته حذف كل الانتقادات التي تعتبر أنك من أسوأ أنواع الأوغاد. ستقوم باستخدام هذه الورقة الرابحة بالتأكيد لا سيما إذا ظننت أنك تخوض صراع البقاء.

إنه أمر منطقي تماماً، ولكن الرابط الثقافي والتاريخي بين إسرائيل والغرب أدى إلى نشوء مكمن ضعف في مبدأ العرض لآراء طرفَي النزاع المتّبَع من قِبل الصحافة الموضوعية. ولكن ما الذي يمكن القيام به إذا حقـق فاصـل إسـرائيلي تلفزيونـي لمـدة دقيقة واحدة ما لم يحققه فاصل فلسطيني تلفزيوني في المدة نفسها؟

***

في الأراضي المقدسـة، قمت بتغطية الفلسـطينيين، مما يعني رفع الكثيـر مـن التقاريـر عـن الأحـداث الدائـرة فـي حينـه. لقـد زرت عائلة فلسـطينية كان ابنهـا المصـاب بإعاقـة عقليـة قـد أُردي بطلـق نـاري مـن قِبل قناص إسـرائيلي بسـبب فرض منع التجوّل؛ ولكن محاولة شـرح ما جرى لابنهما لم يُجدِ نفعاً. وزرت عائلات جُرفت منازلهم بسبب تعرّض مستوطنات يهودية لإطلاق نار من الحيّ الذي يقيمون فيه، واستمعت إلى سيدة المنزل تقول بترنّح: «اذهب وتحدّث إلى الجيران، يا بنيّ، حالهم أسـوأ من حالي بكثير. لقد منحَنا اليهود خمس دقائق لإخراج حاجياتنا

مـن المنـزل، وهكـذا تمكنـا مـن الاحتفاظ بذهبنا وبأدوية الجدّ». في رام الله، التقيت محترفين بأجهزة الكمبيوتر يُعدّون مُلصقات لتكريم شهداء وضحايا الانتفاضة. لقد كانوا هناك يفكرون في صور القتلى والمسجد الأقصى، وبجُمل تحمل تواريخ الوفاة وأسبابها، وبآية قرآنية أحياناً. «إذا جعلنـا صـورة المسـجد الأقصـى أصغـر بقليل، تمكنّا من وضع الآية في المُلصّق».

في قلقيليا، تسكّعت مع طلاب فلسطينيين في تكنولوجيا المعلومات. لم يكن باسـتطاعتهم الوصول إلى الجامعة في رام الله بسـبب الحصار العسـكري الإسـرائيلي؛ كانـوا يقضـون وقتهم فـي الاطّلاع على تفاصيل بطاقات إئتمان المستوطنين على أجهزة الكمبيوتر. في القدس، تحدثت إلى فلسطينيين يعيدون بيع سيارات سُرقت من المستوطنين الذين أبلغوا شركات التأمين أنها مسروقة. تتم قيادة السيارات إلى مدينة فلسطينية لا يُسـمح للشـرطة الإسـرائيلية بدخولها، وتُباع هناك بعد تزويدها بلوحات جديـدة. فـي بيـت لحـم، قـال لـي حفّـار قبـور إنه يكاد لا يستطيع تلبية الطلبات، وتناولت شراباً مُسكراً في غزة مع رجل أعمال فلسطيني كان قـد نهـب مسـتوطنون مصنعـه ودمّرته الجرافات بعـد ذلك... إضافةً إلى إسطبلاته التي كان جواده لا يزال في داخلها.

لقـد حققـت تلـك الأنـواع مـن القصص التي تحظى باهتمام الناس هدفهـا، ولكـن الأخبـار السياسـية كانت أساسـية في النـزاع القائم، ونقل وجهات نظر الفريقين جزء من ذلك. فعندما كنت أشاهد السي أن أن، لم يكن باسـتطاعتي التهرب من الانطباع السـائد أن الناطقين الرسـميين الفلسـطينيين يفوّتـون الفـرص لشـرح قضيّتهـم. لقـد رأيـت ذلك يحدث مع كل تطور سياسـي: خطاب حالة الإتحاد من واشـنطن، الانتخابات

الإسرائيلية، توقف محادثات السلام واستئنافها... ناطق رسمي إسرائيلي مثقّف يفرض بالقوة وجهة نظر واحدة: إسرائيل تريد السلام ولكنهم يقتلون يهوداً أبرياء؛ ومن ثم الناطق الرسمي الفلسطيني: «من الواضح... أن الدولة الفلسطينية... لن توافق أبداً على الجرائم الإسرائيلية الهمجية... المرفوضة كلّياً». فهذه التنديدات لا تُجيب عن الأسئلة المطروحة وتترك المُشاهد في جوّ من الارتجالات المُربكة والاقتباسات غير المفهومة حول الشرعية الدولية.

في البدء، ظننت أنه ليس باستطاعة الفلسطينيين تقديم أداء أفضل. ولكنني غالباً ما كنت أتحدث إلى فلسطينيين بارزين من خارج السلطة لأجل قصصي التي تحظى باهتمام الناس، أطباء، ناشطين في ميدان حقوق الإنسان، رجال أعمال، أكاديميين. لقد كان هؤلاء أشخاصاً موهوبين، واسعي الاطلاع، فصيحي اللسان، وتهكميين. لماذا لم أكن أرى هؤلاء الأشخاص على السي أن أن؟ فقررت أن أسألهم عما إذا كانوا يدركون مدى سوء صورتهم في وسائل الإعلام، وعن سبب عدم مقياسهم بأي شيء حيال ذلك.

كانوا سعيدين بالتحدث عن الأمر، كما لاحظت، وكانت إجاباتهم تبدأ على الدوام بثلاث نقاط: مواردنا المالية أقل من موارد إسرائيل؛ الغربيون عرقيون لأنكم تعتبرون وفاة الإسرائيلي أكثر أهمية من وفاة الفلسطيني؛ وتسمحون لأنفسكم بأن يتم ابتزازكم بسبب الهولوكوست. كنت أستمع إليهم بهدوء، وألاحظ أن إجابتهم لا تشرح سبب عدم إفادة الفلسطينيين إلى أقصى حد من الفرص المتاحة لهم، فأسألهم بعد ذلك، «لماذا لا أراكم على السي أن أن بدلاً من الناطقين بلسان السلطة الفلسطينية؟»

كانت هناك في الغالب تنهيدة عميقة يليها إعصار من الإحباط.

«سلطتنا لا تتمتع بالكفاءة ولا تريد التحسن. إنها لا تتمتع بالكفاءة لأن عرفات يمنح كافة المناصب الرئيسية لأصدقائه المقرَّبين في منظمة التحرير الفلسطينية»، هو الجواب الذي أعطاه كل فلسطيني بارز تقريباً. لقد عاش هؤلاء المقرَّبون كلاجئين جوّالين طيلة عقود من الزمن، وخبراتهم محدودة جداً في ما يتعلق بالديمقراطيات الغربية. لذلك يبدأ الناطقون الرسميون على السي أن أن بالتكلم في بادئ الأمر، وعلى الدوام، عن القرار 47 وأيّاً يكن العدد في خانة الأحاد، وعن «الشرعية الدولية». ويدرك صانعو السياسة الغربيون أنهم يسعون إلى السلام بالتوافق مع قرارات الأمم المتحدة، ويستهدف الناطقون الرسميون الفلسطينيون بكلامهم صانعي السياسة الغربيين هؤلاء. ولا يستطيع ذوو المناصب الرفيعة التابعون لعرفات أن يتخيّلوا قيامك بشق طريقك في نظام ديمقراطي من خلال إقناع الجماهير الذين انتخبوهم.

لكن المشكلة الحقيقية تكمن في مكان آخر، شدد شركائي في الحوار. فالسياسة الإعلامية غير الناجحة هي نتيجة مباشَرة لتسلط السلطة الفلسطينية. ومن الجانب الإسرائيلي، يريد السياسي الإسرائيلي أن يعاد انتخابه؛ وبعد ذلك، يريد أن يبقى في الذاكرة. لذلك، فهو يحاول، أو هي تحاول، إرضاء أكبر عدد ممكن من الناس، ومن شأن سياسة إعلامية ذكية المساعدة على تحقيق ذلك. ولكن أولوية عرفات الوحيدة عدم إقصائه عن الحكم. وإذا صودف ظهور امرأة فلسطينية متعاطفة وطليقة اللسان بالإنكليزية على شاشة السي أن أن، يرغب المشاهدون الغربيون في معرفة المزيد عنها. فتسارع الصحف والبرامج التلفزيونية إلى إجراء مقابلات معها، ويُبدي السياسيون اليمينيون عن رغبتهم في التقاط صور فوتوغرافية معها. وعندما يزداد نفوذها، تصبح تهديداً للقائد. لذلك، هُمّشت حنان عشراوي ذات الشخصية المحبَّبة؛ امرأة تمكنت من

الدفاع عن وجهة النظر الفلسطينية بفصاحة في أوائل التسعينيات. ولهذا السبب، حالت السلطة الفلسطينية دون قيام تظاهرات شعبية، سلمية، وذات جاذبية إعلامية، ضد الاحتلال؛ قد يرتدّون على قائدهم احتجاجاً على تهميش عشراوي.

«ناطقونا الرسميون غير معنيين باعتماد سياسة إعلامية فعالة بل بإبقاء القائد سعيداً»، أقرّ الفلسطينيون غير المنتسبين إلى دوائر السلطة، صارفين أسنانهم. في المقابل، تدفع الدولة لقاء تعليم أبناء وبنات هؤلاء الناطقين في أفضل الجامعات الأميركية، وتحصل عائلاتهم على رعاية أفضل المستشفيات، وينعمون بكافة أنواع الامتيازات، ويصبحون ذوي شهرة عالمية. فهم قد يخسرون كل هذه الأمور إذا قاموا بعملهم على أفضل وجه وباتوا يشكلون تهديداً على القيادة. ففي أعلى مناصب السلطة الفلسطينية، ما يهمّ هو الولاء وليس المنافسة.

لقد كنت أُغفل أمراً طوال تلك الفترة؛ لدى الفلسطينيين حكم كما هو الحال في العالم العربي. ولم يكن القمع الممارَس أسوأ من القمع الذي يشهده جيرانهم، ولكن القائد وأصدقاءه المقرّبين كانوا فوق القانون ويهتمون بمصالحهم الخاصة في المقام الأول.

فالسلطة الفلسطينية أُنشئت بأموال أوروبية ومساعدة أميركية بعد اتفاقية سلام أوسلو عام 1993. وكانت إسرائيل قد مدت يد العون أيضاً، والسبب مفهوم. وكل بضع سنوات، كانت تعلّق الحكومة الجديدة المنتخَبة في إسرائيل كافة المعاهدات، أو تعيد تفسيرها، أو تضع شروطاً جديدة لتنفيذها... وغالباً ما كانت عملية السلام تركز على المنحى المنطقي للأمور. ففي إسرائيل، كان باستطاعة حزب العمل مخاطبة حزب الليكود والقول إن مطالب الفلسطينيين غير واقعية. «انظروا كم

نتعرض للضغط من قِبَل المعارضة؛ لو عاد الأمر لهم لحصل الفلسطينيون على أقل مما حصلوا عليه بكثير». وعندما تسلم الليكود الحكم، كان قائد الحزب يشير إلى مؤيّديه ويقول إن ليس باستطاعته تقديم مزيد من التنازلات وإلا ثارت عليه ثائرة حزبه.

لم تتمكن السلطة الفلسطينية أبداً من رفض مطلب إسرائيلي مماثل بسبب عدم وجود معارضة سياسية رسمية. كان الأمر منطقياً تماماً، وفهمت أكثر فأكثر سبب رغبة إسرائيل والحكومات الغربية في التعامل مع هذا النوع من الحكام، بالرغم من مواقفها المُعلَنة من هؤلاء: يسهل التحكم برجل واحد قوي وممارسة الضغط عليه أكثر منه بقائد منتخَب ديمقراطياً. وعندما يخوض هذا الرجل حرباً إعلامية معك، فهو لن يرسل أفضل رجاله إلى أرض المعركة.

الفصل العاشر

احتلال دموي

كان العمل في الأراضي المقدسة رائعاً لأن المصالح الهولندية فيها كبيرة جداً. ولكن، كان لهذا الأمر عيوبه أيضاً، وإذا نسيت هذه العيوب فكل ما عليّ القيام به هو فتح صفحة الرسائل أو ولوج موقع الضيوف في صحيفة أن أر سي أو محطة أن أو أس التلفزيونية.

فالناس يعبّرون عن آرائهم بحرّية تامة في هذين الموقعين، وليس بالإمكان حذف ما يزعج الآخرين. في العادة، كنت أغطي أخبار الفلسطينيين في المناطق المحتلّة، في حين يقوم زميلي في تل أبيب بتغطية أخبار الإسرائيليين اليهود وملايين الفلسطينيين داخل إسرائيل؛ العرب الإسرائيليين. وبصورة عامة، كنا نشكل ثقلاً موازناً لبعضنا بعضاً، ولكن زميلي غادر في إجازة في إحدى المراحل. كنت قد كتبت ثلاث قصص عن معاناة الفلسطينيين ظهر اثنتان منها في الصفحة الأمامية بسبب ندرة الأحداث. فلماذا لا أجازف بوضع هذا التقرير:

إذا أردت أن تعرف ما الذي يتسبب به الإرهاب لإسرائيل، عليك الذهاب بالحافلة إلى المدينة الأكثر تعرّضاً للهجمات، القدس. يُفتح الباب الهيدروليكي مُحدثاً هسهسة، وتصعد الدرجات

الشـديدة الانحـدار وتشـعر علـى الفور بأن الجميـع ينظرون إليك. هل هو عربي؟ هل يرتدي ِمعطفاً طويلاً أم يحمل حقيبة؟ ويتعمّد سـائق الحافلة طرح سـؤال عليك ليعرف ما إذا كانت لديك لكنة عربية أم لا.

فتجلس تحت لافتة كُتب عليها: «ممنوع التدخين. ممنوع رمي النفايـات مـن النافـذة»، ومُلصـق يقترح التالي: «لماذا لا تذهب في رحلة بالحافلة إلى حديقة الحيوانات!» وانطلقت الحافلة واسترخت الوجوه لدقائق قليلة. سيبدأ السبت - بعد ساعتين والجميع يقومون بالتسـوق - وقت مثالي لشـنّ هجمة. ومررنا أمام سـوق البائعين الجوّالين الذي استُهدف من قَبل، ويقوم الآن عملاء قلقون مزوَّدون بأجهزة لكشف المعادن بحراسة شوارعه حيث استُهدفت مجموعة من المتشـددين الدينيين اليهود الشبان بانفجارين متتاليين في ليلة باردة من أوائل أذار/ مارس، عند تقاطع الطرق مع بن يهودا.

توقفـت الحافلـة مـرة أخـرى. كانـت اثنتـا عشـرة حافلـة قـد تعرضت للتفجير خلال الانتفاضة، فقُتل ثمانية أشـخاص، وجُرح خمسـمئة آخرون، وتأذّت مشـاعر آلاف ممّن شـاهدوا وقوع هذه الانفجارات. وعندما سألته عما إذا كان يُبقي أنظاره على من يستقل الحافلـة، أجـاب الجنـدي مناحيـم، «دائمـاً. أنظـر لأرى ما إذا كان الشخص يبدو مثيراً للارتياب، متوتراً، أو متحاشياً للركاب». ولكن الانفجار هو انفجار، حتى إن مناحيم يُقرّ أن الإرهابي يملك الكثير من الوقت للضغط على الزر في الثواني القليلة المطلوبة لاعتقاله. ويغدو الإرهابيون أكثر ابتكاراً فيتنكرون بملابس متشـددين دينيين يهوداً، أو جنود، أو هيبيين بشعرهم المبيَّض وقيثاراتهم التي تحتوي على القنبلة. ومنذ دخول الشهيدات ميدان ارتكاب التفجيرات، بات

يتعيّن عليك مراقبة النساء أيضاً. أضف إلى ذلك أن ربع اليهود الإسرائيليين على الأقل هم من أصل شرق أوسطي، لذلك، فهم يشبهون العرب كثيراً وهذا ما يزيد الخوف الذي يشعر به الركاب. لماذا يستمرون بركوب الحافلة؟ يقول مناحيم إن الجيش يفرض عليه ذلك أيضاً. «لم يكن يُسمح لنا بإيقاف السيارات للتنقل مجاناً لأنه يجب على الحياة أن تستمر كما لو أنه لا وجود لأي هجمات، وإلا فاز الإرهابيون». ولكن العديد من الإسرائيليين يستقلون الحافلة لسبب آخر. فالبلد يمر بأسوأ أزمة اقتصادية. ويشتري الأغنياء سيارات لأبنائهم وبناتهم، ويعطونهم مبالغ إضافية من مصروف الجَيب كي لا يُضطروا للعمل في نهاية الأسبوع في مطاعم بيتزا أو أماكن خطرة أخرى. ونشرت الصحافة الإسرائيلية مؤخراً لائحة بسياسيين بارزين أرسلوا أبناءهم إلى برّ الأمان في جامعات أميركية. كانت لائحة طويلة.

إنها الحماية الحقيقية الوحيدة - مغادرة البلد. «العمليات الفلسطينية هي رسالة لإخبار اليهود في العالم، ابقوا حيث أنتم، لا تذهبوا إلى إسرائيل»، يذكّرنا حزب الله على قناته الفضائية بعد كل هجوم تقريباً. ويعبّر القيادي في حماس، محمود الزهار، عن ذلك ببساطة جارحة: «يُفترض بالانفجارات أن تزرع الخوف الشديد في نفوس الإسرائيليين مما يدفعهم إلى المغادرة».

المغادرة هي أمر لا يقوم به العديد من الإسرائيليين، ولكنهم خائفون: «أشعر بالذّنب كلما غادرت البلد لأن عربياً آخر يبقى فيها»، قال شاب يفضّل عدم البوح باسمه. «ولكن ما الذي يُفترض بي القيام به؟» ولدى وصول الحافلة إلى المكان المقصود، سأل مناحيم، «هل أنت خائف؟» وعندما أجبته بالإيجاب، أومأ

برأسه ببطء، وضرب يده على بندقيته بطريقة معزّية، «لا سبب للخوف». كانت ابتسامته متفهّمة ولكن عينيَه بقيتا مسمّرَتَين على باب الحافلة.

احتلت هذه المقالة الصفحة الأمامية أيضاً، واعتبرت أن حالة التوازن أُعيدت إلى التغطية. ومع ذلك، كان رأي نادي الرسائل الموالية لإسرائيل *take-a-pen.org* مختلفاً. إنهم يُبقون أنظارهم على كافة وسائل الإعلام ويشجعون الأعضاء على كتابة رسائل غاضبة. فهذا ما قالوه:

يا أصدقاء take a pen. (...) ما رأيكم بهذه الجملة - «إن الحماية الحقيقية الوحيدة ضد الهجمات الإرهابية تتمثل بمغادرة البلد؟» ونظراً إلى أن هذه العبارة ليست اقتباساً لراكب حافلة، أعتقد أنه يُبدي رأيه الخاص المتفق تماماً مع هدف حزب الله وحماس. عنوان البريد الإلكتروني لـ أن أر سي: *Opinion@nrc.nl*. إليكم تحياتي.

تلي الرسالة اسم الشخص الذي يحاول ممارسة الضغط. وكان رد الفعل التالي الموجّه من أحد الأعضاء لـ أن أر سي:

سلام، أرى أنكم متأثرون بهذا الهراء الغبي أيضاً. ألم تفهموا الأمر أيها الزملاء؟ يجب على اليهود أن **يغادروا**. لماذا لا يفهم أولئك اليهود الأوغاد ذلك؟ **فليرحلوا**. لماذا لا يزالون عاجزين عن فهم ما أوضح لهم منذ حوالى 4.000 عام؟

كان بعض واضعي الرسائل شديدي العداء لدرجة أنني وجدت أنه يصعب عليّ أكثر فأكثر أن أتخيّل وجود أمور قيّمة يرغبون في قولها. ويذكّر تحليلهم المنطقي بالمنطق المتّبَع من قِبل الأنظمة العربية: يُمنع انتقاد مجموعتنا لأن أعداءنا قد يستغلون ذلك، وكل من ينتقدنا يكون منتمياً للفريق الآخر. لقد ألقيت بعض المحاضرات في هولندا؛ في بعض

الأحيان، وبعد انتهاء المحاضرة، كان يقصدني أشخاص أنيقو الملبَس، فصيحو اللسان. كانوا ينتظرون بتهذيّب انتهاء الجيل الجديد من طرح ما بدا أنه وابل هجومي من الأسئلة أو يطلبون الحصول على أفكار عن كيفية قضاء إجازتهم القادمة في الأردن. ويحين دورهم بعد ذلك. «شكراً لمطالعتك، ولكن زوجي وأنا نواجه أحياناً مصاعب كبيرة في ما يتعلق بالأشياء التي تكتبها عن إسرائيل». أنت تحصل على إجاباتك الجاهزة، أما جوابي فكان: «هل أنتم منزعجون مما تقوم به إسرائيل أم من واقع أنني أكتب عن الأمر؟» وأحصل من ثم على نظرة محدِّقة خالية من أي تعبير؛ إنه واحد منهم.

كانت عمليات الشجب الصادرة عن المتعاطفين مع القضية الفلسطينية أموراً لا أميل إلى قراءتها أيضاً، ولا سيما إذا كانت مكتوبة من قِبل أشخاص لا يتكلمون العربية أبداً. فمن باب السخاء أن نقول إن هناك 5 بالمئة من الفلسطينيين لا يجيدون إلا عبارة إسرائيل شر مطلق بالإنكليزية؛ فإذا كنت تهتم كثيراً بالفلسطينيين، اذهب وتعلّم لغتهم لتعرف الأشخاص الذين تؤيّدهم.

لم تكن تنقصنا الحماسة لإطلاع الرأي العام على واقع الأمور بقدر ما كنا نفتقر إليها عندما يقول مديري في مقابلة إذاعية، «لا يمكنكم القيام بأي شيء على نحو صحيح عندما يتعلق الأمر بإسرائيل والفلسطينيين. فإذا كان هناك قليل من التوازن في ما يتعلق بالانتقادات، نكون قد أبلينا بلاءً حسناً». لقد كان صادقاً بشكل مؤثّر بسبب إقراره أنه لا يتخذ أي موقف من الوضع القائم، ويحاول الوقوف على مسافة واحدة من الفريقين. ولكن بإقراره العلني بهذا الأمر، يكون قد شجع ممارسي الضغوط على رفع صوتهم أكثر فأكثر والغدوّ أكثر تطرفاً، وكلما اتخذوا موقفاً متطرفاً زادت فرص تأثر الموقف الوسط بهم.

في الواقع، كانت هناك مجموعة واحدة فقط لم تقم بمهاجمتي أبداً، بل كانت ثابتة في تأييدها لموقفي وتُثني عليه سواءً كان أكثر سلبية حيال العرب أو اليهود: إنهم النازيون الجدد.

***

من مساوئ النقد غير المنطقي أنه يُعميك عن النقد المدروس. على الأقل، هكذا أشرح سبب مرور عامين تقريباً قبل أن أفهم النقد الموجَّه من حركة السلام الإسرائيلية ومناصرين قلائل آخرين للقضية الفلسطينية. لم ينتقدوا وسائل الإعلام لأن طريقة تناولها جانبَي النزاع كانت مُضرّة لوجهة النظر الفلسطينية؛ لقد خطوا خطوة إضافية، منتقدين المقاربة القائلة إن الجانبَين مخطئان إذا كانا يتقاتلان. برأيهم، يُفترض تغطية النزاع كما تمت تغطية نظام التمييز العنصري في جنوب أفريقيا في ثمانينيات القرن الماضي. فقد قال الناشطون في ميدان السلام إنه يُفترض التنديد بالعنف، وبالإرهاب أيضاً وبشكل مُطلَق، عندما تقوم مجموعة من الناس تمتلك قوة عسكرية متفوقة بقمع شعب أعزل بشكل أساسي. لم يقل أحدٌ خلال قيام نظام التمييز العنصري إنه عندما يتقاتل السود والبيض يكون الجانبان مخطئَين.

كنت قد سمعت هذا النقد مذ بدأتُ زيارتي الأولى إلى الأراضي المقدسة، ولكنني لم أفهمه جيداً، والسبب بسيط: لم أكن أفهم في الواقع نوعية الحياة في ظل الاحتلال. ولكن الأمر تبدّل في العام الأخير من شغلي المنصب لأنني ذهبت للعيش في القدس الشرقية المحتلة.

طلب مني زملاء صحفيون حسنو النيّة يقيمون في إسرائيل، على غرار كل المراسلين تقريباً، عدم الذهاب. لقد قالوا إنني لن أتمكن من التعاطي مع الأمور. ففكرت ببساطة أنني إذا انتقلت قد أتمكن من التخلص من ذلك التنقل المتواصل بين إسرائيل ولبنان. هكذا ذهبت،

وانعكس مزاجي المبتهج على المقالة التي كتبتها عن الجحيم اللوجستي المرافق للانتقال من منزل إلى آخر:

يتطلبك الأمر بعض الوقت أحياناً لتدرك أنك لم تعد على الكرة الأرضية. لقد حدث لي ذلك الأسبوع الماضي عندما جلست في مطعم فاخر في عمّان لالتقاط أنفاسي بعد ثلاثة أيام جحيمية انتقلت خلالها من منزل إلى آخر. وطلب رفيقي المساعد وأنا حساءً وصل فاتراً. فأعدناه، وطلبنا حساءً مجدداً. فأعدناه، وأصرّينا على تناول الحساء. تعالى هنا، أومأت للنادل. وغرفت بعض الحساء بالملعقة، ووضع إبهامه فيه. تحسّسه نريد حساءً. وأشرت إلى إبريق الشاي. هكذا نريده حاراً.

لم يكن لَعقي للملعقة في الواقع بعد ذلك هو الذي جعلني أتساءل عن حالتي الذهنية فحسب، بل مرور خمس دقائق لأدرك مدى غرابة سلوكي. كان النادل في المطبخ يفكر، «طالما دافعت عن الغربيين، ولكن لقد طفح الكيل. لو حدثت انتخابات، سأقترع للأصولي».

لقد قضينا الأيام الثلاثة الأخيرة بنقل أمتعتي من بيروت إلى القدس. كان يفصلنا عن القدس أربع ساعات من القيادة في خط مستقيم، ولكن الحدود مقفَلة والمرور عبرها أمر معقَّد لأن لبنان وإسرائيل يعتبران كل اتصال عمليةَ تجسس. يمكنك القيام بذلك من خلال قبرص حيث يُعيدون رزم كل الأمتعة في صناديق جديدة ويرسلونها، ولكن مسؤولي الجمارك اللبنانية بشكل مُذهل يريدون عشرة دولارات لقاء كل قرص مُدمَج تريد تصديره، وإذا لم تكن رزمة أوراق العمل المكتبي السميكة مرتَّبة في إسرائيل، تبقى أمتعتك في المرفأ، ويتعيّن عليك دفع سبعين دولاراً في اليوم

كأجر للتخزين. إضافةً إلى ذلك، رفضت شركة النقل الإسرائيلية نقل أمتعتي من المرفأ إلى القدس الشرقية لأن الفلسطينيين يعيشون هناك. أهلاً وسهلاً في الشرق الأوسط.

لهذا السبب، استقلّينا سيارة أجرة مليئة بالركاب في بيروت وانطلقنا إلى الأردن عبر سوريا. في اليوم التالي، كنا نأمل بدخول إسرائيل عبر المركز الحدودي المتهاون إجمالاً عند جسر اللنبي.

كانت الحدود السورية العقبة الأولى. يمكن للسياح الهولنديين شراء تأشيرات دخول هناك على ألا يكونوا صحفيين، ولسوء الحظ، كان يحمل جواز سفري تأشيرة دخول صحافية إلى سوريا انتهت مدة صلاحيتها.

«تأشيرة عبور؟» سألتُ بأكبر قدر من اليأس.

«عليك الحصول على إذن من الوزارة، والوزارة مقفَلة».

«عشرون دولاراً؟» اقترح سائقي بعد أن طلبت منه ذلك.

«سنرى ما الذي يمكننا القيام به».

لقد فقدتُ أربعين دولاراً من مدّخراتي وانتظرت أربع ساعات، ولكننا توجهنا إلى مركز الجمارك الحقيقي للحصول على تأشيرة عبور واحدة. كان وقتاً عصيباً لأنه يُفترَض بهم رسمياً تخمين قيمة أمتعتك والاحتفاظ بقيمة التأمين، على أن نستعيد المبلغ عند الحدود الأردنية. أجل، صحيح لا يحتفظون بمبالغ مماثلة من المال دون إعادتها إلى مستحقّيها. فقيّمنا الوضع، وبعد قليل، عبرنا جبال مرتفعات الجولان المكلّلة بالثلج دون أن نخضع للتفتيش ولكن بعد دفع مئة دولار. لقد كلّفنا الخروج من سوريا مئة دولار إضافية،

وكان باستطاعتنا حينذاك تنفس الصُعداء لأن الأردن دولة مُحترَمة. بعد ذلك، دار نقاش مع السائق حول الأُجرة، وكاد شخص وراءنا يقود بجنون أن يودي بنا إلى وادٍ ضيّق عميق، وكانت الحدود مُقفلة. لقد تم اعتقال متسلّلين فلسطينيِّين. وكنا على وشك العودة عندما أُعيد فتح الحدود مجدداً.

في القدس الشرقية، كانت هناك عقبة أخرى بانتظارنا. لم يتمكن الدهانون، والسمكريون، والنجارون الفلسطينيون الذي كان يُفترض بهم ترميم منزلي من مغادرة قراهم طوال أسبوع. فوضعنا كل أمتعتنا في منزل أحد الأصدقاء، وعدنا إلى بيروت في صباح اليوم التالي: سيارة التاكسي إلى الحدود، ضريبة مغادرة إسرائيلية بقيمة ثلاثين دولاراً، ساعة ونصف من الانتظار في حافلة، ثمانية دولارات للحكومة الأردنية، مساومة سائق جديد بهدف الوصول إلى المطار حيث توجد رحلات جوية إلى بيروت. كان الطقس بارداً وكنا جائعين. فقلنا في أنفسنا، هل تعلم، إذا عبرنا عمّان يمكننا التوقف لتناول وعاء من الحساء اللذيذ والساخن، فنحن نستحقه.

بعد مغادرة منزلي في بيروت، لم يعد باستطاعتي تجاهل الأمور. لم أدرك هذا الواقع على الفور لأنني كنت السعادة المتجسدة بعد مغادرتي مباشَرةً. لقد بدت الحياة في القدس الشرقية الأمر الأكثر إثارةً للاهتمام على الإطلاق. هناك، وقفت في الصف أمام آي كيه إي أيه وراء مستوطن يهودي يُرخي لحية كبيرة، ومعه مجموعة فوضوية من الأطفال، ويحمل سرير طفل تحت ذراعه اليمنى، ويضع بندقية أوتوماتيكية على كتفه الأيسر. في إسرائيل، يُسمح للمستوطنين بحمل أسلحة ثقيلة. فالقدس الشرقية أرض محتلّة ولا وجود لخدمات بريدية، لذلك كان

عليّ الوصول إلى صندوق بريد في المستوطنة اليهودية المجاورة. لم تكن شركة الاتصالات الإسرائيلية تريد القدوم ومدّ خط آي أس دي أن؛ فالأمر بالغ الخطورة وسط كل هؤلاء المعادين.

كانت المكتبة الفلسطينية الرئيسية في شارع صلاح الدين في القدس قد رفعت رسماً كاريكاتورياً: في الصورة الأولى، شخص من الإسكيمو يقول، «أدعى مناحيم، والقدس لي!» وفي الصورة التالية، رجل أسود غاضب: «أدعى داود، والقدس لي!» فيضرب أميركي يرتدي ثياب راعي بقر الأرض بقدمَيه: «أدعى شيمون، والقدس لي!» ويقول هندي ساخط: «أدعى بنيمين، والقدس لي!» وفي الصورة الأخيرة فلسطيني مُربَك: «أدعى محمد ووُلدت في القدس، ولكن لا بد من أن يكون هناك خطأ ما».

باستطاعة الناس في الأراضي المقدسة أن يهزأوا بأنفسهم، ولكن متى سبق لك أن رأيت ذلك في الأخبار؟ ذات مرة، تذمّر التقني الإسرائيلي الذي يعمل لصالحي، وكان شديد الإعجاب بأجاكس، من وجود براغيث في كلبه. «عليّ شراء بعض المبيدات الألمانية. الألمان جيدون في هذا الميدان - إبادة الطفيليات». وأخبرني أيضاً ما يلي: هناك أميركي وروسي وإسرائيلي واقفون أمام لافتة كُتب عليها **نعتذر، لا يوجد لحم اليوم لأنه غير متوافر**. فيسأل الأميركي، «ما معنى غير متوافر؟» ويسأل الروسي، «ما معنى لحم؟» ويسأل الإسرائيلي، «ما معنى اعتذار؟»

***

كان عالماً جديداً بالكامل، وكنت سعيداً جداً هناك لدرجة أنني أقمت حفلة منزلية مُفعمة بالحيوية والنشاط. ومن بين ضيوفي، مالك المنزل وشقيقته، وجارنا. كان دبلوماسي هولندي من تل أبيب موجوداً

أيضاً، إضافةً إلى زميل سويدي يدعى سفِن. فدنا مني سفِن وعلى وجهه سِمات الانزعاج. «مالك المنزل ذاك وشقيقته، هما... لطيفان!» فرفعتُ كأسي. ماذا كان يتوقع؟ «حسناً، أجل. قد لا يكون للأمر أي أهمية، ولكنهما... تعلم». كانت أول محادثة لسفِن مع فلسطينيين عاديين. فالمسافة بين تل أبيب والقدس الشرقية هي خمسة وتسعون كيلومتراً بالسيارة، ولا وجود لأي نقطة عبور حدودية لأن إسرائيل ضمّت القدس الشرقية وتعتبرها جزءاً لا يتجزأ من البلد. ولكن لم يسبق لسفِن أن قدم إلى هنا طيلة مدة إقامته في تل أبيب ثلاث سنوات؛ كان يبتلع روايات جهاز العلاقات العامة الإسرائيلي بأكملها.

لقد فتح مالك المنزل وشقيقته عينَيّ على ماهية الاحتلال أيضاً، وكانت نهاية سعادتي. لقد زوّدتني جارتي بمعظم المعلومات. كانت عزباء كاثوليكية وُلدت في حيفا عام 1948. وعندما أُنشئت إسرائيل، فرّت العائلة إلى القدس الشرقية ولم تتمكن أبداً من العودة. كانت القدس الشرقية تتبع الأردنيين في ذلك الوقت، ولكن إسرائيل سيطرت عليها عام 1967؛ وهكذا، باتت جارتي في ظل حكم البلد الذي سرق من عائلتها كل شيء في السابق.

مع ذلك، فهي لا تشعر بالسلام. كانت تتلقى اتصالات هاتفية عند الثالثة صباحاً، وكلما أجابت تكون هناك بضع ثوانٍ من الصمت، ومن ثمّ يُقفل الخط. استمر ذلك طوال أيام حتى أُصيبت جارتي بالإنهاك. لصوص؟ وتجنّبت الإجابة على سؤالي حول سبب عدم اللجوء إلى الشرطة. «أنا سيدة متقدمة في السنّ عاجزة عن تدبّر أموري»، تقول باستمرار. كادَ الأمر يقودني إلى الجنون، فأضفتُ وصلةً إلى السلك بحيث أتمكن من الإجابة على الهاتف، آملاً في أن يشعر المتصل بالخوف لدى سماعه صوتاً ذكورياً. في تلك الليلة، رنّ الهاتف بالفعل.

وعندما رفعت سمّاعة الهاتف، كان هناك صمت. واستمر الصمت خمس دقائق أخرى، لذلك قلت بالإنكليزية الأمور الأكثر قساوةً التي تمكنت من التفكير فيها. وفي الاتصال الثالث، بدأ المتصل فجأةً يتكلم بإنكليزية غير طليقة. لم يكن يريد الإفصاح عن هويّته أو عن سبب اتصاله، ولكنه عرّف بنفسه قائلاً إنه «صديق للعائلة من الأردن». وأقفل الهاتف بعد ذلك، وأدركت أنه لم يلفظ حرف الـ «الراء» في كلمة الأردن بالعربية، بل بالعبرية. كان إسرائيلياً! وتوقفت الاتصالات الهاتفية.

«نتلقى الكثير من المكالمات الهاتفية المماثلة»، قال لي مالك المنزل عندما كنت أدفع له الإيجار. كان طبيباً محترَماً وعصبيّ المزاج في أواخر العقد السادس من العمر. «المستوطنون يخيفون الفلسطينيين المتقدّمين في السن، وبعد ذلك، يأتي أشخاص صُوَريون ويعرضون شراء منزلك بقيمة تفوق قيمته الفعلية بضعفين أو ثلاثة أضعاف، ويمكنك البقاء هناك حتى وفاتك. ولكنه يصبح بعد ذلك منزلاً للمستوطنين. وهم يعرضون عليك أيضاً جوازات سفر إسرائيلية مما يثبت أنهم متواطئون مع الحكومة».

إذاً، هذه هي سياسة التهويد التي تحاول إسرائيل من خلالها التخلص من غير اليهود المقيمين في القدس الشرقية. وأصرّ مالك المنزل على أنه لم يأخذ أبداً بعين الاعتبار، ولو لثانية واحدة، العروض المقدَّمة من قِبل المتصلين خلال الليل. ومع ذلك، سيسمح له جواز سفر إسرائيلي من السفر إلى الخارج، وسيتمكن أبناؤه وبناته من متابعة دراستهم في أميركا والعثور على شركاء. ما هو عدد الفلسطينيين الكاثوليك المتبقّين في القدس؟ لو خاضت إسرائيل معركة في سبيل الحصول على منزلي لفازت بها؛ إنه أمر واضح.

ذات مرة، قرعت جارتي جرس باب منزلي مذعورة. كان هناك منع

للتجوّل ذلك المساء بسبب احتفال إسرائيل باستقلالها، ويتعيّن على كل الفلسطينيين البقاء داخل منازلهم - أولئك المقيمين في القدس الشرقية أيضاً للمرة الأولى - كتدبير أمني. كانت الجارة ترتجف بسبب اقتناعها أن ما حدث عام 1948 سيحدث مجدداً. فألغيت موعدي («آسف، لا يُسمح لي بمغادرة منزلي غداً»)، وخرجت لإحضار طعام من المتجر المحلي. ولكن لسوء الحظ، كان قد وصل إليه عدد كبير من الناس. وعدت إلى المنزل، ونظرت إلى الساعة، هل لا أزال أملك الوقت للتوجه إلى المتجر الكبير؟ ولكن ماذا لو ذهبت وعلقت هناك؟ سيكون عليّ النوم في فندق. لذلك، كان عليّ اصطحاب جواز سفري معي، وجهاز الكمبيوتر أيضاً، لأنني ملتزم بموعد زمني محدد.

فبقيتُ في المنزل، وبعد ساعة من الزمن، وقفت جارتي عند بابي مجدداً. كانت قد سمعت أنه سيكون هناك تفتيش للمنازل، وحذّرتني طالبةً منّي إخفاء كل مقتنياتي القيّمة. كانت لديها وجهة نظر، حاوِل أن تثبتَ في مركز مسلّح أن جندياً استولى على مجوهراتك. وبدأ منع التجوّل، وأصدرت سيارة صوتاً حاداً عندما كانت مارّة بالقرب من منزلنا. هل هو متهوّر فلسطيني أم مستوطن؟ لم يكن هناك منع تجوّل لليهود. ومن ثم، سمعت انفجارات، وقلقت للوهلة الأولى على جارتي. ولكن هذه الانفجارات لم تكن سوى ألعاب نارية بمناسبة الاحتفال بالذكرى السنوية لاستقلال إسرائيل.

بعد مرور بعض الوقت، تعرّضنا لعملية سطو. لقد سُرقت السيارة، وأُفرغ المنزل من محتوياته، وأُصيبت الجارة بحالة من التوتر. هل نقصد مركز الشرطة؟ «أريد مساعدتك»، قال مالك المنزل، «عليك الإبلاغ عن السرقة». لقد شعرت بانزعاج شديد، فشرح لي بتردد أنه إذا قصد مركز الشرطة فإنه يجازف بأن يقول له الشرطي: «أنت تسكن هناك؟ إنه حيّ

يثير اهتمامنا. لا تريد أن تخبرنا بأي شيء؟ ربما يُفترض بنا التحقق من رخصة سَوقك، والتصريح الذي يسمح لك بمزاولة مهنة الطب، وأعمال مكتبية أخرى. قد يتطلب الأمر بعض الوقت. راجعنا بأمر السرقة بعد ظهر كل يوم وطوال الشهر القادم، فنذهب في نزهة إلى حيّك، وندع الجميع يرون مدى صداقتك مع الشرطة الإسرائيلية».

فقصدت مركز الشرطة بمفردي في المستوطنة المجاورة، نيف ياكوف. ولم يكن أحد يجيد الإنكليزية أو يرغب في التكلم بها، وأُرسلت إلى شرطي يتكلم العربية. كان منشغلاً مع فلسطيني يقيم بجانب نقطة تفتيش، وعليه الوقوف في الصف كل يوم لمدة ساعتَين للمرور عبر النقطة كلما أراد دخول المنطقة أو الخروج منها. وكان الفلسطيني قد تمكن من الحصول على ترخيص مرور عبر الطريق الخاصة باليهود. من الغريب كيف أنني اعتدت بسرعة ذلك النوع من التعابير؛ الطريق الخاصة باليهود.

«عد غداً»، سمعت الشرطي يصيح.

«ولكنك قلت ذلك أمس وأوّل من أمس. لقد قدمت إلى هنا عشر مرات».

«إذاً، تعالَ عشر مرات أخرى».

ما الذي يدعو المرء إلى أن يخشى الشرطة أكثر من اللصوص؟ هل هو الاحتلال؟ فقررت أن أطرح هذه السؤال كلما أجريت مقابلة مع شخص ما، وجمعتُ القصص التالية:

حدث الأمر قبل عملية السلام. كنت في السادسة عشرة من عمري ومُغرَماً بجارتي كما لو أنك تختبر الأمر للمرة الأولى في حياتك. بعد ذلك، رُسمت شعارات معادية لإسرائيل وعلم منظمة التحرير الفلسطينية على منزلنا. في اليوم التالي، أجبر الجنود والدي

على إزالة الكتابات. ففقدت رباطة جأشي وتم اعتقالي. وبعد ستة أشهر، أُطلق سراحي ولكن اسمي بات معروفاً من قِبل اليهود، ونسيت أمر الحصول على إذن للعمل في إسرائيل. لم يكن لديّ أي مستقبل، وتزوّجت من أُغرمت بها شخصاً آخر.

ابني البالغ من العمر ثماني سنوات أصمّ. نحن نعيش في القدس، والمدرسة الوحيدة للصُمّ موجودة في رام الله. كنت بحاجة إلى ترخيص مرور لقطع تلك الكيلومترات العشرة إلى رام الله. بالطبع، كان اليهود يريدون شيئاً في المقابل. الآن، يتعيّن على ابني البقاء في منزل مستأجر في رام الله، وأسافر سرّاً عبر البلد في نهاية كل أسبوع لاصطحابه معي. إنه فتى قلق، ولكن ليس باستطاعتنا طمأنته عبر الهاتف في الأمسيات بسبب صممه.

والدي هو رئيس البلدية ولديه ما يكفي من المال لأدرس في باريس. قراءات أدبية، احتجاجات... ولكن كانت هناك على الدوام سحابة فوق رأسي، إذا فقدت بطاقة هويتي الأصلية لن تسمح لي إسرائيل بالعودة أبداً. كنت أتسكع مع فتاة ذات مرة وأصبت بنوبة من الذعر التام. فركضت إلى غرفتي للتحقق مما إذا كانت بطاقة هويتي لا تزال حيث وضعتها.

حدث ذلك قبل عملية السلام. كان شقيقي في نزاع حول الأعمال مع عائلة متنفّذة على صلة بمنظمة التحرير الفلسطينية. ذات يوم، قاموا باستدراجه إلى خارج المنطقة الريفية وقتلوه. بعد ذلك، كتبوا على كل الجدران إنه كان متعاوناً مع إسرائيل. ما الذي كان باستطاعتنا القيام به؟

كان والدي يعاني من خلل في القلب لدرجة أنهم لم يتمكنوا من معالجته في غزة. فطلبنا الحصول على إذن للسفر إلى الأردن،

ولكننا لم نحصل عليه. لقد ملأنا استمارة بشكل غير صحيح، ووالدي الآن متوفٍّ.

دخلت في شجار رهيب يوم أمس مع ابني الأصغر. لقد سألته عن المهنة التي يريد القيام بها عندما يصبح أكبر سنّاً، فقال «شهيد». فقلت له إن الشعب المقموع بحاجة إلى جنود، ولكنه بحاجة أيضاً إلى مفكرين، ومبتكرين، وعلماء. فسخر مني. لماذا يُفترض به بذل قُصارى جهده في المدرسة سيّما وأنه لن يتمكن أبداً من مغادرة نابلس للالتحاق بجامعة جيدة؟ وهو مُحق.

لازمت هذه الروايات تفكيري لأن من أخبرها ليسوا رجالاً غاضبين ومُلتحين، أو ناطقين رسميين لا يتمتعون بالكفاءة، أو ضحايا ينتحبون بشكل مسرحي وعلى نحو مُبالَغ فيه. كانوا رجالاً ونساءً هادئين؛ آباء وأمهات يحاولون المحافظة على شمل عائلاتهم؛ أجداد وجدات يدركون أن الجيل التالي قد يتوقع حياة مماثلة لحياتهم. وكان الاستنتاج الوحيد الممكن أن ذلك الاحتلال مساوٍ للإرهاب؛ عدا أنه دائم ومفروض من قِبل جنود وأجهزة مخابرات وليس من إرهابيين. فالاحتلال هو كالدكتاتورية لأنك لا تملك أي حقوق. وباستطاعة أجهزة الأمن الإسرائيلية اقتحام منزلك في أي وقت وأخذك أو أخذ أحد أفراد عائلتك، وباستطاعتهم أن يعذّبوك أو يسجنوك لسنوات من دون محاكمة. وفي أي وقت، يمكن للجرافة تسوية منزلك بالأرض في سياق فرض عقوبة جماعية أو بهدف بناء مستوطنة جديدة.

هكذا عاش الفلسطينيون منذ العام 1967، ولم تغيّر عملية السلام الكثير. فالسلطة الفلسطينية هي في الواقع محام دُفع به بين المحتلين الإسرائيليين والشعب. فقبل عملية السلام، كان يتعيّن على الفلسطينيين أن يطلبوا الإذن من الإسرائيليين للقيام بأي شيء؛ وبعد عملية السلام،

يتعيّن عليهم اللجوء إلى السلطة الفلسطينية التي يجب عليها طلب الإذن من إسرائيل.

حتى سيارتي تعرّضت للسرقة، كنت أقود سيارة مستورَدة تحمل لوحة يونانية. وكل بضع ساعات، كانت تستوقفني وحدات خاصة بالمكافحة؛ يكونون أحياناً بثياب مدنية، وأحياناً أخرى بلباسهم الرسمي الموحَّد. «من أين حصلت على هذه السيارة؟» كنت أمرّ أحياناً بلحظات مريعة، أشكر فيها الله بسبب بشرتي البيضاء لأنني لا أتكلم العبرية أبداً ولا أعرف إذا كانوا سيصرخون «أخرج من السيارة وإلا أطلقنا النار عليك!» أو «لا تتحرك وإلا أطلقنا النار عليك!» كان رجال الشرطة عصبيي المزاج إلى حدٍّ كبير أيضاً: باستطاعة الإرهابي الانتظار حتى يقتربوا، و... يفجّر نفسه. ولكن ذلك الشعور بالعجز عندما يكون عليّ رفع يدَيّ والسير في اتجاه أحد أولئك الجنود البالغين من العمر تسعة عشر عاماً...

كان الجنود يقيمون أحياناً نقطة تفتيش أمام منزلي ويُخرجون كل ذَكر فلسطيني يتراوح عمره بين ثمانية عشر عاماً وأربعين عاماً من سيارته. كان عليهم الوقوف تحت الشمس الحارقة، طوال ساعات أحياناً، بينما يتم التحقق من أوراقهم الثبوتية، وكل من يتذمّر يتلقى ضربة قوية على رأسه. وكانوا يتوقفون عن توجيه الضربات تقريباً عندما يرونني ببشرتي البيضاء ويدركون أنني قد أكون شاهداً على أعمالهم.

هذا ما يعانيه الناشطون في ميدان السلام عن الاحتلال. وعندما فكرت مليّاً في كيفية وصف الاحتلال، أدركت سبب قيام عدد قليل من الناس بفهم ما يتحدث عنه الناشطون. فالإكراه نفسه موجود في البلدان المحتلة كما في الأنظمة غير الديمقراطية. لم تكن هناك أي تطورات

ذات أهمية إخبارية، مما يعني أنه بإمكان المراسلين إعداد شيء ما عن الحياة اليومية ليس إلا. فالأحداث هي التي تغذّي النشرات الإخبارية على الدوام. ولم يكن الاحتلال بحدّ ذاته خبراً، ولكن كل هجمة هي خبر. وهذا يعني أنه يمكنني ذِكر الاحتلال في الأحاديث البينيّة أو في التحاليل من خلال التلميح إليه فقط ومن دون الخوض في التفاصيل. كيف سيتمكن إذاً مشاهديّ في الوطن - متلّقّو الشكاوى والمحققون فيها، وواضعو القوانين المتعلقة بالمعاملة الجائرة - من تصوّر ما يجري؟ عليك إظهار الاحتلال على شاشة التلفاز من خلال أمثلة واقعية، ولكنه أمر يصعب القيام به.

فعلى سبيل المثال، وقبل الانتفاضة الثانية، اعتاد العديد من المِثليين الجنسيين الفلسطينيين زيارة حانات تل أبيب سرّاً. وكان جهاز البوليس السري الإسرائيلي يلتقط صوراً لهم، ويهدّدهم بتوزيعها في قراهم إذا لم يعملوا لصالحه. وتُظهر قصة مماثلة كيفية قيام القوة المحتلة بسحق الناس بلا شفقة أو رأفة؛ ولكن حاوِل تصوير ما يجري. فالمِثلي الجنسي لن يظهر على شاشة التلفاز لأنه سيتم افتضاح أمر ميوله الجنسية وتعاونه مع المحتل، وستُنكر أجهزة المخابرات كل شيء أو تعتبرها من «أسرار الدولة». في الغالب، يمكنك الحصول على ناشط إسرائيلي في ميدان حقوق الإنسان يمكنه التحدث عن الأمر، مع خشية دائمة من أن يمتنع عن ذلك في اللحظة الأخيرة.

لكل انفجار صورة تُظهر الوضع كما تراه إسرائيل. فيمكن تكرار مشهد حافلة مشتعلة أو مطعم مسودّ للغاية، وفي كل مرة تتضح الرسالة في غضون ثانيتَين؛ إنه الإرهاب. ولكن في ما يتعلق بالاحتلال... لا يتعدى الأمر بضع طلقات نارية صادرة عن الدبابات، وجنوداً يتحققون من الأوراق الثبوتية، وصفوفاً طويلة من المدنيين. كيف يمكن للمراسلين

وصـف المأسـاة، والقمـع، والـلا عدالـة الموجودة وراء هذه المشـاهد؟ يمكنك سرد ما يجري ليس إلا، وكما نعلم، فإن أقصى ما يمكنك القيام به بالكلمات هو إبلاغ رسالة ما للمشاهدين؛ أما إذا حصلتَ على صور لهجوم ما، فإنك تصيبهم في الصميم.

فـي السـنوات الثـلاث الأولـى للانتفاضـة، كان عـدد المدنييـن الفلسـطينيين الذين قُتلوا بسـبب العنف الإسـرائيلي ثلاثة أضعاف عدد القتلـى الإسـرائيليين، واسـتمر الحديـث عـن «هجمـات دموية» من دون ذكر «الاحتلال الدموي» إلا نادراً. وبعد هجوم فلسطيني أودى بحياة ست ضحايا إسـرائيليين، قيل إن «حدة التوتر ارتفعت» في الشـرق الأوسـط؛ ولكن بعد سـقوط خمسـة عشـر مدنياً فلسـطينياً في أسـبوع واحد بسـبب العنف الإسرائيلي، قيل إن الوضع يمر بفترة «من الهدوء النسبي». كان على السلطة الفلسطينية الاستمرار بشرح ما إذا «كانت تتخذ تدابير كافية في مواجهة الإرهاب». ولم يكن على السياسيين الإسرائيليين أبداً شرح ما إذا «كانوا يتخذون تدابير كافية للتخفيف من وطأة الاحتلال». ناقش بعض الأشخاص على موقع الوِب التابع للبي بي سي «كيفية وقف الإرهاب»؛ ولم يكن هناك أي منتدى حول «كيفية وقف الاحتلال».

فإذا قارنتَ الإرهاب بالاحتلال، تجد أن الأمور منحرفة بحيث إنه لا يكون باسـتطاعتك تقويمها وإن في الصحف. باسـتطاعتي اسـتخدام كلمة «إذلال»، ولكن كلمة مماثلة لا تعني أي شيء - بالنسبة لي على الأقـل - حتـى اختبرتهـا بنفسـي. وعندمـا اختبرتها، كتبت المقالة التالية. وكتـب لـي أحـد القـراء بغضب قائـلاً إنني تخطيت «الحدود الصحافية». كان مُحقـاً بذلـك لأن الإذلال ليـس أمـراً يمكنـك شـرحه ضمن الحدود الصحافية:

كنت جاثياً أمام مرحاض مليء بماء مبتذَل عندما مَرّرت لي

يدٌ شوكة، وكان يجب عليّ التقاط الغائط وإخراجه من الماء وأكله لإضفاء جوّ من المرح. كان ذلك الكابوس قد انتابني العام الماضي ونسيته على غرار الأحلام الأخرى. ولكنني كنت يوم أمس عند حاجز على الطريق، فتذكرت الحلم مجدداً بكافة تفاصيله.

كان حاجزاً عادياً تماماً مع صف طويل من السيارات الفلسطينية المتوقفة عند حاجز يوجد فيه أربعة جنود إسرائيليين في الثامنة عشرة من عمرهم تقريباً بقصات شعر تواكب الموضة ويحملون أحدث أجهزة الهاتف الخلوي. كان أحد الجنود يومئ للسيارات تكراراً منذ المراحل الأولى لغَسَق المساء بمصباح كهربائي أطول من ساعده. كان يتعيّن على كل الركاب الذكور الخروج من سياراتهم والكشف عن صدورهم وتعريضها للهواء البارد ليثبتوا أنهم لا يُخفون متفجرات. وأبقى الجنود الآخرون بقية الركاب في السيارات - المسنّات والأطفال الصغار - تحت أسلحتهم المتطورة جداً.

أخيراً، طفح الكيل بأحد الفلسطينيين. فشرع برفع سترته بهدوء، ولكنه أفلتها عندما نظر الجنديّ حوله، فأسعد الفلسطينيين المنتظرين في سياراتهم. وعندما عاد إلى سيارته، باغته الجندي الذي يحمل مصباحاً كهربائياً كبيراً بثلاث ضربات سدّدها على رأسه عبر النافذة، وأومأ له بالانطلاق.

حينئذٍ تذكرت الكابوس الذي انتابني. في اليوم السابق، كنت في جنين مع زميل فلسطيني. وعندما كنا متجهَين لمغادرة المدينة، صادفنا حاجزاً على الطريق، وتبيّن في ما بعد أنه لن يُسمَح لزميلي بالمرور. كنا نتضوّر جوعاً ونتألّم بشكل يائس لقضاء حاجتنا في الحمّام، ولكن الجنود حملونا على الانتظار لمدة ساعتين. وسُمح

لنا بعد ذلك بإكمال طريقنا من دون تقديم أي تفسير لما حدث. فهذا ما اعتقدناه على الأقل. وكان هناك حاجز آخر على بُعد مئتَي متر من الحاجز الأول، ولكن هذه المرة لشرطة الحدود. «ولكن الجيش سمح لنا للتوّ بالمرور»، قلنا. «نادِهم أو يمكننا العودة إلى هناك معك». فاقترب الشرطي وكان علينا المعاناة من البرد القارس في كانون الأول/ ديسمبر لمدة ساعتين أخريين، زارعين المكان ذهاباً وإيّاباً وأذرعتنا وراء ظهورنا. ما الذي تقوم به في هذا الظرف؟ تتماشى مع الوضع القائم وتطلق دُعابات، أو تنفجر غضباً وتجازف بإمكانية إرسال زميلي إلى «الحجز الإداري» - التعبير المعتمَد من قِبل جهاز العلاقات العامة الإسرائيلي للسجن دون محاكمة لمدة ستة أشهر أو أكثر؟ يمكنكما الذهاب الآن، قال لي الشرطي وأومأ برأسه. أخيراً، بات بإمكاننا الانطلاق من دون تلقّي أي تفسير كذلك. وطوال مدة عودتنا، بقي زميلي المبتهج صامتاً في حين أنني حاولت التعبير عن مشاعري.

يوم أمس، وعند الحاجز على الطريق، فهمت حقيقة تلك المشاعر وكيف ترجمها عقلي الباطن؛ إنه الإذلال. إن ما اختبرته في جنين لم يحدث لي سوى مرة واحدة، ولكن كيف يكون عليه الحال بعد خمسة وثلاثين عاماً من الشعور بالتهديد من قِبَل شبان إسرائيليين؟ لا بد من أن ينجم عن ذلك أكثر من مجرد أحلام غاضبة

***

إليك الآن دُعابة: جلس إسرائيليان على الشاطئ في تل أبيب يقرآن، ومع أحدهما صحيفة مرموقة، ومع الآخر صحيفة معادية للساميّة. «لماذا تقرأ تلك الصحيفة بحق الله؟» يسأل الأول. «كنت أقرأ صحيفة مرموقة

مثلك، ولكن لم يعد باستطاعتي تحمّلها وأسلحة دمار شامل، وانهيار الاقتصاد، وتظاهرات مناهضة لإسرائيل في أوروبا...»، يجيب الآخر، ويشير إلى الصحيفة المعادية للساميّة. «أما وقد بدأت أقرأ هذه، فإنني أصبحت أفضل حالاً. يثبت في النهاية وجود مؤامرة يهودية عالمية، ونحن نتحكم بكل العالم في الواقع».

الفَصْل الحَادي عَشر

معضلة الوسيط

لقد مرت الأراضي المقدسة أيضاً بفترات هدوء لم يتوافر فيها الكثير من الأخبار، ومتلازمة القدس هي إحدى القصص التي يهتم بها الناس ويمكنك استخدامها كخبر بديل لملء الشواغر.

لم يكن يصعب عليّ التفكير بمتلازمة القدس عندما كنت أتابع مناقشات حول السلام في الشرق الأوسط على الإنترنت أو على المحطات الفضائية. لقد بدا الجميع عالقين في شرك هذه المتلازمة؛ ليس العرب فحسب، بل اليهود أيضاً والغربيون. إنها على الدوام حالة شخص آخر يتعيّن عليه القيام بأمر ما لأن شخصاً آخر هو المشكلة؛ وإذا تحسّن سلوكهم يتحسن كل شيء. فالفلسطينيون العاديون يوجّهون أنظارهم إلى قادتهم، والدول العربية، وأوروبا، وأميركا؛ على القنوات العربية، إنها السياسة الغربية على الدوام التي تحتاج إلى تغيير. وتشرح إسرائيل مشاكلها لبقيّة العالم معتبرةً إياها معاداة للساميّة. ومنذ 11/9، يستمر عدد متزايد من المعلّقين الغربيين بالقول: «يحتاج الإسلام إلى المرور بمرحلة من التنوّر، يحتاج المسلمون إلى القيام بهذا أو ذاك».

لم تكن رؤية الجميع يتخلّون عن مسؤولياتهم أمراً يبعث على

الأمل، ولكن خلال عامي الأخير كمراسـل كنت أتسـاءل أحياناً عما إذا كنت مختلفاً عن الآخرين. هل يُفترض بي أن أشـكل ثِقلاً موازناً لأي تحريفـات صادفتهـا؟ فـإذا فـاز فريـق كرة قدم بإحـدى المباريات بنتيجة 8-1، قد تقول إنه يكفي للصحفي التلفزيوني أن يُظهر الأهداف. وكان يُفترض بالخاسرين أن يلعبوا بشكل أفضل.

لكـن مـاذا لـو كان الملعـب موحِلاً، وأحـد الحكام المراقبين مقرَّباً مـن الفريـق الفائـز، وبعـض المخالفـات لـم يعاقَب عليهـا مرتكبوها، أم أن أيّـاً مـن هـذه الاحتمـالات غيـر موجود بـل الفريق الفائز أفضل بكثير لجهة خداع الحَكَم؟ ماذا لو كان مدرّب الفريق الخاسـر موجوداً هناك رغمـاً عـن أنـف العديديـن مـن مؤيّـدي هـذا الفريـق، أم تـم اسـتخدامه كمدرّب بمساعدة الفريق الآخر؟ بأي حال، لقد عيّنت إسرائيل والغرب عرفات «ممثلاً وحيداً للشـعب الفلسـطيني» على حسـاب قادة الانتفاضة الأولى. لقد ساعدته أوروبا وأميركا وإسرائيل على إنشاء جهازه الأمني (المصطلحات!) طيلة سنوات ليتمكن من طرد كل المدرّبين المنافسين خارج المباريات.

ألا يُفتـرض بالمراسـلين النظـر أبعـد مـن الأهداف، وإظهار سبب انخفاض أداء الفريق، وكيف كان يمكن أن يكون أداؤه لو أُشرك لاعبون آخرون؟ فالصحفي الذي يقصر مهامّه على لعب دور الوسيط يتخذ في الواقـع جانـب الفريـق الأفضـل فيحصـد هذا الأخير المكاسـب المعنوية من التغطية الإخبارية.

لقد كان أكثر من مجرد سؤال نظري وفقاً للمقياس السلوكي. ففي حرب إعلامية، يكون للمقاربات الصحافية نتائج سياسية. لقد رأيت ذلك يحـدث خـلال الهجـوم الإعلامـي الأكثـر عنفـاً الـذي لم أشـهد له مثيلاً

- فشل مفاوضات السلام في كامب ديفيد -. ففي صيف العام 2000، تحدّث القائدان باراك وعرفات آنذاك عن السلام. تعثّرت المفاوضات، وقدّمت الحكومة الإسرائيلية على الفور قصة مُعَدّة بشكل جيد: «بسخاء غير مسبوق»، عرض باراك إعادة أكثر من 95 بالمئة من المناطق المحتلة؛ إن الرفض الفلسطيني لهذا العرض أثبت أنهم لم يكونوا يريدون تحقيق السلام في المقام الأول؛ إن هدفهم الوحيد تدمير إسرائيل. بعد مدة قصيرة، اندلعت الانتفاضة الثانية، وأُدخلت إلى الرواية الإسرائيلية: إنهم يخوضون معركة مفتوحة الآن. كل ما كان باستطاعة الناطقين الرسميين الفلسطينيين القيام به هو ارتجال تلفيقات عن «الجرائم الإسرائيلية البربرية» و«الشرعية الدولية» أي الثرثرة المألوفة.

بعد عام تقريباً، كشف مسؤول أميركي سابق عن تفاصيل تتناول كامب ديفيد. لقد ثبت في النهاية أن نسبة «95 بالمئة» لا تشمل القدس الشرقية والمناطق المحيطة بالقدس الغربية التي لم تُعتبَر محتلّة. ونسبة الخمسة بالمئة التي تمسكت بها إسرائيل مؤلَّفة من قطاعات مستطيلة الشكل تمر عبر فلسطين، وتحوّل المدن الفلسطينية إلى ثوب مرقَّع وليس إلى منطقة قابلة للسكن لأن الحدود أيضاً تبقى في أيدي الاسرائيليين. كما علّق أحد الدبلوماسيين: «السجناء يسيطرون أيضاً على 95 بالمئة من مساحة السجن».

لقد كان «العرضَ السخي غير المألوف» الذي تقدّمت به الحكومة الإسرائيلية، ولكن الناطقين الرسميين الفلسطينيين لم يعطوا أبداً تفسيراً لقيام قائدهم برفضه، ناهيك عن سرد روايتهم الخاصة عن كامب ديفيد. كانت النتيجة تضاؤل عدد الناشطين الإسرائيليين في ميدان السلام؛ لو كان الفلسطينيون يريدون السلام، لماذا رفضوا العرض الإسرائيلي السخي غير المألوف؟

كان للعرض غير الملائم لوجهة النظر الفلسطينية عواقب سياسية، ولم يكن حادثاً معزولاً. ففي ربيع العام 2002، عرضت الجامعة العربية سلاماً تاماً مع إسرائيل في مقابل انسحاب كامل من المناطق المحتلة. كانت هناك نقطة عالقة (حق الفلسطينيين بالعودة)، ولكنها المرة الأولى في التاريخ التي تتقدّم فيها الجامعة بعرض مماثل. في ذلك المساء عينه، احتلت حماس العناوين الرئيسية بسبب ارتكابها هجوماً كبيراً على إسرائيل، وبعد ذلك لم تأخذ اسرائيل والولايات المتحدة الاميركية بما عُرف بمبادرة السلام العربية. لم يتناول الإسرائيليون النقطة العالقة ولم يطرحوا عرضاً مقابلاً بل تجاهلوا الأمر كلّياً. فمن دون وجود جماعة ضغط إعلامية قوية في الغرب، لم تتمكن الدول العربية من إعادة العرض إلى الأجندة، ولم يعُد يُذكَر البتة في النشرات الإخبارية الغربية، وأُطلق العنان لحماس في وسائل الإعلام العربية؛ لماذا تجاهلت إسرائيل والغرب السلام لو كانوا يريدونه؟

في أوقات مماثلة، ترى الهوة العميقة بين الشرق والغرب، وبين إسرائيل والفلسطينيين. هل كان يُفترض بي التدخل والقول إن الناطق الرسمي الإسرائيلي يزوّر الوقائع؟ وإن الناطق الرسمي الفلسطيني قد لا يكون بالإمكان فهمه، ولكن ما عناه بـ«الشرعية الدولية» هو...؟

مع ذلك، يحتمل الأمر مزيداً من الاجتهاد. لقد قيل في غالب الأحيان إن النزاع غير قابل للحل، وإنه مقدَّر لليهود والمسلمين التقاتل. ولكن لماذا نجحوا في الاتفاق والانسجام طوال أكثر من ألف عام؟ ففي العصور الوسطى، كان العالم الإسلامي المكان الوحيد الذي يشعر فيه اليهودي بالأمان (باستثناء هولندا). وحتى منتصف القرن العشرين، كان هناك ملايين اليهود المقيمون في العالم العربي، وتركيا، وإيران.

وكانت تكنولوجيا إنشاء غرف الغاز متوافرة منذ زمن، ولكن المسلمين لم ينشئوها قط.

لدى التحدث إلى الفلسطينيين والإسرائيليين العاديين، كنت ألاحظ على الدوام طريقة تحدّثهم عن بعضهم بعضاً بتعابير مماثلة تقريباً: «إنهم يكرهوننا».

«حسناً»، كنت أقول. «هل تكرههم أيضاً؟»

«بالطبع لا»، يكون الجواب. «نريد السلام».

لـم أحصـل علـى هـذه الإجابة عشـر مـرات، ولا حتى مئة مرة، بل كلما سـألت أحد الجانبَين عما إذا كان يكره الجانب الآخر. لقد بدت لي المشكلة أن أحداً لا يجرؤ على إظهار خوفه، ولا يريد من الجانب الآخر أن يظن أنهم ضعفاء، وقد أدى هذا الأمر إلى هبوط حلزوني إذ يفسّـر أحـد الجانبَيـن دفـاع الجانـب الآخر عن نفسـه أنه اعتـداء، فتتعزز مكامن القلق لديهما، وهكذا دواليك.

فإذا أردت إيقاف هذه الدورة، سيكون عليك مزاولة نوع مختلف مـن الصحافـة. فالصحافـة لـن تكون مقتصرة على الإعلان عن الأهداف المسجَّلة مثل 8-1 ولن تعلّق أهمية على سبب الخسارة الكبيرة التي مُني بها هذا الفريق أو ذاك، بل هي تشرح كيف انتهى الأمر باللاعبين الإثنين والعشرين منقسمين إلى فريقين وما الذي يمكن القيام به حيال ذلك. لو كانوا فريقاً موحَّداً لما حصلتَ على ناطق رسـمي غاضب بلسـان أحد الفريقَين في مواجهة ناطق رسمي غاضب بلسان الفريق الآخر، بل على شخص منتمٍ إلى حركة السلام؛ ولوقع عمل عنفي ليس رداً على عمل عنفي آخر يتبادل فيهما الضحايا والمرتكبون الأدوار، بل رداً على قصة موحية تقول إن 99.99 بالمئة من الفلسطينيين والإسرائيليين لم يرتكبوا أي عمل عنفي في ذلك اليوم.

قد يكون الخوف توقاً يتحقق بذاته، ولكن يمكن للأمل والثقة أن يكونا كذلك أيضاً. ما الذي يحدث لو توقفت النشرات الإخبارية عن عرض مشاهد مسبِّبة للخوف إفساحاً في المجال أمام عرض أمور دنيوية توحي بالأمل والثقة؟ وكم عدد الأشخاص الذين سيستمرون بفقدان السيطرة على أعصابهم إذا عرفوا أن أحداً لن يسمع عن تضحياتهم لأن وسائل الإعلام تتجاهل الأمر؟

مع ذلك، لم أحاول أبداً طرح وجهة نظر موازِنة، ولكنني كتبت مرة واحدة فقط عن الأمر في صفحات الرأي. لقد امتنعت عن ذلك لثلاثة أسباب، أولها وجهة نظري الخاصة عن الصحافة: لو أردتُ تغيير العالم بدلاً من إظهار حقيقته، لعبّرت عن وجهة نظري وأصبحت فنّاناً. أعرف زملاء صحفيين قاموا بذلك، كما أعرف ناشطين قاموا بخطوة معاكسة. «كل شيء يبدأ مع وسائل الإعلام»، قالوا. «نحن نأتي في الدرجة الثانية».

يُظهر هذا التعليق قلة المعلومات التي يملكها بعض الناشطين لصناعة الخبر. وعدم رغبتي في إجراء أي تعديلات أو طرح أي وجهة نظر موازِنة هي السبب الثاني: يستحيل تقريباً القيام بذلك. فالفكرة الشائعة عن المراسلين هي أنهم «يملكون القصة»، ولكن الخبر هو حزام ناقل في مصنع للخبز في الواقع. فيقف المراسلون عند نهاية الحزام الناقل، مدّعين أننا خبزنا ذلك الرغيف الأبيض بأنفسنا، في حين أن كل ما قمنا به في الواقع هو تغليفه.

خذوا تلك اللقطات التلفزيونية الفيديوية التي يضيف فيها المراسلون - على غراري - صوتهم إلى المشاهد: «يوم دموي آخر في الشرق الأوسط. لقد قتلت إسرائيل خمسة فلسطينيين اشتُبه بارتكابهم

أعمال إرهابية. ووفقاً للسلطة الفلسطينية، كانوا رجال شرطةٍ عاديين». فالمحررون وليس المراسلون هم من يتخذون القرار في شأن معالجة هذا الموضوع بالذات. لقد زوّدتهم وكالات الأنباء بقصة جاهزة مع نص تمهيدي، وصور، ومعلومات إضافية. ويعقد المحررون اجتماعاً لمناقشة القصة، وعندها فقط يتم الاتصال بي. ويمكنني اقتراح مواضيع، ولكن القرار يعود لهم في النهاية، وتستند الصور المرافقة في المقام الأول على المواضيع التي اختارتها وكالات الأنباء والسي أن أن.

يتبقى لديّ منبر واحد يمكنني من خلاله سرد نسختي الخاصة عن الحدث للرأي العام: مداخلتي خلال نشرة الأخبار التلفزيونية. «إلى مراسلنا في القدس. جوريس، ما هي نتائج عملية السلام؟» في هذه الحالة، يتعيّن عليّ توفير إجابات مُسبَقة عن الأسئلة المطروحة في هذه الحوارات، لذلك يكون النص المختار من مسؤوليتي. مع ذلك، يتأكد رئيس التحرير من أن تكون روايتي للحدث مرتبطة بالخبر، وما الذي يمكنك إخباره في ثلاث دقائق وخمس وأربعين ثانية؟ يمكن لقارئ الصحيفة التحديق بالسقف، والتفكير ملياً، وإعادة القراءة، والتفكير ثانيةً، وإكمال القراءة. أما بالنسبة إلى الأخبار التلفزيونية الكلّية القدرة، فيلقى بكل شيء إليك في وقت واحد، ولا يلفت حديث الرأس المتكلم نفسه لمدة سبع دقائق انتباه أحد، ولا حتى انتباه الرأس المتكلم نفسه. ويمكنك مراجعة نص مكتوب، وعرضه على أحد الزملاء، والتخلّي عنه في النهاية. أما في مداخلة، فعليك تفادي الخطأ منذ محاولتك الأولى حتى وإن كنت تدرك أن الجمهور لا يعرف شيئاً عن الموضوع، عِلماً أن زلّة لسان واحدة قد تحوّل انتباه المشاهدين عن فكرتك الرئيسية. وتعلم أيضاً أن ممارسي الضغوط وواضعي الرسائل الغاضبين يجلسون أمام التلفاز مع رُزم من الأوراق ومسجّلات أقراص دي في دي جاهزة للعمل.

يقـول لـي زملائـي فـي المحطـة التلفزيونية إنك لا تسـتطيع إجراء مداخلـة جيـدة إلا بالممارسـة وإنـه علـيّ تعلّـم كيفيـة التطرق إلى جوهر الأمـور. فهـذا بالتحديـد مـا تقـوم عليه الحـرب الإعلامية. هل إن جوهر المشكلة الاحتلال أم الإرهاب؟ هل تدور الحرب لأجل الأمن اليهودي أم الحريـة الفلسـطينية؟ لقـد أصبحـت متمرّسـاً بهـذه القضية في الواقع، ولكـن الأمـر مرتبـط بالموافقـة على الإعلان عن عدد الأشـخاص الذين طالهم الانفجار، وليس على التطرق إلى سبب الانفجار.

السـبب الثالـث لعـدم محاولـة طـرح وجهة نظـر موازِنة هو الأهم: لـم أعُـد أفهـم الوضـع. لقـد بـدا لـي أن إسـرائيل تحصد كل شـهر كافة جوائـز الأوسـكار تقريبـاً فـي هـذه الحـرب الإعلاميـة، ويمكنـك القول إنـه كان يُفتـرض بـي إيجـاد ثِقـل مـوازن لهذا التفـوق. هناك على الدوام مواطنون بارزون في الميدان السياسـي أو في وسـائل الإعلام الهولندية مستعدون لشرح الأحداث من المنظور الإسرائيلي. فإذا فاز حزب العمل في الانتخابات، يقولون إن إسـرائيل اختارت السـلام؛ وإذا فاز الليكود، يقولون إنه سيكون باستطاعته تحقيق السلام بسبب تشدّده. كنت أصادف بانتظام أموراً مماثلة في المقالات: «قلبي مع الشعب اليهودي، ولكنني أظـن أيضـاً أنـه يجـب إيجـاد حـل للفلسـطينيين». ونادراً ما كنت أسـمع العكس: «قلبي مع الفلسطينيين، ولكنني أظن أيضاً أنه يجب إيجاد حل لليهود». فمناقشة حق إسرائيل بالوجود هو أمر محظور عملياً في هولندا، في حين أن طرح مسألة ما إذا كان يُفترض بالفلسطينيين الحصول على دولة هو أمر مقبول تماماً.

كان انطباعـي الأول أن هولنـدا مواليـة لإسـرائيل. ولكـن في عامي الأخير كمراسـل، سـمعت هولنديين بارزين يقارنون إسـرائيل بالنازيين،

وأظهر استطلاع رئيسي للآراء في أوروبا أن نسبة كبيرة من أولئك الذين طُرحت عليهم أسئلة اعتبروا إسرائيل «أحد أكبر الأخطار المُحدقة بالسلام العالمي». ما الذي يجري؟ ما هو التحريف الرئيسي في الأراضي المقدسة في الواقع، الخطوات الإعلامية المتّخَذة من قِبل النظام الإسرائيلي، أم التركيز غير المتناسب على الانتهاكات الإسرائيلية لحقوق الإنسان التي توحي للناس كما يبدو بالفكرة القائلة إن أموراً مروِّعة حقاً تجري في الأراضي المقدسة؟

هكذا، وبعد مقارنة أخرى بالنازيين، كتبت لمرة واحدة فقط مقالة غاضبة في صفحات الرأي. كنت بحاجة في الواقع إلى التنفيس عن اعتقادي أن هذه المقارنة لا صلة لها أبداً بالفكرة الرئيسية وأنها تزيد فحسب من خوف اليهود الإسرائيليين على وجودهم. وكنت قلقاً أيضاً من أن يكون عملي الخاص قد أسهم في رسم صورة إسرائيل كالدولة الأكثر تسبباً بالأذى في الشرق الأوسط. لقد كتبت صفحات وصفحات عن الانتهاكات الإسرائيلية، ولكن نادراً ما كان يجري العرض لأعمال القمع والمجازر الأكثر بشاعة التي ارتكبها الحكام في المناطق المجاورة، أو يتم التخفيف من حدّتها كثيراً.

لهذا السبب، شعرت بالحاجة إلى الإشارة إلى أن النازيين قتلوا يهوداً في شهر واحد أكثر من الخسائر البشرية التي مُني بها المدنيون الفلسطينيون في نصف قرن؛ وأن النظام الإسرائيلي لم يحاول أبداً إبادة الفلسطينيين؛ وأن الصحافة الإسرائيلية والسياسيين الإسرائيليين «يجرّدون حقاً الفلسطينيين من صفاتهم الإنسانية» ويعتبرونهم مجموعة وضيعة من الناس؛ ولكن ملايين العرب الاسرائيليين في إسرائيل ينعمون بحكم القانون أكثر مما ينعم به العرب المقيمون في أي مكان آخر من المنطقة. لقد انتهكت إسرائيل القوانين، ولكن حكام المنطقة لا يملكون

أي قوانين. فمن الأفضل لك أن تكون عربياً في ظل حكم إسرائيلي على أن تكون كردياً في ظل حكم صدام حسين.

كانت مقالة قوية، وأسفت على نشرها على الفور. فهي لم تولّد ردود فعل غاضبة فحسب: «بأي حق يعتقد مراسلكم أن عليه تشخيص الخوف الموجود في قلوب اليهود على وجودهم؟» بل إن محرراً صحافياً ربّت على ظهري في حفل عشاء وقال: «ذلك التعليق الذي كتبته عن تمتع الفلسطينيين بحقوق في إسرائيل أكثر من أي بلد آخر في المنطقة كان مفيداً لي جداً. أحسنت!» فشحب وجهي، وقلت إنني كتبت عن الواقع القانوني للعرب الإسرائيليين وليس عن الفلسطينيين في المناطق المحتلة. ولكن الرجل لم يستمع إليّ البتة. كانت الحرب الإعلامية مجرد مباراة بالنسبة إليه، ووجهة نظره ثابتة، ويبحث عن حجج تدعمها.

لم يُحدث الأمر أي فرق لأنني كنت قد أرسلت تقريري، وكنت أنتظر طبق التحلية بعد تلك السنوات المثيرة الخمس أي الاجتياح الأميركي للعراق.

الفَصْل الثَاني عَشر

منافٍ للعقل وغير مألوف

يتحدث العرب عن القشة التي قصَمَت ظهر البعير، ويتحدث الهولنديون عن القطرات التي أفاضت دَلو ماء. لم يكن هناك ما يُعيقني، ولكنني شعرت فجأةً بوجود ما يكفي من الأمور التي تحملني على التفكير مليّاً، وقررت التوقف. فبعد كل هذه السنوات، أردت العيش مجدداً في وطني لمدة من الزمن. وسألني شخص من فريق التحرير عن السبب؛ ألن أتمكن من التعاطي مع الأمر؟ كان جوابي لا.

لم يكن الأمر كذلك، أو ربما كان كذلك. فما لم يعد باستطاعتي التعاطي معه هو أنني أتحسن في التعاطي مع الأمر. لقد أطلعتني الأراضي المقدسة على ما تعانيه من ظُلم وجَور، وما تتعرض له من حماقات، وعلى الخوف المُهلك الذي تشعر به. في البدء، كنت شديد الاهتمام بهم، ولكن هذا الاهتمام زال بعد مدة من الزمن. بعد ذلك، اكتشفت أن اعتيادي على الأمر لا يمكن القبول به؛ حتى زال هذا الشعور أيضاً. في لحظة وضوح، سألت نفسي عن مدى استعدادي لأكون فاقد الحسّ.

في مرحلة مُبكّرة، تعرّضت لصدمة كبيرة في الأراضي المقدسة.

كنت غاضباً من المقاومة الشديدة التي أبداها العديد من الإسرائيليين حيال اعتبار أنفسهم مرتكبين أيضاً؛ ومن ممارسة التمييز العرقي بحق العرب؛ والقومية الهستيرية التي تُبديها الدولة اليهودية من حين لآخر... كنت غاضباً أيضاً من واقع أن التلفزيون الفلسطيني يكرر إلى ما لا نهاية صور الأطفال الدارجين الذين تحوّلوا إلى أشلاء بعد تعرّضهم لإطلاق النار.

أنت تعتاد أيضاً الشعور بالعزلة. فغالباً ما كان ينمو لديّ انطباع بأنني أخطو في عالمَين متوازيَين: تصوّري للواقع، التصور الفلسطيني، التصوّر الإسرائيلي، وتصوّر وسائل الإعلام الغربية. وتبدّلت كلماتي من دون أن يلاحظ أحد ذلك من أخرق ومخبول إلى منافٍ للعقل وغير مقبول. وظهرت خبرتان خاصتان.

كانت إسرائيل تُقيم حواجز على الطرقات بانتظام داخل المناطق الفلسطينية. فيقول مذيع الأخبار أمراً مماثلاً: «بعد الهجمات، ضاعفت إسرائيل على الفور تدابيرها الأمنية» مرفَقة بمشاهد لجنود يدقّقون ببطاقات هويّة الفلسطينيين. وغالباً ما كنت أقف في شارعي وأراقب أحد حواجز الطرقات تلك. كانت السيارات الفلسطينية تصطف لساعات أحياناً. ومع ذلك، وعندما تبلغ السيارة مركز التفتيش، لم يكن الجنود الإسرائيليون ينظرون إلى داخلها. لم يكن يتم تفقّد الصندوق أو أي مكان آخر يمكن للشخص إخفاء متفجرة فيه. وكان بإمكان المشاة عبور الحاجز من دون إبراز بطاقات هويتهم. ويزداد الأمر غرابةً. ففي حين تكون حركة المرور معرقَلة بسبب صف طويل ومتعرّج من السيارات المتوقفة عند الحاجز، يخترق صف آخر من السيارات المنطقة المجاورة. هنا، يشق السائقون طريقهم عبر أزقّة ضيّقة مما يؤدي إلى ازدحام. وفي النهاية، يتطلب اجتياز الطريقين الوقت نفسه تقريباً، وكان يسهل مقارنتهما لأن

المنعطَف غير السرّي ينفذ إلى ما بعد الحاجز على بُعد مئة وخمسين متراً منه، وبمرأى من الجنود الإسرائيليين ومني.

هذه هي التدابير الأمنية التي عطّلت حياة الفلسطينيين العاديين، مع ما يستتبع ذلك من عواقب مُهلِكة لأن سيارات الإسعاف تُحتجَز أيضاً. كنت أصف بلا انقطاع حقيقة هذه الحواجز، ولكن بما أن وكالات الأنباء تعتبر حواجز الطرقات تدابير أمنية، فقد استمر محررو البرامج الإخبارية التلفزيونية المؤثِّرة برؤية هذا الواقع ونقله إلى العالم من منظار مشوَّه.

كنت أقوم أحياناً بنزهات في أرجاء رام الله للوقوف على الجوّ السائد. هل هناك سيارات باهظة الثمن في الشارع؟ هل هناك كثافة سيارات؟ بأي نوع من النظرات يرمقك الناس؟ في إحدى هذه النزهات، مررت بفندق سيتي إن حيث كنت أقصد المنطقة في أغلب الأحيان لتغطية «الاشتباكات بين رماة الحجارة الفلسطينيين والجيش الإسرائيلي». لكنه كان مُقفِراً لأنه لم يكن باستطاعة أي جندي إسرائيلي دخول رام الله حينذاك، وفندق سيتي إن قائم عند حدود المدينة. لم أكن أعرف من الذي قدِم أولاً، ولكن جيبات عسكرية إسرائيلية ظهرت فجأةً على التوالي - لا بد من أنه كان عليهم مغادرة حواجزهم للقيام بهذا الأمر بالتحديد، وتلاها بعد ذلك تلاميذ فلسطينيون قطعوا مسافةً كبيرة من مدرستهم سَيراً على الأقدام، وظهر عدد قليل من المتفرّجين، وسيارة إسعاف، ومنصة لبيع الفلافل، وفريق تصوير. ومن ثم، بدأ الفتيان برمي الحجارة، وقام الإسرائيليون بإطلاق النار في الهواء. فجرؤ الفتيان على الاقتراب، وأطلق الجنود الإسرائيليون النار على أحدهم وأردوه، وسيارة الإسعاف تَعول، والفتيان يصيحون، والكاميرات تصوّر.

مرحباً جميعاً! هل كانت الكاميرات هناك لأن أمراً ما يحدث، أم أن أمراً ما حدث لأن الكاميرات كانت هناك؟ كنت أشعر أحياناً كما لو

أنني أعمل لصالح برنامجَي سباي تي في أو كانديد كاميرا. فالمنتجون والمشـاهدون يعرفون ما لا يعرفه الناس الذين يتم تصويرهم، وهو أمر مضحك. فالنشـرات الإخبارية في الشـرق الأوسـط متماثلة أيضاً ولكن مـن منظـور مختلـف مـن زاويـة خمس وأربعين درجة. فـي هذه الحالة، يظهـر المنتجـون واللاعبون على شاشـات المشـاهدين فـي المنازل. في الدول العربية، لا يكون المراسلون راغبين في الكشف عن الأمور التي لا يعرفونها، ولكن المراسلين في إسرائيل والأراضي الفلسطينية المحتلّة يُبقون أفواههم مُطبَقة حيال الأمور التي يعرفونها. بأي حال، لم أقرأ أبداً ولم أسمع بتصريح مماثل: «اقترحت الحكومة الإسرائيلية أن نُظهر هذا المسـتوطن على الهواء مباشَـرةً» أو «وفّرت السـلطة الفلسـطينية لنا هذا النسيب الناجي».

لم يكن باستطاعتي الشعور بالاستياء من الأمر، كما أن ذلك الشعور بالعجز أصبح عادياً جداً. كان الناس في الأراضي المقدسة يعانون، وقد لاحظت ذلك من خلال طريقة عبورهم الشـارع، وفي نظراتهم التي لا تحمـل أي تعبيـر فـي الحافلـة، ومـن خلال طريقة صدم عربات التسـوّق الخاصة بهم بعربتك... أو بكيفية قيام السـيدات المسـنّات الإسـرائيليات بعبور الشـارع بمشـية متعثّرة عندما يقترب شـخص ذو ملامح عربية، أو بكيفية إخفاء التلاميذ الفلسـطينيين خوفهم عندما تحلّق طوافة إسـرائيلية فـوق رؤوسـهم، لأن الخـوف لـم يكـن مكبوحاً. كانت وجوه العديد من الأشـخاص تسـتصرخ حلاً، ولم يكن بإمكاني القيام بأي شـيء. وكان آخرون - مستوطنون، ناشطون في ميدان السلام، أصوليون من المنطقتين - يبذلـون مـا بوسـعهم لفـرض حلولهـم، وكلهم يعرفـون ما الذي يتعيّن عليهم القيام به ويعتبرون أن عدم الثبات على مواقفهم يستدعي غضب الله؛ فكلما دفع أحدهم بقوة في اتجاه، يدفع الآخر بقوة أكبر في الاتجاه

الآخر. كان الأمر مُرهقاً لمدة من الزمن، ولكنني اعتدته.

يستجيب الناس للتهديدات بالقتال أو الفرار، ولكن الصحفيين لا يقومون بأي من الأمرين، مما يعني أنه كان عليّ إنكار الواقع وبعض الإشارات التي يرسلها دماغي. شرعت في عملي كشرطي مُرهَق يتجاهل مشكلةً ما في الحيّ، فينجح الأمر لفترة وجيزة، ولكن الخروج عن القانون ينتشر حتماً من شارع إلى شارع ويطال المدينة بأكملها. لا بد من أنني واجهت أمراً مماثلاً أيضاً. أولاً، لقد توقفت عن الشعور بالخوف، ولكن نواحيَ أخرى من جهازي العاطفي تحركت بعد استمرار التهديد. لقد أخبرني صديق في لبنان أن الحرب الأهلية عطلت حسّه بالواقع بشكل دائم. فقال لي: «لتنجو، عليك إقناع نفسك أن الواقع مختلف عما هو عليه في الحقيقة. فينجح الأمر وتنجو. ولكن كيف تكتشف بعد ذلك ما كان عليه ذلك الواقع... وما هو عليه؟»

في العام الذي قضيته هناك، قُتل مزيد من الصحفيين في الأراضي المقدسة أكثر من أي مكان آخر. ففحصت فئة دمي، وتعلمت كلمات إنكليزية جديدة مثل قنبلة عنقودية، ورصاصات طائشة، وتأمين ضد مخاطر الحرب؛ لا تغطي البوليصة «أضرار الحرب»، لذلك كان عليك دفع مئات اليوروات كتأمين شامل. وحصلت على سترة واقية من الرصاص وخوذة، ولكن تعرف كيف يكون عليه الحال. فتلك الأشياء ثقيلة للغاية، وسرعان ما تمثّلتُ بمعظم زملائي الصحفيين، عندما تقوم الكاميرات بالتصوير، أعتمر خوذتي وأرتدي سترتي، ومن ثم أضعهما في السيارة. لقد شعرت كما لو أن قرداً يرتديهما ويتنقل وسط الفلسطينيين الذين لا يرتدون أي وسيلة للحماية.

هكذا اجتزت دورة العنف بسلام. وأرى الآن أنني نجوت من تلك

المرحلة كما لو أن السترة الواقية من الرصاص لم تكن ضرورية، وأن كل شيء ليس سوى استعراض، إنتاج مسرحي غير محترف يتعيّن عليّ الارتجال فيه. كان دوراً ذهنياً استمريت بلعبه مهما حدث.

كنت أقيم في منزلي الجديد في القدس الشرقية قبل أسابيع قليلة عندما حصل انفجار عند تقاطع طرق على بعد 150 متراً من منزلي. كان الهدف موقفاً للحافلات ينتظر فيه المستوطنون نقلهم إلى منازلهم. فوقفت هناك على سطح منزلي أشاهد الفوضى العارمة التي عمّت المكان وقفت والهاتف الخلوي بيدي أُجري بواسطته اتصالاً بالاستوديوهات: «ماذا قلت؟ أمام بابك مباشَرةً؟ انتظر قليلاً، سأسأل الرئيس... يقول إنه إذا كان هناك العديد من الإصابات سنقوم بأمر ما حيال ذلك، ربما بعد السادسة والنصف؛ يعتمد الأمر على ما إذا كان ذلك النقاش البرلماني سينتهي في تلك الفترة أم لا... تباً، آسف، هناك من يتصل. إنها جاكرتا، حظاً سعيداً، آه».

بعد أسبوعين، انفجرت قنبلة أخرى في المنطقة، واستُهدف تقاطع الطرق نفسه ثانيةً. في المرة الأولى، لقي مرتكب الهجوم حتفه بمفرده، وأصيب خمسة وعشرون شخصاً بجراح. في المرة الثانية، قُتل سبعة إسرائيليين مع المهاجم، وعثر جاري على يد في حديقته. «اخرُج من هناك»، قد تقول في نفسك، ولكن بدلاً من حزم حقائبي، درست السلوك والشعائر المرافقة لهجمات مماثلة كما يفعل عالم الإنتروبولوجيا.

لقد بدأ الأمر مجدداً من السكون، وعلَت من ثمّ صيحات الناجين، وسُمع صوت صفارات الإنذار التي انطلقت من كل مكان وكأن المدينة برمّتها تصرخ ألماً. في العادة، يكون أشخاص من «نجمة داود الحمراء» أول من يصلون إلى المكان. ويضع هؤلاء المتطوعون في الصليب الأحمر اليهودي قطعاً طويلة من القماش بجانب الجرحى لتعلم الفِرق

الطبيـة مـن يتعيّـن عليهـا معالجتـه فـي المقـام الأول؛ الأحمر يشـير إلى الوضع الحرِج للمصاب، والأسود يعني أن المصاب متوفٍّ. «عليك أن تقرر في جزء من الثانية من الذي ستقوم بمحاولة إنقاذه»، قال لي أحد المتطوعين، «ومن الذي لن تحاول إنقاذه». وتقوم الشرطة بوضع أغطية على الجثث، في حين يُدلي الناطقون الرسميون الذين يكونون قد وصلوا بسـرعة فائقة بتصاريح لفِرق التصوير الذين يكونون قد وصلوا بالسـرعة نفسـها. بعد ذلك، يصل عدد قليل من الناشـطين وهم يُطلقون هتافات: «الموت للعرب، لينتصر الجيش، لا عرب يعني لا إرهاب». وبعد عودة كل هؤلاء الأشخاص إلى منازلهم لتناول العشاء، يصل فريق الزكا، وهي منظمـة يهوديـة مؤلفـة مـن متطوعين يجوبون المنطقة المجاورة للحادث بحثاً عن أعضاء، وأطراف، لا بل بُقع دماء أيضاً، ويقومون بدفنها وفقاً لقوانين دينهم. ويتولى الجهاز المولَج مهمة صيانة البنية التحتية بإزالة آثار التفجير المتبقية بسـرعة فائقة بحيث يكون باسـتطاعتك المرور بالمكان في اليوم التالي من دون رؤية أي أثر.

لمـاذا لـم أغـادر؟ فـي كتابه من بيروت إلى القدس، يناقش توماس فريدمـن، مراسـل الـنيويـورك تايمـز، الحـرب الأهليـة اللبنانيـة الدموية. فيصف عشاء أنيقاً تسأل فيه المضيفة السؤال التالي: «هل نتناول الطعام الآن أم ننتظر وقف إطلاق النار؟» لقد أصبحت الحرب والإرهاب أمرين طبيعيَّين: تخصص لهما مكاناً في حياتك لأن هذا ما يقوم به الآخرون. وقال فريدمن إنه سـبب عدم مغادرة اللبنانيين بينما تتطاير الأطراف في الهـواء، أطـراف الأشـخاص الذيـن كانـوا قـد قالوا لشـركائهم في صباح ذلـك اليـوم الأمـر التالـي: «لا تقلـق بشـأني، يا حبيبي. تعـرف أنني دائم الحذر».

كان الخطر يحدق إليّ باستمرار بالرغم من احتراسي، ولكنني أصبحت أقل اهتماماً به. كنت أعلم أن الناس يموتون كل يوم، ولكنني تعلمت الاتفاق مع الحاصد المروِّع. وقد منحني هذا الأمر روح التحكم بزمام الأمور وشعوري بالأمان؛ ما دمت لا أفكر فيه بالطبع. فهل يُفترض بي أن أقود سيارتي إلى المنزل من مطار بن-غوريون سالكاً الطريق عبر إسرائيل التي تشهد ازدحاماً كبيراً أحياناً طوال ساعات، أم يُفترض بي سلوك الطريق الخاصة بالمستوطنين اليهود التي تعبر المنطقة المحتلة؟ فهذه الأخيرة توصلني إلى منزلي بسرعة أكبر، ولكن هناك قنّاصة فلسطينيون في محيطها لا يتحققون أولاً مما إذا كان مستوطن يهودي يقود السيارة أم لا؛ يكتشفون ذلك في وقت لاحق من خلال نشرات الأخبار. من جهة أخرى، ما هي فرص عدم تعرّض سيارتي لإطلاق النار؟ هل يُفترض بي أن أستقل سيارة أجرة إلى شاطئ تل أبيب، أو الحافلة الأرخص أجراً بعشرة أضعاف، عِلماً مني بوجود إمكانية تبلغ نسبتها 0.0001 بالمئة لإصابتها بشظايا؟ هل يُفترض بي التوجه إلى المتجر الفلسطيني الذي لا تتوافر فيه كل السلع وأسعاره مرتفعة، أم إلى السوبرماركت الإسرائيلي الأرخص سعراً حيث تتوافر كل السلع، ولكن هناك إمكانية ضئيلة ليكون هدفاً لاعتداءات؟

هذا هو الوضع الحذر الذي أقحمت نفسي فيه، ولكل شخص طريقته الخاصة لإتمام أعماله. لقد دعاني أحد الأصدقاء، وهو عالم فيزياء نظري، إلى العشاء ذات مرة في القدس الغربية اليهودية؛ غير الآمنة. كيف يُفترض بمراسل صلب العود الاستجابة للدعوة؟ فشعر بترددي وطمأنني قائلاً إنه يعرف ما الذي يقوم به. فتنقّلنا بالسيارة في القدس الغربية، وعندما مررنا بجانب مطعم ذي نوافذ ضخمة بالقرب من الطريق صاح قائلاً: «ذلك المكان هو الموت بحد ذاته! انظر، يسهل دخوله؛ لا

بد من أن يكون الناس الذين يتناولون الطعام فيه انتحاريين!» فوفقاً لما يقولـه، يملـك المهاجمـون لائحـة بالأماكن التـي يمكن تفجيرها. «يتنقل أحد هؤلاء الأشـخاص في الأرجاء بالسـيارة مدوّناً الأهداف المحتمَلة. حسناً، لقد حصل ذلك المطعم على نجمة!» وعدّد المعايير لوجبة آمنة: يُفتـرض بالمـكان أن تكـون مأكولاتـه لذيـذة، وأن يكـون الحاجب واقفاً بعيداً عن متناوِلي العشاء وإلا اكتفى المهاجم بالارتماء عليه لاستهداف المتواجدين في المكان. ومن المساعد أن يكون هناك عرب إسرائيليون أيضاً داخل المطعم، ويُفترض تجنّب الطوابق السفلية والأماكن المغلَقة لأن الانفجـار الـذي لا يجـد متنفّسـاً لـه إلى الخـارج يُحدث دوياً كبيراً، ولهذا السبب، يفضّل المهاجمون الأزقة الضيّقة على الساحات. وبينما كنا نتناول الطعام، قال لي صديقي بعد ساعة ونصف من مناقشة مباريات كرة القدم، والنسـاء، وقوانين الجاذبية، إنه تناول القهوة في الأسـبوع السـابق في المقهى المحلّي، ودفع وغادر، وسمع بعد ذلك دويّاً واستدار، فرأى انفجاراً. «لم أكن أتوقع ذلك»، قال، «ولكنه أمر منطقي. فمكتب رئيس الوزراء موجود في المنطقة، أرادوا توجيه رسالة. كان يُفترض بي التفكير في ذلك».

كل شيء مختلف في ظل الإرهاب، ولكن الأمر لن يكون كذلك مـرة أخـرى؛ فلـدى إعـادة التفكيـر فـي مـا حدث، يتبيّن أنـه الأمر الأكثر تسبباً بالذُّعر. وبالرغم من التهديد الدائم، كانت تراودني الأفكار التافهة نفسـها كالعـادة. هـل يتبقـى لدى الجـزار بعض لحم الدجاج الخالي من العظام؟ هل أغظْت زوجة السـفير بسـلوكي المخمور؟ هل سـخر مني مالك المرآب ذاك؟ وقد ينتقل موضوع الحديث في حفلة للمغتربين من الرياضات ليتناول تلميحات عن المقاهي الموجودة في أماكن آمنة بعيدة عن الأنظار، أو عن طريق خلفي لم يتواجد أي قنّاص على امتداده، أو

عـن مقهـى اتخـذ تدابيـر أمنيـة جديدة. ولا تتصل لتقول إنك نجوت من هجوم لأنه يتم إيقاف عمل شبكة الاتصالات بعد ذلك، ولكن الرسائل النصيّة تُرسّل من دون أي مراقبة. وكانت هناك النبرة نفسها المعتمَدة في أمستردام، والمَيل نفسه للتفوّق على الضيوف الآخرين بأحدث الأفكار المثيرة. وهناك أيضاً قلق دائم ينكر الجميع وجوده. كنت شديد الحماسة للإنكار، وقد انسحب ذلك على عملي.

قضيت مدة من الزمن في رفح في قطاع غزة. فما يزال بإمكاني أن أتصور نفسي أومئ برأسي لزميلي وهو يصرخ بغضب: «لنخرج من هنا. لنخـرج مـن هنـا الآن!» أجـل، أجـل، وأومأت برأسـي مرة أخرى، دعني أنهي هذا الاتصال الهاتفي فحسب؛ تعرف مدى صعوبة الحصول على اتصـال دولـي فـي غـزة. لكـن العيـارات النارية القريبـة ازدادت ضجيجاً بحيث غدا من المسـتحيل إجراء محادثة عبر الهاتف، وكان عليّ إقفال الخط. عندها فقط، أدركت ما الذي يحدث: كان هناك إطلاق نار على بُعد خمسة وعشرين متراً. بالطبع، كنا نعلم أنه غالباً ما تجري مواجهات بين الفلسطينيين وقوات الحدود الإسرائيلية هنا، حتى في النهار. فهذا ما جئنا لأجله، وكان هناك ما يشـير إلى حدوث تلك المواجهات في كل مكان؛ منازل فلسطينيين مجروفة، ثقوب أحدثتها الرصاصات، وهجمات بالصواريخ... كنت قد رأيت هذه المشاهد في البرامج التلفزيونية، ولم أتمكن من تخيّل وجود رجال فلسطينيين من سنّي وسط هذه الأنقاض الإسمنتية يحاولون إرداء نظرائهم الإسرائيليين الموجودين في أعلى أبراج المراقبة، وبالعكس.

كانـت هنـاك رصاصـات حقيقيـة تئـزّ فـي الأرجـاء، ولكـن النـاس المقيمين في الجوار لم يكونوا منزعجين كما يبدو. ما داموا لم يلوذوا بالفـرار، فهـذا يعنـي أن لا خطـورة فـي الأمـر، وبإمكانـي إنهاء اتصالي.

لكن الخوف بدا على زميلي وكان يرتجف بأكمله. فأحضر له فتيان الحيّ كرسياً، وأرَوه كل اللُصاقات التي حصلوا عليها من فِرق التصوير الأجنبية التي التقوها. وشعروا بالملل بعد ذلك، وبدأوا بتقليد شفة زميلي المرتعشة. فصرخ أحد الفتيان «بو!» وادّعى البقيّة أنهم خائفون: «أه، كم هو مخيف!»

حاولت الاتصال بالصحيفة مجدداً لأنه سيكون من المستحيل وضع مقالة، وعليهم معرفة ذلك. ولدى التحدث عبر الهاتف، أميل عادةً إلى السير ذهاباً وإيّاباً. لذلك، وبينما كنت متجهاً نحو أرض المعركة بسبب توقف إطلاق النار، صاح الفتيان: «لا، يا سيد!»

اقترب العنف أكثر فأكثر. وفي ذروة أكبر موجة من الهجمات التي تعرّضت لها القدس، كنت أقصد الجزء اليهودي من المدينة فقط عندما يكون عليّ إجراء مداخلات لصالح المحطة التلفزيونية. وهكذا، وجدت نفسي في صباح 1 نيسان/ أبريل المشرق على بُعد أمتار قليلة من مكان حدوث أحد الهجمات. بعد ذلك على الفور، اتصلت بغرفة الأخبار لأقول إنني قد أتأخر على فقرة سؤال وجواب المباشَرة. فاستقلّيت سيارة أجرة على عجَل، وركزت على ما سنقوم بمناقشته؛ كنت قد طلبت عدم الإشارة إلى هذه المتفجرة. فوصلت في الوقت المحدد، وقال زملائي في الوطن إنني أبليت بلاءً حسناً كالعادة. بعد ذلك، ذهبت لاحتساء شراب في فندق بالقدس الشرقية مع عدد قليل من الزملاء في أن أو أس. لقد زالت الصدمة الأساسية، وعدت للتقليل من أهمية الأمور من خلال إطلاق ملاحظات ساخرة مثل، «هناك متفجرة خلفك... كذبة أول نيسان/ أبريل!» أو إطلاق دُعابات عن دعوة الفلسطينيين هجوماً فاشلاً «متفجرة فلافل»، وأن الهولنديين يدعون شارع بن يهودا شارع إلزَم الحذر.

لـم أعـد إلـى المنـزل حتـى بعـد مـا مـررت به. لقـد أصبحت أكثر احتراساً، ولكن هذا الحذر الشديد زال في العام التالي. فالعيش والعمل في منطقة حرب هو أمر مماثل للاسـتحمام بمياه سـاخنة تسـتمر بسـكبها على جسدك، وبعد قليل يغدو الأمر أكثر سخونة من أي شيء آخر دون أن تتمكن من التخلص من هذا الوضع.

القسم الثالث

الفصل الثالث عشر

دمى جديدة، أسلاك قديمة

لو لم تقم الولايات المتحدة باجتياح العراق، لما تمكنتُ أبداً من البدء بوضع كتاب عن الفلترة، والتحريف، والمناورة المعتمَدة من قِبل وسائل الإعلام لدى عرضها للأحداث. ولكن الحرب العراقية كشفت عن فلترة لم ألاحظ وجودها حتى ذلك الحين، وقد حدث الكثير من الأمور بسببها. كانت الفترة المؤدّية إلى الحرب إعادة عرض سريع لخبراتي الأولى في العالم العربي والأراضي المقدسة؛ لقد اكتسبتْ الدمى أسماء جديدة ولكن الأسلاك المتصلة بها مألوفة.

اتضح لي في الكويت أن أعمال الفلترة والتشويه والمناورة التي شهدتها السنوات السابقة لم تكن أحداثاً عرَضية بل نموذجاً يُحتذى. كان الجيش الأميركي منشغلاً هناك بإعداد الجنود الذين سيجتاحون العراق في غضون أسبوعين. ووصلت إلى الفندق في منتصف الليل، وتنقلت بين القنوات التلفزيونية من خلال جهاز التحكم عن بُعد، ولاحظت على الفور انحرافاً مألوفاً في اللغة. هل كنت في العراق، المقاطعة التاسعة عشرة، أم في دولة الكويت الصغيرة ؟ وتطرقت السي أن أن والمحطات العربية إلى حرب الخليج، ولكن كم عدد المراسلين الذين كانوا هناك

في الواقع؟ لقد بدأت المنطقة نفسها بتعداد الحروب بدءاً بالحرب الإيرانية-العراقية في الثمانينيات؛ وتلى ذلك الاجتياح العراقي للكويت عام 1990 وتحريرها من قِبل الأميركيين بعد ستة أشهر، مما يجعل من حرب التحرير حرب الخليج الثالثة. ولكن السي أن أن اعتبرتها حرب الخليج الثانية لأن أميركا لم تتورط في الحرب الإيرانية-العراقية.

كان اختيار الكلمات يشير إلى وجهة نظر معيَّنة، وظهر هذا الأمر جلياً في النصوص القائمة تحت الصور التي تكوّن فكرة عن الوضع بثلاث أو أربع كلمات. فدعا القناة التابعة لحزب الله حرب الخليج الثانية «الحرب على العراق»؛ ووضعت فوكس نيوز الأميركية الاجتياح في سياق «الحرب على الإرهاب»؛ واعتمدت السي أن أن عبارة «ضربة موجّهة للعراق»؛ ولم يحِد التلفزيون العراقي عن عبارة «الحرب الأخيرة». وصدّق مشاهدو كل محطة أن التعابير المعتمَدة تشرح الجوهر الحقيقي للنزاع. ولا بد من أن تكون كل مجموعة من الواثقين بصحة ما يسمعون ويشاهدون قد ظنت أنه من الرائع نقل الوقائع بشكل موضوعي أخيراً.

ذكّرتني أيضاً طريقة وضع قِطع الشطرنج في هذه الحرب بالأراضي المقدسة. فأميركا متفوقة على العراق عسكرياً بقدر تفوّق إسرائيل على الفلسطينيين عسكرياً، ولكن إزالة بغداد عن الخارطة بين ليلة وضحاها أمر مستحيل. أولاً، يجب إعداد الرأي العام العالمي للأمر. لقد كانت حرباً إعلامية أخرى، ولكن على نطاق أوسع، كما اكتشفت في صباح اليوم التالي في مركز الصحافة الذي أنشأه الجيش الأميركي في فندق شيراتون في مدينة الكويت. فجلست في مكاني على كرسيّ غير مريح قابل للطيّ بين حوالى مئة وخمسين مراسلاً. بعد ذلك، ظهر ناطق رسمي عسكري ماهر وواثق بنفسه، وعرض بإيجاز لكافة التطورات الأخيرة

بابتسـامة كبيرة. كان معظم زملائي يأملون في دخول العراق كصحفيين مُلحَقين بوحدات الجيش الأميركي، وقد جاؤوا إلى الشيراتون لمعرفة ما إذا كانت هناك أي تفاصيل مؤكَّدة. ولكن لسوء الحظ، لم يكن باستطاعة الجيش قول أي شيء بعد، قال مسؤول العلاقات العامة بتهذيب، ناهيك عـن أي صحفـي يمكنـه الانضمـام إلـى أي وحدة. «أريد منكم أن تكفوا عـن القلـق»، اختتـم. «سـوف نتأكـد من أن يقوم رؤسـاؤكم بالدنوّ منكم بعـد الحـرب والتربيـت علـى ظهوركـم والثنـاء على العمـل الجيد الذي قمتم به».

انتهى المؤتمر الصحافي الموجَز. وخلال وجبات الطعام السريعة المجانية، التقيت صدفة بمتمرّس مُحبَط في التلفزيون الهولندي. لم يكن للجيـش الأميركـي أي سـبب لوضـع صحفـي مـن دولة غيـر ذات أهمية كدولتنا في وحدة جيش مثير للاهتمام. وكان الصحفي أمام خيار واحد: تملّق والتماس الناطق بلسان الجيش، وانتهاء الأمر بالصحفي بعد كافة أنواع التذلل في مستشفى ميداني في الكويت أو في منشأة في البحرين ؛ أم يمكنه ممارسة الضغط من خلال وزارة الدفاع في لاهاي التي تتدخل لصالحك شريطة عدم إحراجها في وقت لاحق. وها أنت في الصحراء، معتمداً على الجنود المحيطين بك لتوفير الطعام والحماية لك، ويبلغهم بعـد ذلـك أنـك تحدثـت فـي أخبار يوم الثلاثاء عن قيام ثلاثة من أولئك الجنود أنفسهم بانتهاك حقوق الإنسان بشكل خطر.

كـوّنَ المؤتمـر الصحافـي، الموجَـز فـي الشـيراتون، نظرتي الأولى الخاطفـة علـى فـولاذ ماكينـة العلاقات العامة الأميركية المصقول، وظهر على شاشـات التلفزة أكثر من ذلك. كانت الحكومة الإسـرائيلية ممتازة في المناورة، ولكن مبتكري عالم ديزني يقومون بعملهم الآن. كان هناك أفضل المستشارين في ميدان الاتصالات، ومجموعة وافرة من الناطقين

الرسميين، وموارد لا محدودة... لقد وطئ أقوى قرد في الدَّغل الأرض بقوة في هذا المكان وليس في الكويت فقط. وكانت هناك عروض في مقر الأمم المتحدة مع دليل على وجود مصانع لإنتاج أسلحة عراقية، وسَيل لا نهاية له من الاتهامات بتورط عراقي بهجمات 11 أيلول/ سبتمبر، وخُطَب غير عملية حول الديمقراطية. وقامت مؤسسات استشارية على علاقة بالحكومة بتزويد المحررين بالتقارير، ومقالات الرأي، وقنابل ذكية أخرى يطلقها جهاز العلاقات العامة. وأرسل مركز القيادة الرئيسي، وهو المقر الإقليمي لقيادة الجيش الأميركي، سَيلاً غير منته من البيانات الرسمية إلى العالم انطلاقاً من قاعدة صغيرة في قطر أُنفق مبلغ 250.000 دولار على إنشائها.

كم كان توجيه سَيل المعلومات احترافياً، وقد تردد صداه في التغطية الإعلامية بقوة ووضوح أكبر مما هو عليه الحال في الأراضي المقدسة. كان الغرب ذاهباً إلى الحرب، مما يعني اهتماماً شعبياً كبيراً ووجوب قيام وسائل الإعلام الغربية بملء برامجها الإذاعية وصفحات صحفها بأخبار الساعة، ولكن بأي معلومات إذا لم يكن هناك أي تطورات لوضع تقارير عنها؟ لقد وفّرت السي أن أن الجواب عن هذا السؤال على أساس يومي: كان المقر الإعلامي للجيش الأميركي يوزّع معلومات يومية نادراً ما تكون أخباراً ولكنها قابلة للنشر على الدوام. ويطلبون بعد ذلك من شخص صُوَري آخر من السي أن أن الظهور في مركز القيادة الرئيسي: «لقد تأكد دخول سفينة القيادة التابعة للأسطول الثالث إلى الخليج العربي، وستكون جاهزة للمعركة في الساعات الإثنتين والسبعين القادمة. لا يمكن للمراجع العليا تأكيد أي شيء بالطبع، ولكن كل شيء يشير إلى وقوع هجوم وشيك. عودة إليك، يا جيم».

تمسّك الأخصام بالسيناريو المتّبَع في الأراضي المقدسة، ولعب

العراقيون الدور الذي لعبه الفلسطينيون، مُظهرين سياسة إعلامية أكثر ضعفاً. فقد كان وزير الإعلام، الصحّاف، يظهر كل يوم على كافة القنوات التلفزيونية ويوجّه مزيجاً من الشتائم والتباهي («وفقاً لتقديري... سنذبحهم كلهم كالعادة»). وفي تعليقه باللغة العربية، استخدم الصحّاف تعابير غريبة جداً لدرجة أنني لم أكن الوحيد الذي بحث عن معنى التعبير المهين الذي وجّهه للأميركيين والبريطانيين - «عُلوج»: إنه تعبير مُبهم يعني حميراً غير مروَّضين»، كما جاء في قاموسي.

كان الصحاف الغريب الأطوار صالحاً لمقالة قصيرة. ولكن كما هو الحال مع الفلسطينيين، تساءلت عما قد يحدث لو لفت صدام انتباه وسائل الإعلام بهدف تسجيل بعض النقاط: «أُتَّهَمُ باستمرار بتطوير أسلحة دمار شامل سرّاً، ولكن لماذا لا يُسمح لي بذلك في حين أن إسرائيل يمكنها القيام به؟ لننظف كل المنطقة من أسلحة الدمار الشامل!»

كان بإمكان صدام ربما وضع هذا الاقتراح على الأجندة الغربية من خلال مكتب علاقات عامة لائق وجماعة ضاغطة من المتعاطفين. وبإمكاني تصوّر وابل من مقالات الرأي، والرسائل، والمقالات الصحافية، والتقارير الجاهزة. فأي حكومة غربية باستطاعتها المجاهرة أنها ضد انعقاد مؤتمر إقليمي لنزع الأسلحة؟ ولكنها ليست كنوع الحملات التي يخوضها صدام. فعلى غرار السلطة الفلسطينية، يمكن عَزو خياره إلى طبيعة الحكم المعتمَد كما ثبت بعد الحرب. لم يكن يريد صدام تنظيف الشرق الأوسط من أسلحة الدمار الشامل - بوصفك دكتاتوراً، يمكنك ممارسة قدر أكبر من النفوذ في الوطن إذا تمكنت من إخماد الثورات بضربة واحدة، كما أثبتت عملية تسميم آلاف الأكراد بالغازات في نهاية الثمانينيات، وانهارت المقاومة بعد ذلك -. لهذا السبب، سمح صدام باستمرار الانطباع الدولي أنه يمتلك ذلك النوع من الأسلحة إلى أن بلغ

النهاية المريرة: كان بالإمكان تجنّب حدوث عصيان مسلّح بين أتباعه.

إنها وجوه جديدة، ونماذج قديمة. مرةً أخرى، لم يُسمح للمنظمات الأصولية اللا عنفية بالتعبير عن آرائها. وسمح هذا الأمر للحكومة الأميركية بالجَزم أن صدام يعمل مع القاعدة، وأن إزالة النظام العراقي سيكون ضربة قاسية للإرهاب. ولو كان القسم الأكبر من الرأي العام الغربي على عِلم بالهدف الرئيسي للقاعدة المتمثل بالإطاحة بالحكام العرب العلمانيين مثل صدام حسين، لكان من الصعب ربما تسويق الجَزم الأميركي. كانت المعارضة الداخلية في العراق مؤلفة من أصوليين في الواقع.

استمرت الأمور المتماثلة بالازدياد. كنت راغباً في إلقاء نظرة على أرجاء بغداد، ولكن طلبي المقدَّم للحصول على تأشيرة دخول رُفض تكراراً - إحباط مألوف وهو أمر لا يمكنك شرحه للأعلى مرتبة وللنقاد الذين لم تكن لديهم أي خبرة مباشَرة مع النظام. كيف يكون باستطاعة ملكة جمال ألمانيا زيارة العراق من دون أن يكون باستطاعة صحيفة أن أر سي القيام بذلك؟ كنت قد أجريت اتصالات، ووجهت رسائل فاكس، وعرضت رشوات طوال أسابيع متتالية... ولكن لا بد من أن يكون شخص ما في وزارة الإعلام العراقية قد وضع إشارة بجانب أن أر سي. لقد دخل كل مزوّدي وسائل الإعلام الهولندية بالأخبار إلى العراق في الأشهر التي سبقت الاجتياح باستثناء أن أر سي.

راودتني الشكوك القديمة مجدداً كالتساؤل حول قدرة وسائل الإعلام في الواقع على شرح طبيعة النظام. هل يعرف مئات آلاف المتظاهرين في أوروبا المناوئين للحرب ما الذي فعله صدام بأتباعه؟ لم أكن مُدركاً أن العديد من المتظاهرين يفكرون في أمر مختلف عن: «الحكام من أمثال صدام سيئون بالطبع، ولكن الحرب مريعة في الواقع،

لذلك نحن ضدها تحت أي ظرف - السلام، يا رجل!» ولكن طريقة حكم صدام هي الحرب برأيي، حرب النظام على شعبه.

من الغريب تماماً أن يكون العديدون من المثاليين الذين تظاهروا ضد الاجتياح هم من دعوا إلى الاجتياح في أثناء أزمة كوسوفو ومن دون استصدار إذن من الأمم المتحدة إذا لزم الأمر: «علينا القيام بأمر ما». كان صدام حسين قاتلاً لعدد أكبر من الناس مقارنةً مع ميلوزوفيتش، وتتساءل عما إذا كان للتغطية الإعلامية دور. فأثناء أزمة كوسوفو، تمكن الصحفيون من تصوير نتائج التطهير الإثني، وبات للوحشية وجه. لم يكن هذا النوع من التقارير اللافتة للنظر ممكناً في العراق؛ في أفضل الاحوال، كان بإمكانك حمل العراقيين الذين فرّوا من البلد قبل سنوات على التكلم، إذا جرؤوا على ذلك، لأن العديدين تركوا أنسباء لهم وراءهم. ولكن للرأس المتكلم أثر أقل بكثير؛ ليس عليك سوى أن تطلب من الفلسطينيين أن يشرحوا لك معنى الإرهاب.

في الفترة السابقة للاجتياح، كانت هناك أمور مجهولة أيضاً، ومن أكبرها رد فعل العراقيين العاديين. لقد توقع البيت الأبيض أنه سيتم استقبال الجنود الأميركيين في البلد استقبال «المحرِّرين بالأرزّ والزهور» أحد التعابير المستخدَمة.

باستثناء عدد قليل من أحباء المانحين، توقع كل الخبراء والأنظمة تقريباً في العالم العربي بحدوث كارثة لأميركا. لم أجد الأمر مثيراً للاهتمام في الواقع بسبب تزايد ارتيابي الشديد بالرؤوس العربية المتكلمة. كانت الأنظمة ضد اجتياح أميركي بالطبع، ولكن تم تسويق رسالة نشر الديمقراطية التي سيليها مزيد من الأمور إذا نجحت؛ إنه توقّع غير مُغرٍ بالنسبة إلى الحكام والقادة في قصورهم.

كانت هناك دولة واحدة حملت ردود فعلها على الاجتياح الوشيك للعراق معنى: الكويت. لقد احتل صدام حسين البلد ودمّره عام 1990، وقامت أميركا باخراجه منه بعد ستة أشهر. كان صدام يهدد الكويت بانتظام في السنوات التي تلت التحرير بشن هجمات جديدة، وكان لهذا الأمر نتائج كارثية على اقتصاده وسوق الأسهم. من يستثمر في بلد قد يقوم صدام بنهبه في أي لحظة؟

لقد تحدثت إلى مالك سفينة، ورجل أعمال، ومحام، وعالم اقتصاد، وكويتيين ليبراليين آخرين. كانوا ذوي ثقافة عالية، ويتكلمون الإنكليزية بطلاقة، وذوي شخصية محبَّبة، وناجحين، وأثرياء. كانوا يريدون بشكل يائس التخلص من صدام، ولكنهم طرحوا السؤال نفسه بطرق مختلفة: لماذا يُفترض بأميركا نقل الديمقراطية للعراق إذا كانت تُبقي الحكام الآخرين في سدّة الحكم في بقية المنطقة؟ هل سيكون نظام منتخَب ديمقراطياً في بغداد قادراً على اتّباع منحى مستقل، ولا سيما إذا تعارض مع المصالح الأميركية؟ هل سيكون حزب عراقي قادراً على الفوز بالانتخابات مع إطلاق وعود بدعم فلسطين، ورفع أسعار النفط، ومنح كل العقود لأوروبا والصين؟ أم أن البيت الأبيض يريد «نسخة غير فاعلة عن صدام» يكون أقل عداءً لإسرائيل.

لو كنت في ذلك الوقت في مستهل عملي كمراسل، لشعرت أنني مُجبَر على إدراج هذه الأمور في النشرة الإخبارية. لقد ظن الأميركيون أنهم سيُستقبلون بفرح وأذرعة مفتوحة.

كنت قد تحدثت إلى صحفي زميل أثناء المؤتمر الصحافي الموجز للجيش الأميركي في فندق شيراتون. «هل وصلتَ إلى هنا للتوّ؟» سألني. «من الأفضل لك أن تسرع. المزارعون في الشمال هم القصة. قد يعملون

في حقولهم للمرة الأخيرة غداً، لأن الجيش الأميركي سيصل إلى هناك. لقد حصلت على أسماء وأرقام».

فأومأت برأسي شاكراً، وكنت لا أزال مذهولاً أن ذلك الأمر التافة يمكن أن يكون القصة، وذلك بالرغم من خبرتي التي امتدت خمس سنوات. ولكن التفسير كان بسيطاً: كانت الماكينة الإعلامية الأنكلو-أميركية تهيمن على دَفق الأخبار، إضافةً إلى أن القصة هي حشد الجنود الأميركيين. متى سيوجهون الضربة؟ وإجلاء المزارعين هو خير مثال على ذلك - يمكنك التقاط صور عن الأمر بسهولة في إطار المنافسة المستمرة مع صحفيي الصحف.

كان كل شيء بادياً من قَبل. فالحملة الإعلامية المتطورة تقوم على الصورة - أرزّ وزهور - ويصبح من الصعب تغيير ذلك في ما بعد.

لهذا السبب، كان الناطق بلسان الجيش في الشيراتون مسترخياً. كنا مكبَّلين، وهو يعرف ذلك.

الفصل الرابع عشر

«الراية تدرّ المال»

كنت سأترك عملي بعد سقوط بغداد، لذلك علمت أن أسابيعي الأخيرة على أرض الأحداث قد حانت عندما دخل الجنود الأميركيون بغداد. ربّما إنه زمن الكشف عن الحقائق، ولكنني لم أر في بداية الأمر سوى تكراراً للنماذج المألوفة. هل أن «صليبيين صهاينة» و«جنوداً أميركيين وبريطانيين مجتاحين» هم من يقاتلون؟ أم «الحلفاء»؟ هل إن «المقاومة الوطنية العراقية» أو «الموالين لصدام» هم أخصامهم؟ هل يشاهدون «قصفاً ثقيلاً لمدن ذات كثافة سكانية» أو «عملية الصدمة والرعب»، وهو اسم طالبتْ سوني بإطلاقه على لعبة كمبيوتر جديدة بينما كانت الحرب لا تزال مُسْتَعِرَة.

كان لكل معسكر مصطلحاته الخاصة، ويدّعي أنه الفريق الصالح وفقاً لنسخته الخاصة في رواية الأحداث. وأوردت فوكس نيوز اتهامات بتعاونٍ عراقي فعلي مع القاعدة، بانيةً استنتاجاتها على هذه الاتهامات. كيف يمكن للأوروبيين إذاً أن يكونوا ضد التخلص من الرجل الذي تسبب بهجمات 11 أيلول/ سبتمبر؟ بالطبع، إنهم يكرهون أميركا! وقامت محطة حزب الله التلفزيونية بالأمر نفسه، متهمةً الموساد الإسرائيلي

بارتكاب الهجمات: كيف يمكن للأميركيين إذاً إلقاء اللوم على العراق؟ بالطبع، إنهم يكرهون الإسلام!

لقد واكبتُ الحرب انطلاقاً من عاصمة دولة عربية هامة؛ المكان الذي انطلقتُ منه قبل خمس سنوات، أم الدنيا، القاهرة. كانت الحكومة المصرية تساعد الأميركيين من وراء الكواليس حيث أمكن، ولكن ما الذي كان يجري في الأوساط الشعبية؟ كان أمراً مجهولاً. ولكن بسبب الحرب، هناك الكثير من الأماكن التي يمكننا أن نُظهر فيها الخطوط الكفافية لتلك الأمور المجهولة. وبدأت بكتابة عمود في الصحيفة بعنوان «الشارع العربي». لقد جلت في المدينة وأجريت أحاديث مع مصريين عاديين عبّروا عن المشاعر الشعبية الآنف ذكرها. ولم يكن بالإمكان نشر هذه المعلومات على شاشات التلفزة إلا في إطار النبأ العاجل: «إنه ضد الإسلام... إنه أمر سيّئ جداً» - إذا تجرّأ الناس على التحدث. ولكن المقالة توفّر مكاناً أكبر، ويمكنك نقل آراء المتحدثين دون ذِكر أسمائهم:

إنه عقاب من الله بالطبع. الله كلّي القدرة، إذاً، فكل ما يجري رهن بمشيئته. لا يمكن فصل الزلزال الأخير في تركيا عن الطريقة التي رفضت فيها تركيا الإسلام؛ وهناك ظاهرة الأيدز أيضاً، أليس كذلك؟ لقد عبّر الإمام عن رأيه أيضاً. الاجتياح الأميركي هو عقاب بسبب افتقارنا إلى التقوى. الجميع مهتمون بالمال، والمنزل، والهاتف الخلوي... لقد رفعنا صلواتنا للتوّ لانتهاء ما يجري بسرعة فيُهزَم الأميركيون بسرعة ويغادرون. هناك مسؤوليات كبيرة على عاتق مصر لأنها مهد الحضارة.

لو كان الأميركيون مسيحيين حقيقيين لما قاموا بذلك. لماذا يتدخلون؟ لكل شعب نظامه الخاص وقائده الخاص. نحن نحب

مبارك، ومبارك يحبنا. أثناء حرب الخليج الأولى، كنت أعمل في العراق في إعداد الحلويات. بعد عمليات القصف، كان صدام يخرج إلى الشارع، فيسارع الناس إلى لمسه؛ من الواضح أن الجميع يحبونه وهو يحب الناس.

أميركا هي أقوى بلد في العالم لأنها تتألف من خمسين ولاية، ولكن الجيش العراقي هو ثاني أقوى جيش في العالم ويقوم بالمواجهة الآن. لهذا السبب، تعارض ألمانيا الحرب؛ هم يدركون أنهم سيكونون المستهدَفين في المرحلة التالية. قال بوش إن الله جعله رئيساً لإنقاذ العالم من الإسلام. بوش ذاك... لقد قرأت مؤخراً عن قيام جنود إسرائيليين بالمراهنة على النساء الحوامل الفلسطينيات، هل يكون المولود فتى أم فتاة؟ ويشقّون من ثم بطن النساء لمعرفة من المُحق. هم يجرّدون النساء أيضاً من ملابسهنّ ويقتادوهنّ في أقفاص معدنية في جولة في أنحاء إسرائيل. أستشيط غضباً عندما أسمع أموراً مماثلة. كيف يمكن القيام بأمر مماثل؟»

السياسة هي للسياسيين. لست سوى أجير مدني عادي، وأقود في المساء سيارة مُستأجرة. الحرب؟ صدقاً، أنا لا أتابعها كثيراً. أعود إلى المنزل في منتصف الليل وعليّ النهوض عند السادسة صباحاً. لا أشعر بالرغبة في التفرُّغ لمتابعة الأخبار. إنه أمر رهيب، يقول الناس. هجوم على الإسلام. آمل في أن ينتهي الأمر بسرعة.

هل كنت تعلم أن إسرائيل ستفجّر المسجد الأقصى بعد سقوط بغداد؟ إنه العنوان الرئيسي لصحيفة الأسبوع أمس. كل مستشاري كلينتون وبوش تقريباً هم يهود، وبعضهم يجاهر بذلك وآخرون لا يحذون حذوهم. هم يهود سرّيون، مثل صدام. لقد اجتاح الكويت ليتمكن الأميركيون من وضع جنودهم في الخليج

بجانب النفط والأماكن المقدسة. لقد أضعفوا الإسلام لأن اليهود يعلمون أن ليس باستطاعتهم القيام بالكثير ضد إسلام قوي.

لقد دوّنت كل ذلك، وامتلأ بريد أن أر سي الإلكتروني بالرسائل: إن مراسلكم يجعل العرب يبدون مدعاةً للسخرية. لقد ثبت مرة أخرى أنك أجريت هذا الحديث بنفسك، إذاً أنت تعرف أن الناس يقولون هذا النوع من الأمور دون تردد وبنبرة تسليم وليس غضب. هم لا يغضبون إلا عندما يبدأ رأيك بالتعارض مع رأيهم.

كان عملاً روتينياً غريباً. ففي النهار، كنت أجري أحاديث لنشرها في عمود «الشارع العربي»، وأشاهد التلفاز في المساء. لقد بدا الأمر مماثلاً لفترة بدئي بالعمل كمراسل عندما تعرّضت بغداد للقصف أثناء عملية ثعلب الصحراء، وكنت أوجز نشرات إعلامية انطلاقاً من غرفتي في الفندق بعمّان. لم يكن عليّ القيام بذلك لأنني توقفت عن العمل لصالح الإذاعة والتلفزيون، وكانت أن أر سي تطلب مني إعداد مواضيع متمِّمة.

لذلك، تسنّت لي مشاهدة التلفاز، ولفت أمر ما انتباهي بالتدريج، ليس ما قيل وعُرض على القنوات الغربية، بل بالتحديد ما لم يُقَل ويُعرَض. ففي الفترة التي سبقت الاجتياح، كانت وسيلة الإعلام أنكلوسفير المرجِعية قد تبنّت وجهة نظر ماكينة العلاقات العامة الأميركية، واستمرت على هذا المنوال أثناء الحرب. ووفّر الصحفيون الذين ألحقهم الناطق العسكري الرسمي بالجبهة في فندق شيراتون في الكويت صوراً لجنود يفرون من نيران العدوّ، ويزحفون تحت الجدران، ويبلغون موقعاً يمكنهم من خلاله التخلص من العدوّ. ولم تُلتقَط صور للأعداء العراقيين، عِلماً أنه باستطاعتك رؤية الخوف والتوتر أو الارتياح على وجوه الأميركيين. كان الأمر كلعبة فيديو، انتهت اللعبة بالنسبة إلى فرقة الحرس الجمهوري التي هُزمت، وتنطلق أميركا في مواجهة فرقة عسكرية جديدة.

لقد اعتُمدت المقاربة الهوليودية الشخص الصالح/ الشخص السيئ، وتطابقت كل التحاليل تقريباً مع التحليل الذي أرسله مركز القيادة الرئيسي من قطر: السيطرة على مرفأ مدينة أم قصر هي من أولى الأولويات لا لأسباب عسكرية بل «لإيصال السلع الإنسانية للشعب العراقي بأسرع وقت ممكن». ويُفترض منع القتال داخل المدينة ليس مخافة عدم الاستفادة من التفوق التكنولوجي الأميركي ووقوع خسائر كبيرة في الأرواح، بل لأن «قتال الشوارع سيؤدي إلى وقوع العديد من الإصابات في صفوف المدنيين». في نهاية اليوم، كانت الأهمية معلّقة على مشاعر الشعب العراقي ومزاجه، وردّد المراسلون والناطقون العسكريون الرسميون هذه الأقوال معاً، مما أوحى ضمناً أن الحرب أمر جيد وأنه ليس علينا سوى شرح الأمر لشعب العراق.

تم تنظيف كل القطع المهشّمة من منبر مركز القيادة الرئيسي. فدعت السي أن أن الأمر «كُن أول من يعلم»، التنافس الإخباري. «حصلنا للتوّ على تأكيد من مركز القيادة الرئيسي أن أم قصر هي الآن بين أيدي رجال الكوماندوس الأميركيين. عودة إليك، يا جيم». في حرب الخليج عام 1991، حدث الأمر نفسه إلا أنه لم يكن يوجد أي محطة تلفزيونية عربية في ذلك الوقت يقوم مراسلوها بدحض البيانات الأميركية الرسمية. ويمكنك الآن الانتقال من جيم إلى الجزيرة التي كانت وسط حديث هاتفي مباشَر مع القائد العراقي في أم قصر.

«لدينا تأكيد الآن». هل صدّق صحفيو السي أن أن والبي بي سي ذلك؟ كانوا يعلمون بالتأكيد أن مهمة الجيش ليس الإفصاح عن معلومات يعوَّل عليها، بل شل حركة العدوّ بأقل خسائر ممكنة؟ وإذا كان عليك الكذب لبلوغ هذا الأمر... فكل شيء وارد في الحب والحرب.

إلى جانب كل تلك المؤتمرات الصحافية الأميركية، ألم يكن من

المفيد تذكير الناس بكيفية تضليل وسائل الإعلام منذ اثني عشر عاماً؟ كان العراق قد سحق الكويت بقدميه وعزم البيت الأبيض على شن حملة عسكرية. ولكن معظم الشعب الأميركي كان ضد الأمر، وفقاً لاستطلاعات الرأي، حتى شهدت فتاة كويتية في الخامسة عشرة من عمرها أمام الكونغرس أنها رأت جنوداً عراقيين يأخذون أطفالاً من محاضنهم ويدعونهم يموتون على الأرض، ليكون بالإمكان نقل هذه المحاضن إلى بغداد مباشَرةً. عُرض تصريح الشاهدة على شاشات التلفزة، وحصلت عملية تحرير الكويت على تأييد واسع النطاق.

وسط هذا الفَيض من العلاقات العامة في مركز القيادة الرئيسي، لماذا لم يكن الإعلام الغربي صريحاً حيال الطريقة التي عومل بها في الماضي؟ لقد فكّرت لمدة قصيرة من الزمن بمَيل الصحفيين إلى تصديق أنهم يراقبون فحسب دون أن يتم التأثير فيهم. ولكنه ليس الأمر الوحيد الذي لم يظهر على شاشات القنوات الغربية.

فغالباً ما كان يشير المراسلون والمذيعون الغربيون إلى حالة عدم الاستقرار في العراق؛ بالرغم من كل شيء، فالبلد مؤلف من ثلاث مجموعات سكانية لا قاسم مشترَك بينها، الأكراد في الشمال، السنّة في الوسط، والشيعة في الجنوب. وليس هناك تفسير لكيفية حدوث ذلك. وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى، كانت هذه المناطق مقاطعات مستقلة ضمن السلطنة العثمانية، وقد استولت عليها بريطانيا العظمى بعد ذلك وشكلت منها ما يعرف بالعراق. كان الأمر أشبه بضم البولنديين والألمان الشماليين والشعب الهولندي الشمالي في مجموعة واحدة، وإخبارهم أنهم باتوا يشكلون بلداً جديداً. كانت وصفة لعدم الاستقرار تعمّدت بريطانيا وضعها: إن عراقاً غير مستقر يبقى معتمداً على المعونة والحماية

البريطانية ويمتثل لأوامر لندن. وكما قال وزير الخارجية الأميركي الأسبق هنري كسينجر في كتابه المشهور دبلوماسية: «رُسمت حدود الشرق الأوسط من قِبل القوى الأجنبية، والأوروبيين إلى حدٍّ كبير، في نهاية الحرب العالمية الأولى بهدف تسهيل هيمنتها على المنطقة». لذلك، كان العديد من الخطوط الحدودية في العالم العربي مستقيمة، رسمتها الحكومات الغربية مستخدمةً مسطرة على الخارطة، ولم يأخذوا بعين الاعتبار مصالح الشعوب المحلية بالتأكيد.

لقد ضخّمت التقارير الواردة في وسائل الإعلام الغربية «المشاعر المناهضة للغرب» في الشرق الأوسط. وقد يتبادر إلى ذهنك أن دقيقتَين من الشرح التاريخي تسمح بفهم هذا الأمر، على سبيل المثال، شرح عن إيران. كان لإيران حكومة ديمقراطية في الخمسينيات، ولكن السي آي أيه أجلست الشاه على العرش بعد انقلاب على رئيس الوزراء مصدّق الذي قرر تأميم صناعة النفط. فأعاد الشاه بناء البلد محوِّلاً إيّاه إلى دولة موالية للغرب أنشأت جهاز مخابرات فاعلاً وعديم الشفقة، واتصفت بفساد يوحي بالرهبة؛ هي مرآة لبعض الأنظمة القائمة في المنطقة اليوم. لقد أدى الغضب إلى قيام الثورة وثم الجمهورية الإسلامية. ولإخماد هذه الثورة، قامت الحكومات الغربية بتسليح صدام بالغازات السامة، إضافةً إلى أمور أخرى، خلال الحرب الإيرانية-العراقية. ولكنهم زوّدوا إيران أيضاً بالأسلحة، وعلى نحو سرّي، في مقابل قيام إيران بإطلاق سراح الرهائن الغربيين في لبنان، فضيحة كونترا الإيرانية. ويقول هنري كيسنجر في هذا الشأن أيضاً: «من المؤسف أن أيّاً من الفريقين لن يصاب بالهزيمة». لقد مات مليون شخص.

بعد ذلك ظهر بن لادن. كم عدد المشاهدين الغربيين الذين عرفوا أن أشخاصاً مثله دُرّبوا طيلة سنوات وسُلِّحوا من قِبَل السي آي

أيه؟ ويمكن شرح ذلك بكلمات قليلة أيضاً: في العام 1979، اجتاح الاتحاد السوفياتي أفغانستان للمساعدة على إسقاط النظام الشيوعي. رداً على ذلك، قامت السي آي أيه بإنشاء المجاهدين بالتعاون مع بعض الدول العربية. وخاض المجاهدون - وكان أسامة بن لادن من أفراد هذه المجموعة - حرب عصابات ضد الروس وحققوا انتصاراً، وذهب بعضهم من ثم للقتال في مصر والجزائر. وعندما اجتاح صدام الكويت، عرض بن لادن قيامه ومجموعته بطرده، ولكن دول الخليج فضّلت استدعاء أميركا لمساعدتها. فاعتبر بن لادن هذا الأمر دليلاً قاطعاً على أن الأنظمة لم تكن تسعى إلا إلى الاستمرار حتى وإن عنى ذلك استدعاء القوى الغربية التي كانت قد تسببت بمشاكل للعالم الإسلامي في المقام الأول. وغيّر بن لادن أهدافه مما أدى إلى هجمات 11/ 9 التي كانت المبرّر لاجتياح العراق... واكتملت الحلقة.

قد تظن أن هذا النوع من المواد المتمِّمة هي جزء من المعادلة بالنسبة إلى المشاهدين الغربيين. كان هناك وقت كافٍ للبث المباشَر، وإذا كان بالإمكان إنفاق آلاف الدولارات يومياً لإرسال مراسل إلى بغداد لإيجاز تقارير وكالات الأنباء، يتعيّن حينذاك وضع ميزانية للبرامج الوثائقية أو برامج خاصة أخرى قصيرة تشرح الدور الذي لعبته الحكومات الغربية في الشرق الأوسط في العقود الأخيرة. لماذا لا يُذكر هذا الأمر في المحطات الغربية إلا نادراً خلال سقوط وابل من القنابل على بغداد؟

هناك أمور أخرى لم يتم التطرق إليها في النشرات الإخبارية لوسائل إعلام الاتجاه السائد. ففي حين كانت محطات عربية تعرض للعواقب الإنسانية الناجمة عن القصف ساعةً بساعة، قامت المحطات

الغربيـة بأمـر آخـر. فـي كل مسـاء، كانت أقسـام الرسـوم التخطيطية تُعدّ لوحـةً عـن المنطقـة متمَّمـة بالخرائط، والطائرات، والسـفن، والدبابات، وصـور صغيـرة، وأسـهم، ونجـوم صفراء وحمراء. وفـي لقطات الفيديو المكرَّرة على السي أن أن أو الدعايات التي تروّج لبرامج المحطة، كنت تـرى مقاتـلات تهبـط على حامـلات طائرات، ويقوم الربّان برفع إبهامه: لقد تخلصتُ من القنابل. لقد أظهرت الصور المتحركة المُعَدّة بواسطة الكمبيوتر كيفية تمكّن قاذفات ستيلث المتسلّلة من تفادي الرادار. انظروا كم نحن أذكياء، تقول الأفلام. يمكننا صناعة صاروخ يستهدف مرحاضاً بعد قطع مسافة ستمئة كيلومتر، والمرور فوق درجات السلّم.

لم يكن هناك أي صور متحركة مُعدّة بواسـطة الكمبيوتر تُظهر ما الـذي حـدث بعـد الانفجـار، كيف تنشـر قنبلة عنقوديـة 140 لغماً يمكن لكل منها تدمير دبابة. وقليل من هذه الألغام لا ينفجر، وهكذا تحصل علـى ألغـام غيـر منفجـرة فـي أماكن يلعـب فيها الأطفال. ولم يكن هناك أيضاً أي رسـوم على الكمبيوتر تُظهر ما يحدث للجسـم البشـري عندما تنفجر قنبلة خوائية من الجيل الجديد في المحيط.

كان مراسلك جالساً في غرفة الفندق يهزّ قبضته قبالة التلفاز. وبعد أمسيتَين كهذه الأمسية، كتب المقالة التالية:

اختبـرت القصـف بنفسـي، وغالبـاً مـا أفكر في الأمر في هذه الأيـام. حـدث ذلـك فـي غـزة، ولم يكن بالإمكان مقارنة ما حدث في الأيام السـتة الماضية مع ما تعرّض له سـكان بغداد والموصل وتكريت لجهة اتساع رقعة القصف أو مدة القصف. مع ذلك، هناك بعض التشابه. يمكنك على الدوام سماع أنباء عن وقوع إصابات في صفوف المدنيين، وإذا لم يكن عدد الجثث مرتفعاً جداً تكون حرباً نظيفة. يا له من هراء.

إذا كنت في مكان تساقط القنابل، فإن ما تشعر به أكثر من أي شيء آخر هو العجز. فحياتك هي بين يدَي شخص ما موجود وراء لوحة مراقبة أو في مقصورة الربّان؛ باستطاعته اتخاذ قرار يؤدي إلى موتك أو إعاقتك. في غزة، شعرت بخوف مُغثٍ جداً بحيث إنه كان عليّ التخلص منه على الفور. لقد بدا أن الفلسطينيين المحيطين بي يقومون بالأمر نفسه أيضاً وأننا في عرض مسرحي. أه، ها هي قنبلة أخرى تسقط. كان باستطاعتنا الرقص أمام الكاميرات كالعراقيين الذين ترونهم يرقصون أمام تلفزيونهم الوطني الآن. «عراقيون لا يهابون القصف الذي تعرضوا له الليلة الماضية»، هو عنوان لمشهد على السي أن أن. «عراقيون لا يشعرون بالخوف بعد قصف الليلة الماضية».

إنه هراء. لقد تحدّث عمال إغاثة فلسطينيون في غزة عن قنبلة رفعت حدة العنف المحلّي وأدّت إلى إجهاضات تلقائية، ونوبات قلبية. ولم تكن الكلمات الأولى للأطفال بابا أو ماما بل «قنبلة»، «شهيد»، و«طائرة»؛ رسوم مقاتلات، ورصاصات، ودماء، وضعها أطفال يريدون الانضمام إلى المقاومين عندما يكبرون بدلاً من أن يصبحوا لاعبي كرة قدم أو ممثلين، ولا يلعبون لعبة الإمساك بأحدهم الآخر، بل لعبة الجنود ودافني الموتى. ووفقاً لعالِم نفس محلّي، «يصرخون الله أكبر أمام الكاميرات، ولكنهم يبلّلون أسرّتهم ليلاً». ولم يعُد يجرؤ الأهالي على ممارسة الجنس لأنهم يخشون وقوع هجوم ويكون عليهم الركض بسرعة إلى أطفالهم. لقد أخبر أحد الآباء في غزة كيف تقوم ابنته البالغة من العمر ثماني سنوات بارتداء ملابسها سرّاً قبل الخلود إلى النوم، وذلك لتتمكن من الركض إلى الملجأ مباشَرةً خلال القصف.

هنـاك الاتصـالات الهاتفيـة الهسـتيرية عندمـا تعـود شـبكة الاتصـالات للعمـل، هـل نجـا الجميـع؟ هل لا يـزال العمل الذي تكسـب العائلـة منـه رزقهـا قائماً؟ هل تـمّ نهبه؟ فبوليصات التأمين لا تغطي أضـرار الحـرب، ولا يملـك معظم الأشـخاص تأمينات. وعندمـا تسـقط القنابـل، لا يمكنـك الخـروج، ويشـمل هـذا الأمر سيارات الإسـعاف وسـيارات الإطفـاء. لذلـك، إذا سـقطتَ علـى درجات السلّم أو وقع لك حادث آخر، يتعيّن عليك انتظار توقف القصف تماماً. يجعل هذا الأمر الأهالي عصبيّي المزاج أكثر فأكثر لأن الأطفال يركضون في أرجاء المكان عندما تسقط القنابل. هم يختبئون في الحمام أو يحاولون الركض بأقصى سرعة في الشارع، ومن الطبيعي أن يسألوا متى يتوقف القصف.

قال لي عمال الإغاثة إن الأهالي الفلسـطينيين يائسـون جداً لطمأنة أطفالهم بحيث إنهم يلفظون كلمة غداً، أو في غضون ساعة. ولكن القصف يستمر، ويفقد الأطفال ثقتهم بأهلهم، وهم ملاذهم الأخير.

هذا ما أفتقده أكثر من سواه في وسائل الإعلام: صور أطفال صغار يزحفون إلى داخل حفرة، ويضربون ويركلون أهلهم بشـكل هسـتيري لأنهـم مُربَكـون؛ آيـات مـن القرآن تُتلى مـن المآذن خلال القصف لمسـاعدة الناس على التخلص من خوفهم الشـديد. لم أرَ ذلـك أبـداً ولا حتـى علـى الجزيـرة. إنهم يتمسـكون بالحظر العربي لعـرض الأسـى وقابليـة التعـرّض لـلأذى، ويُرفقـون صـور القتلـى والجرحى المريعة بنصوص عن «مثابرة الشعب العراقي البطولية».

لقـد بلغنـي فـي وقـت لاحـق أن هـذا الأمر يحدث للمراسـلين في

غالـب الأحيـان: تـؤدي فتـرة من الاضطراب إلى اسـتعادة ذكريات تعود لفترات مماثلة، وتكون فجأةً بحاجة إلى إفسـاح الطريق لمشـاعر كنت قد كبتّها مع الوقت. لم أضع مقالة أخرى طوال مزاولة مهنتي أدت إلى هذا الكم من ردود الفعل، خير مثال على أنك لا تستطيع وضع أفضل كتاباتك في غالب الأحيان إلا خارج الإطار الصحافي.

إنها المواد التي يمكنها إظهار واقع الحرب، كقيام قناص متمرّس مثلاً بوصف ما يكون عليه الحال لدى اختيار عراقيين كما لو أنهم بط؛ فالأسـلحة الأميركيـة بعيـدة المـدى بحيـث إن العراقييـن لا يدركون أبداً وجود أحد في المحيط حتى تصيبهم الرصاصة. أو دَع إسرائيلياً يشرح لك حرب الشـوارع. أنت تتحدث عن زقاق، ويفتح باب فجأةً. فتطلق النار قبل النظر إلى الهدف لأنك إذا لم تطلق النار وكان الهدف شخصاً مسلّحاً يُقضى عليك؛ وقد تكون فتاة في الثامنة من عمرها بقميص النوم وعلى وجهها أمارات الدهشة، فتخرّ على الأرض ميتة.

هذه هي الحرب، ولكن تقارير السي أن أن تشبه في أغلب الأحيان الإعلانـات التـي يسـتخدمها الجيـش لتطويـع جنود: «الأسـطول الحربي البحري يؤسّـع عالمك». «فوق كل شـيء - سـلاح الطيران». عرضت محطات عربية مشاهد قاسية بطريقة لا يمكن تصوّرها لجدات حزينات وقلقات ورؤوس أطفال ممزّقة، ساعة بعد ساعة، وإن بطريقة تثير غضب وتحدّي المُشاهد أكثر مما تثير الحزن والتعاطف. وظهر في مشهد آخر لم أتمكن من الكف عن التفكير فيه بعض الجنود العراقيين القتلى في حفرة وهم لا يزالون ممسكين بالراية البيضاء.

فـي أوقـات مماثلـة، بـدت الهـوة بيـن الشـرق والغـرب كبيرة جداً ليس لأننا مختلفون عن بعضنا، بل لأن صوراً مختلفة تُنسَب إلى الناس

وتُعـرَض لنـا. ويومـاً بعـد يوم، كان العرب يشـاهدون عراقيين مفجوعين تحوّل أفراد عائلاتهم إلى أشلاء، وتبعثرت أطرافهم في المكان؛ لقد ضاع كل شـيء. ويسـمعون من ثم الرئيس الأميركي يزهو بالانتصار المحقَّق وعينه على الانتخابات القادمة، ويرفض الإجابة على سؤال حول اعتبار «الأضرار الجانبية» إصابات عرضية.

لـو قامـت وسـائل الإعـلام الغربية بواجبها خـلال الحرب، لجلس المشاهدون أمام أجهزة التلفزة يبكون ويتقيّأون. ألم يحدث ذلك لأن أيّاً ممـن يمتلكـون خبـرة فـي الحـرب تقريباً لم يعمل أبداً مع فِرق التحرير؟ هـل يعـود سـبب ذلـك إلـى أن بعـض المحرريـن وجـدوا لُعباً عسـكرية تحمـل أسـماء مثـل أباتشـي وتوماهـوك وديـزي كاتر أمراً مثيـراً؟ ينتابني قلق في أن يكون السـبب أسـوأ من ذلك. فقبل انتهاء الحرب، كشـفت الـ إنترناشونال هيرالد تريبيون عن النصيحة التي كانت قد تلقتها محطات الإرسال الأميركية الرئيسية من الوكالات الاستشارية. لقد ساعد هؤلاء الخبـراء التسـويقيون المحطـات علـى اكتشـاف مـا يحـب جمهورهـا أن يشاهده. فمحطات الإرسال الأميركية هي مؤسسات تجارية بالرغم من كل شيء. وكانت التوصيات واضحة: كلما كان التقرير أكثر وطنية، ازداد عدد المشاهدين. لا يُفترض أن يكون هناك تظاهرات مناهضة للحرب، وروايـات عـن ضحايـا يُرثـى لهـم، بل الكثير من الأناشـيد، واسـتعارات أدبيـة مجازيـة عـن الوطـن، ونجوم وخطوط مرفرفة، في الاسـتوديو، في الشـعار، في اللقطات الفيديوية. وأوجز أحد المستشـارين الأمر بثلاث كلمـات: «الرايـة تـدرّ المـال». وهـذا ما ثبتت صحته في النهاية. فأربعون من أصل خمسـين برنامجاً من البرامج الأكثر اسـتقطاباً للمشـاهدين في أميركا أثناء الحرب كانت برامج لفوكس نيوز وصفت صدام حسين بأنه «الفتـى الكبيـر السـيّئ مـن بغداد»، وتبنّـت المصطلحات الغنيّة بالمعاني،

والمقاربة، والمواضيع التي نقلها إليها مركز القيادة الرئيسي في قطر، والتي تصف المحتجين المناهضين للحرب في أوروبا أن «الشيوعيين قاموا بتنظيم صفوفهم».

لقد كان ذلك فلتراً إضافياً للأخبار: الزبائن. ففي أوروبا أيضاً، أظهرت التقديرات أن الناس يفضّلون قيام مذيعهم المألوف، وليس خبيراً مُملاًّ، بإطلاعهم على المستجدات. ويفضّلون كذلك مشاهدة أفلام قصيرة عن الولايات المتحدة وليس تحاليل معقّدة عن تضارب المصالح ومواضيع تاريخية تشوّه صورة بلدهم. وفي أوروبا كما في أميركا، يُحكَم على رؤساء التحرير في المقام الأول من خلال نسبة القراء والمشاهدين.

كان الأمر يدعوك للحزن وليس إلى ازديادك حكمة، ولم تكن الأشهر والسنوات التي تلت الاجتياح تدعو إلى التفاؤل. فلم يتم الترحيب بالجنود الأميركيين في العراق بالأرزّ والزهور، بل بالقنابل والرمّانات اليدوية. وبالرغم من عدم العثور أبداً على ما يثبت وجود تعاون عراقي مع القاعدة، يستمر نصف الرأي العام الأميركي تقريباً بعد خمس سنوات من 9/11 بالاعتقاد أن صدام حسين مسؤول عن الهجمات وأن معظم مختطفي الطائرات عراقيون. وثبت في النهاية أن الفكرة القائلة إن العراقيين سيرحّبون بالجنود الأميركيين روّجت لها المعارضة العراقية في المنفى التي استعانت بمؤسسة ذي راندوم غروب الاستشارية. وثبت أيضاً أن احتفال العراقيين في ميدان الفردوس بالإطاحة بالتمثال الضخم لصدام حسين - «بغداد تحتفل بالتحرير»؟ - لم يكن احتفالاً شعبياً بل أمراً مدبَّراً من قِبَل مئتَي عراقي تقريباً وضابط عسكري أميركي حادّي الذكاء. عودة إليك، يا جيم.

خاتمة

تغطي الأحداث في هذا الكتاب الفترة الممتدة بين عامَي 1998 و2003، وقد حدث تبدّل كبير في بعض الأمور منذ ذلك الحين. وبدأ عدد من المحطات التلفزيونية الإخبارية الناطقة بالعربية البثَّ، ويستخدم شبان هواتفهم ليصوّروا سرّاً مضايقات جنسية في الشارع وينقلونها إلى فايس بوك، وغادر أرييل شارون وياسر عرفات المسرح السياسي، وظهرت إدارة أميركية جديدة، وخيضت حربان في غزة لبنان.

في الوقت نفسه، بقي الكثير على حاله بشكل أساسي منذ العام 2003. فالتغطية الإخبارية لوسائل إعلام الاتجاه السائد في الشرق الأوسط لا تزال كما كانت منذ سنوات قليلة، ولا يوجد أي سجال جوهري حول تأييد الدعم الغربي للحكام العرب أو رفضه، وكيفية التوفيق بين هذا الدعم الذي دام عقوداً من الزمن وبين المُثُل العليا المزعومة التي تعتنقها الحكومات الغربية المُحِبة للحرية. وبُذلت جهود قليلة لشرح دوافع مجموعات كالقاعدة، والمُعضلات التي تواجهها وتصوّرها لذاتها، مما يزيد من صعوبة إلحاق الهزيمة بها. ولا تزال ماكينات العلاقات العامة للناتو وإسرائيل سرّية إلى حدٍّ كبير، ولا تزال لها اليد الطولى في فرض مفرداتها ومبادئها. ولا عِلم لي بوجود وسيلة إعلامية تابعة للاتجاه السائد في أي مكان من العالم تشرح سبب اختيار مواضيعها، ووجهات نظرها، ومصطلحاتها، والمعايير التي تعتمدها للإصغاء إلى فرقاء معيّنين في النزاع دون غيرهم.

عندما ظهر هذا الكتاب في هولندا صيف العام 2006، قررت عدم تضمينه خاتمة تحتوي على اقتراحات لإحداث تغيير. لقد بدت لي المشاكل كبيرة ومتنوعة جداً لدرجة أنها تحتاج إلى إعادة تفكير جوهري في المسلّمات الأساسية لصناعة الخبر. وبما أنه لا وجود لحلول فورية وجليّة، أملت في حدوث نقاش حول المشاكل نفسها.

لقد كنت مخطئاً، وقد اكتشفت ذلك من خلال الكتاب نفسه. فإذا لم تضع حلولاً بنفسك، سيقوم آخرون بذلك، وقد لا تفهم ما يضعه الآخرون. في هذه الحالة، اعتبر النقاد، والزملاء، والمحررون الصحافيون أن الكتاب يدّعي أنه «لا جدوى من الصحافة». حتى إن بعض زملائي الهولنديين استفاضوا في شرح ما ورد في كتابي لدحض هذا الادّعاء واثبات مدى جدواها. كان أمراً سخيفاً وساراً في آن: تضع كتاباً يحمل رسالة تقول إن كل رسالة تشوَّه عندما تغطيها وسائل الإعلام، وماذا يحدث؟ تشوَّه هذه الرسالة أيضاً.

قد لا يكون زملائي حمقى، بل غيارى، لأن ربع مليون نسخة من هذا الكتاب بيعت في هولندا وحدها حتى الآن. وهو اليوم في المجر، وإيطاليا، والدانمارك، وألمانيا، وكانت لي بعض المواجهات المُضحِكة في بعض هذه الدول مع بعض الزملاء أيضاً الذين قالوا، حسناً، قل لي بجملة واحدة ما هو موضوع كتابك، فأجيب: يتناول الكتاب استحالة شرح الوضع بجملة واحدة. فيضحك الزملاء بتهذيب، نوعاً ما، ومن ثم يقولون: انظر، لدينا اثنتا عشرة ثانية فقط لهذا الاقتباس.

بالعودة إلى الماضي، أتمنى لو أنني كنت أعرف في ذلك الوقت العبارة التي قلتها مؤخراً: يتناول هذا الكتاب العوامل التي لا يمكن للصحفيين التحكم بها، ولكنها تؤثّر في ما يقوم أولئك الصحفيون بتغطيته وفي كيفية تغطيته. وهكذا، يتعيّن إذاً عدم تجاهل أو إخفاء أو

حجب تلك العوامل، بل دمجها بطريقة من الطرق في تغطية واحدة مما يساعد المشاهدين والقراء المشككين على فهم ما يرون ويقرأون بشكل أفضل.

كيف يكون ذلك؟ يبدو أن التغطية تواجه خمس مشاكل رئيسية على الأقل كما هو الحال الآن. أولاً، يجب على وسائل الإعلام الإخبارية أن تجد طرقاً لإبلاغ مشاهديها وقرائها بما تسعى وراءه: الخبر. فحتى 9/11، لم يكن أحد في الغرب، باستثناء المسلمين الغربيين ومجموعة صغيرة من الخبراء المحترفين، يعرف الكثير عن الإسلام. وبعد ذلك، جعلت القاعدة من الإسلام الخبر - كما نعلم، تتناول الأخبار المشاكل والنزاعات - وبالنتيجة، قُدّم للمشاهدين والقراء الغربيين مئات ومئات الروايات التي تضع الإسلام والعنف في إطار واحد. فلا عجَب بلوغ العديدين الاستنتاج القائل إن الإسلام عنيف فِطرياً. فإذا كان الصحفيون يضيئون على المشاكل والنزاعات في الغالب، فهذا ليس خطأهم لأن الأخبار تتناول هذه المواضيع في العادة. ولكن من مسؤولية الصحفيين التأكد من أن مشاهديهم وقرّاءهم يُدركون أن ما يرونه أو يقرأونه هو الاستثناء وليس القاعدة.

ينطبق الأمر نفسه على ما يدعى معلومات متمِّمة. فالمشكلة التي نواجهها هذه الأيام مع وسائل الإعلام لا تتمثل باستحالة العثور على مواد متمِّمة جيدة: نشرات مثل إكونوميست، بي بي سي، وأفلام أن بي أر الوثائقية، ومقالات أطول في نيويورك ريفيو أوف بوكس ولندن ريفيو أوف بوكس. وتكمن المشكلة في أن أحداً تقريباً لا يقرأ هذه الأمور، ويكون الخبر البارز غير مفهوم من دون ما يُدعى مواد متمِّمة. وكما قال أحد النقاد الألمان، تنتشر بين الصحفيين آلية التهرّب المتمثلة في أنه ما دام باستطاعة القراء والمشاهدين العثور على مواد جيدة في مكان ما

من الوسط الإعلامي، فمن غير المهم إذاً أن تكون بقيّة وسائل الإعلام زاخرةً بأخبار دون المستوى المطلوب.

يتعلق السبيل الثاني إلى التغيير بتغطية المجتمعات غير الديمقراطية. فمكان ما - كبعض دول الشرق الأوسط مثلاً - ليس دولةً مع جيش، بل جيشٌ مع دولة. فهذا الأمر خافٍ عنّا بسبب قيام النظام باستخدام تعابير مألوفة لنا: رئيس، برلمان، شرطة، حزب... ولكن هناك نظام مختلف تماماً وراء هذا المظهر الكاذب. لذلك، يستحيل ممارسة الصحافة في دولة بوليسية إلا باستخدام تعابير متناقضة؛ من الممكن أن تكفّ الدكتاتورية عن أن تكون دكتاتورية إذا وُجدت فيها الصحافة المعهودة.

لقد ردّ بعض الزملاء على هذا الرأي قائلين إنها مسألة جهد: أنت بحاجة ببساطة إلى العمل بجهد أكبر ويكون لديك مصادر معلومات أفضل. ولكن إذا قمتَ بهذا الأمر، وتمكنتَ من العثور على عضو في المعارضة مستعدّ للإدلاء بتصريح يمكن اقتباسه، وتحققتَ من بعض الوقائع، سيكون هذا «النجاح» أكبر فشل. فبوضع مقالة إخبارية تُظهر ديمقراطية دولة ما تكون قد أخفيتَ عن غير قصد الأمر الأكثر أهمية: أن الدولة التي تغطيها ليست ديمقراطية على الإطلاق، إضافةً إلى كل الاستنتاجات التي قد تنجم عن ذلك.

وعندما تُقرّ أن الوسائل التقليدية لاختيار المواضيع الصحافية الملائمة للنشر تتلاءم فقط مع النظام السياسي الذي يرعاها - الديمقراطيات - يُفتح الطريق أمامك لوضع تقارير غير تقليدية. حبّذا لو أنني كنت أعرف ذلك.

ثالثاً، نحن بحاجة إلى تضمين التغطية واقعاً ففي حين يوضِّح الخبر ما يجري في العالم، يؤثّر هذا الإيضاح في العالم نفسه. ويجب

القيام بصفة خاصة بأمر ما في شـأن تهرّب مؤسسـات وأقسـام العلاقات العامـة مـن العقوبـة بسـبب طريقتهـا المتّبَعة فـي العمل، وهي قادرة على الاستمرار باعتماد هذه الطريقة لأن وسائل إعلام الاتجاه السائد مستمرة بالادعاء أن هذه المؤسسات غير موجودة في الواقع. فإذا دخل مراسل ما ملحقاً بالجيش إلى منطقة معارك، لا يُفترَض الإشارة إلى هذا الأمر فحسب، بل جعله محور الاهتمام. ويُفترض بالمراسل أن يستهلّ رسالته بكل المواضيع المطروحة في الرسالة، وذلك من خلال جملة على هذا النحـو: «بالطبـع، لا فكـرة لـديّ عمـا يُخفونه عني، ولا يمكنني التحدث إلـى الجانـب الآخـر، ولكـن مـا يصدمنـي حتى الآن فـي هذه الجولة مع جنود البحرية هو...» من الطبيعي أن تكون هناك حاجة إلى إعادة تفكير جَـذري فـي الافتراضـات الأساسـية الآنـف ذكرها. ويصبح قدر كبير من الروعة التي يسـتمتع بها المراسـلون مثيراً للسـخرية فجأةً عندما توسّـع الإطار وتكشفُ النقاب عن طريقة عملهم الفعلية.

ترتبط هذه النقطة بميدان آخر للتحسـين. فوسـائل الإعلام موازية للسياسيين والمؤسسات، وعندما تفشل وسيلة إعلامية فإن ذلك قد يؤدّي إلى عواقب خطرة. لذلك، عندما يُكتشف أمر قيام وسائل إعلامية بالمبالغة أو الكذب (من خلال الإغفال أو الإشارة) يُفترض قيام وسائل إعلامية أخرى بمعاملتها بالطريقة نفسـها التي يعامَل بها سياسـيون ومؤسسـات يلجأون إلى الغش. فعندما تُخبر السي أن أن كِذبة، قد يكون الأثر أكبر بكثير من الأثر الذي يتركه قيام حكومتي الهولندية الغبية الصغيرة بإطلاق كِذبة ما. ولكن الأمر يُعتبر في الحالة الأخيرة خبراً؛ وفي الحالة الأولى، يتم ذكره في أفضل الأحوال في صفحة التتمات.

هناك اقتراحان أخيران. تحتاج وسائل الإعلام الإخبارية إلى الارتقاء إلى مسـتوى مشـاهديها وقرائها لجهة تنوّع وجهات النظر المحتمَلة في

شأن موضوع معيَّن. ويحتاج القراء والمشاهدون إلى أن يتم تذكيرهم أن ما يتم الإجماع عليه هو عدم وجود أي إجماع؛ حتى في هذا الأمر.

تبدو مواقع الوِب ملائمةً بشكل مثالي لنقل وجهات النظر تلك. فالمحرر الأجنبي يستخدم «حاجز الفصل»، أو «جدار التمييز العنصري»، أو «سياج»، أو أي تعبير آخر متوافر لذلك الشيء الإسمنتي القائم في الضفة الغربية؛ أعني في يهودا والسامرة[1]؛ في الأراضي الفلسطينية؛ في الأراضي المحتلة - آه، لا، المتنازَع عليها. أم أنها «محرَّرة»؟

ما حاولت أن أُظهره في هذا الكتاب، يتخطى بأهمية مفرداته المستخدمة الموضوع المطروح. ومن الرائع قراءة أكثر من تفسير لحادث إخباري، ولا سيما عندما يكون ذلك التفسير مرتبطاً بشرح لوجهة النظر العالمية الضمنية. فالقاعدة تصوغ معظم أعمالها بتعابير دفاعية. وإذا أردنا أن نفهم ما تدعو إليه القاعدة، يجب علينا أن نطّلع على كيفية التعريف بنفسها، وليس فقط على نظرة المؤسسة السياسية الأجنبية الغربية لها.

من يعرف التقنية السردية الرائعة التي قد تتكشّف عن هذه الشروحات. فالمكاتب الأجنبية لوسائل الإعلام تتمتع بمقدار كبير من الخبرة تساعدها على اتخاذ قرار في شأن القصة الصالحة لتكون خبراً أم لا، ألخ. لماذا لا نختبر الأمر من خلال عمود في صحيفة أو في موقع على الوِب يشرح فيه المحرر الأجنبي يومياً المعيار المتَّبَع لتحديد الخيارات الصحافية لذلك اليوم؟ قد يحملكم هذا الأمر على الاطّلاع على أخبار اليوم، فتحددون ما هو مشكوك بأمره، والمناطق التي لا تتم تغطيتها، والقصص التي لم تتم معالجتها بسبب عوامل خارجة عن إرادتنا...

(1) يهودا والسامرا هي المصطلح اليهودي الذي يستخدم للتعبير عن الضفة الغربية

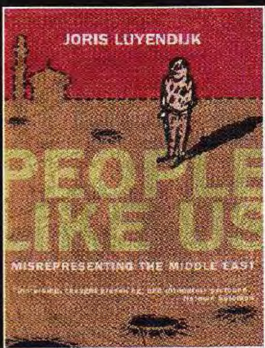
أخيراً، هناك التفسيرات والقوميات المتأصلة في كافة وسائل الإعلام المرتكزة على السوق. لقد اتُخذ قرار بطريقة من الطرق في تاريخ ديمقراطياتنا بوجوب التعاطي مع الخبر كمُنتَج وليس كسلعة. فالمُنتَج يلائم السوق حيث تسود النسخة الأكثر شعبية. والسلعة تلائم المجتمع المدني إضافةً إلى الحماية التي تؤمّنها الشرطة، على سبيل المثال، والعدالة التي يؤمّنها الجهاز القضائي. (في أوروبا، تُعتبر العناية الصحية سلعة أيضاً).

من الصعب جداً معرفة كيفية استمرار الديمقراطيات عندما لا تعكس المعلومات التي يستند إليها المقترعون لاتخاذ قراراتهم الانتخابية ما يحتاجون إلى سماعه بل ما يحبون سماعه. فإذا منح الناس الطعام الذي قالوا إنهم يحبونه، يصبحون بدينين. وإذا أعطيتهم المعلومات التي يريدونها، يصبحون جاهلين وقانعين بما لديهم. أجل، لقد انتخبت الولايات المتحدة باراك أوباما، ولكن بنيتها التحتية من المعلومات ما زالت غير قابلة للاستعمال. وما لم تحدث هذه التغييرات، فإن داعية جاهلاً آخر للسياسة الشعبية ومتشوّقاً للقتال سيفوز بالانتخابات عاجلاً أم آجلاً، فيُقحم الولايات المتحدة - والغرب الديمقراطي معها - في مغامرة عسكرية كارثية أخرى.

مقاربة أخيرة: إن الناس الذين كتبتُ لهم هذا الكتاب وهذه الخاتمة هم الأقل احتمالاً لقراءته. ولكنني مجرّد متفائل بأوروبا القديمة. آمل ذلك.

حاشية: لأسباب يُفترض أنها باتت جليّة الآن، قمت بتغيير عدة أسماء، كما أنه تم اختصار بعض المقالات التي اقتبستها..

في «بشـر مثلنا»، يَـروي جوريس لونديك قصة سنواته الخمس التي قضاها كمراسل في الشرق الأوسط. فبالرغم من صِغَر سنّه كمراسل، ولكن وبفضل طلاقة لسانه بالعربية، تحـدّث لوينديـك إلى رماة الحجـارة، وسائقي سيـارات الأجرة والأساتـذة، والضحايا والمعتديـن، والطلاب والعائـلات. لقد أرّخ لخبراته مع الأنظمـة، والاحتلال، والإرهاب، والحرب من مصادرها الأساسية، كما أن قصصه سلّطت الضوء على عدد من الأزمات الرئيسيـة، بـدءاً بحـرب العـراق وصـولاً إلى الأزمـة الإسرائيلية-الفلسطينية، إضافةً إلى مواضيع أخرى هامّة.



رغم هذا الانغماس في تفاصيل الحياة اليومية، فهو يرى أنه كلما شهـد أموراً إضافية قلّ فهمه لما يجري، ويشرح هنا كيف أصبح مـدركاً أكـثر فأكثر للهوة العميقة بين ما يـراه على أرض الواقع ومـا تـورده وسائـل الإعـلام العالميـة. وكمراسـل، كان عليمـاً بمجموعـة كبـيرة من الأخبـار ذات المعاني الضمنيـة المتضاربة، وقـد لمـس مـراراً وتكراراً كيـف تفضّـل وسائـل الإعلام الغربيـة تكـرار القصص التي تتضمّن معتقدات ومعارف الغربيين الشعبية المبسّطة حول العرب.

هـي رواية التحرر من الأوهام وتفحّص المرء لمشاعره في المناطق الأكثر احتلالاً للعناوين الرئيسيـة في العـالم. يُقدّم «بشـر مثلنا» – الذي أصبـح شديد الـرواج في مسقط رأسه هولنـدا – أمثلة قوية ممزوجـة بالفكاهة لتوضيح الطرق التـي تعتمدها وسائل الإعلام الغربية لعرض صورة نمطيّة عن الواقع في الشرق الأوسط.

وُلـد **جوريـس لوينديـك** عـام 1971. درس اللغة العربيـة والعلـوم السياسية في جامعـة أمستردام وجامعـة القاهـرة. في العام 2005، مُنح جائزة صحفي العام من قِبَـل ذي جورناليست، وذلك بعد أن قام الاتحاد الهولندي للصحافيين بالمفاضلة بين الصحفيين الدوليين الأربعين الأكثر تأثيراً.

Cover photo: © nali - Fotolia.com

تصميم الغلاف: سامح خلف

ISBN 978-9953-87-858-4
9 789953 878584

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
ص. ب. 5574-13 شوران 2050-1102
بيروت – لبنان
هاتف: 785107/8 (1-961+)
فاكس: 786230 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com